قِوَامَة

هدى محمد حمزة

الكتاب: قِـوامِـة
المؤلف: هدى محمد حمزة

رقم الإيداع: ١٣٧٤١ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-841-2
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

قِوَامَة

رواية

هدى محمد حمزة

إهـداء

إلى الصوت الشجي... فادي

يا ولدي:

أغفر لمن جنى عليك

ولا تغفر لمن جنى على نفسه بما فعل

هذا هو قلبك العظيم يُحلِّق فوق الجبال، ويستهزئ بالخيبات، ليستقبل السعادة، فقد دفعنا ثمن التذكرة لماضي مَرَّ كالحلم لرؤية النهار.

(١)

كل ما هنالك يشيخ
الطريق.. الوقتُ
الانتظارُ الطويلُ
الأفواهُ المُغلقةُ
إلا البحرَ..
وصريرَ الشهيق
في قبضة البياض
إلا أكوام الذاكرة
المُجَلجِلة
بسخاءٍ..

أسفر الصباح عن وَقْع طَرقات صاخبة على أحد جوانب البيت الضيق المخبوء بين تفرعات ممتدة على طول تعرُجات «قاضي جبران» [*]، الواقعة في شارع المستوصف الحكومي، عبر طُرُقات متتالية وأسواق مكتظة، طُرُقات لم

* اسم منطقة في محافظة بابل، جنوب بغداد.

تتوقف حتى استيقظت (ثائرةُ) من نوم عميق جرَّاء تعب النهار الفائت، لم تعرف مصدر الصوت، نهضَتْ مسرعةً بعد أن أزاحت الغطاء عنها، فتحت باب غرفتها فرأت زوجها يقف تحت النافذة، يحمل بيده مطرقة، منهمكًا في وضع ألواح خشبية يُثبِّتها بأحكام على الشُّباك المطلِّ على الحيِّ، فتحت عيونها بالكاد فلم يزل النعاس يغالبها، اختلطت في رأسها رائحة النوم مع رائحة صمغ الأخشاب، وحفيف حلقات الستائر وهي تنزلق على قضبان الشباك، فقالت:

– هيّ.. هيّ.. على رِسلك، على رِسلك، ما هذا الطَّرْق الذي يمزق عباب الدماغ من الصبح؟!.

ردَّ أحمد بفم أغلقتهُ السيجارة المُثبَّتة بين شفتيه:

– أنتِ لا تسمعين الكلام ولا تقفلين الشبابيك، لذا اضطُررت إلى إغلاقها بالمسمار هكذا، لم أُرِدْ إزعاجكِ أو إيقاظكِ مبكرًا....

قاطعَتْهُ:

– تزعجني؟ والطَّرْقُ هذا ماذا تسميه؟ ما الذي تفعله الآن؟

– أنتِ تتذمَّرين مني؟! لا أعتقد أن رجلًا مثلي محترمًا يسمح لزوجته أن تُحدِّثه بهذه اللهجة، لكني سأعتبر أنِّي لم أسمع منكِ أيَّ تذمُّر.

– هل نحن في سجن؟! السجن مرة أخرى...

قاطعها ساخرًا:

- هل هذا حجاب؟

- ما علاقة هذا بذاك؟ أتدرك أن الحُور يُرى مُخُّ ساقها من وراء سبعين حُلَّةً؟ وتتكلم عن الحجاب!

- أليس الحجاب سترةً وشرفًا للمرأة، ويجُبُّ عنها تفاهات الناس؟ اِبقَيْ هكذا طيبةً لا تعرفين ما الذي يدور حولك. ألَا تعلمين أن الرجال ينظرون إلى المرأة على أنها فتنة؟ ألم تتعظي من السجن؟

- أتّعظ؟ هل هو سُبَّة أو مَثْلبَة؟ والله أنا أنصحك بأن تذهب ألى أحد الأطباء النفسيين...

- ماذا؟ يا بنت الـ...

نزلت شتائمه على رأسها صواعقَ حارقة، رماها بالمطرقة، تحاشتها فأصابت المِرآة القريبة منها، هربت لتختبئ في خزانة الأواني والأطعمة، لتَحَاشِي غضبه، لكنه ظلَّ يواصل غِلظته: «هل تظنين أني سأُبقيك هكذا؟».

كانت الثواني تمر بطيئة، تعجز عن مساعدتها على إيجاد حل، فوجوده مجرد اِسم، كانت في حَيرة من أمرها وقتَها، وعلى وجهه ترتسم فرحة الانتصار.

هي فتاة عشرينية، تهرب من ذاتها ومن أهلها إلى أحلامها، تبحث في البعيد لاهثةً خلف حلم اِنتابَها مرَّاتٍ ومرَّات، حيث

القدر يتواطأ مع كل ما يحيط بها، وبمجرد أن تغمض عيونها يتكرر الحلم بحذافيره، تتلمَّس الغياب فتغيب الذاكرة كمن لا ذاكرة له.

كان حلمًا مُثقَلًا برائحة الغَرابة، كأنه من حكايات شهرزاد، كانت تهمس «هل يمكن أن أقتفي حلمًا اِستأصَلَني ممَّا حولي وقرَّر قَدَري؟!»، الحلم يتكرر كلَّ مرة ويتكرر كأنه إحدى المُعلَّقات السبع التي كُتبت لها الحياةُ أبدَ الدهر، أَوْجسَتْ منه خِيفةً، شعرَتْ أنها أمامَ لغزِ بَحرٍ، كأنَّها وُلدِت هكذا.

كانت صيغة الحلم تستحثُّها على التفكير فيه، إذ يتراءى لها أنها عند شاطئ بحر لا أُفقَ له أمامها، تقف على صحراء مترامية الأطراف، مَشدوهةَ الحدقات، تختطف نظراتها سعة الضوء الذي يجتاز البياض، ويُخيَّل إليها أنه كان يتنبَّأ لها، ربما بالرحيل، ولم يحدد الوجهة إلى أين...

وها هي بَيضة الرمال في كفِّها، تفقس عن صحراء الأرصفة، فيما هي وحدَها مفصولةٌ عن كل شيء ما عدا انتظار صوت الوقت وهو يقدِّم نفسه بأشياءَ محددةٍ، الوقتِ الذي تعهَّد بأن يكون شرطيًّا لفردوس الأرض، وأن تكون هي كباقي نساء الأرض.. لها بيت وأطفال، قُدِّرَ لها أن ترتبط بهم إلى الأبد بميثاق الأمومة والطفولة والإنسانية، الوقتِ الذي رسم لها حياة أخرى وقدَّرَ لها أن تعيشها في زمن تُحرِّكه المصادفات الغريبة والمصير.

كانت يافعةً، أكثر نُضُوعًا من العاج، آرِيَّةَ الشكل، متمردةً بربريةَ الطِّباع، قَصَّةُ شَعْرِها لوزيةٌ، ذاتَ بشرة صافية، يجتمع جمال الدهر في عينيها العسليتين، والأهداب تضفي عليهما صبغة السَّواد، تنبعث منهما نظرات الصراحة المَشُوبة بالسذاجة الجريئة، قليلًا ما تكشف شفتاها المُكتنِزَتان عن أسنان كلؤلؤ مسطور، كانت في البداية مُدَلَّهَةً في هواهُ فأظهرت له من مظاهر الاِستكانة والخضوع ما زادَهُ إيغالًا في ابتزازها واستغلالها، تحمَّلت في بادئ الأمر من غير شكوى، ولم يكن أحمد يتساءل عن سِرِّ المتعة التي يحظى بها ويستشعرها في التردُّد على بيت أهلها.

كان في أيام تلك الزيارات المتكررة يستيقظ مبكرًا، يأتي على عجلة بحجة مشاغل حياتية عدَّة، حتى إذا ترجَّلَ عند باب الدار، مسح حذاءَهُ بما هو موجود من حشائش. لقد أحب وقع خطواتها على أرض المطبخ النظيفة، كان جلبابها الطويل يضفي طولًا على طولها، كانت ترافقه مع أخيها حتى الباب الخارجي ثم تظلُّ واقفةً إلى أن يغيب، ولم تغفل والدتها عن سبب تردُّدِه الدائم للسؤال عنهم.

لم يفارقها الماضي لحظةً بذكرياته التي تَرَسَّب رمادها بين يديها، لولا أنها كانت مهمومة باختراع حكايات جديدة هربًا من سيف الوقت ونزوات الدنيا العجيبة.. كانت تقول: «كثيرةٌ هي محاولاتي لتنظيف ذاكرة مذعورة، من تلك الأماكن الغريبة والناس المضطربين عقليًّا ونفسيًّا، لكنَّ

محاولاتي باءت بالفشل ولم أستطع، لذلك اِعتَمَرتُ قبعة الذكريات بين الناس واعتدت مصاحبتها، لم تَدَعْ لي فرصة للهرب منها، على الرغم من التزيُّن بالحُليِّ والماكياج أو ادِّعاء الاهتمام بالأشياء والمواعيد والهدايا، حتى في المناسبات بين الأهل، لا أستطيع الكفَّ عن استعادة البورتريهات اليومية المُرَكَّبة بالعنف، كأنها شريط سينمائي مُغلَّف لكنه بصيرٌ وبليد».

كانت كثيرًا ما تهمس: «لي أَخَوَات شبيهات بي في كل بلد، وكلُّ أُخت تسكُنُها لحظات من الصفاء والجنون، هُزِمْنا في معارك فكانت مَصْلًا لانتصاراتنا، فقط علينا إمساك رأس الخيط وآخره، وربما قد يستمر ذلك إلى أن أكون عجوزًا خَرِفَة، فهي كالبَهَارات اللاذعة بعيون رأسي وتَلابيبي، لا أستطيع إلا أن أتَّبِعَ الضوء وأسترخيَ تحت ظِلِّ السماء، فكل النجوم والكواكب عائلتي، أعرف مكان نومي عند حزام الحشائش، ولا أستطيع الكفَّ عن الإصغاء إلى أهوال الأحزان التي دَفنت حكمة الزمان والأذهان، وتمسكت بالتَّرحال، الموتُ الذي أقام في هشاشة عظامي، حين أدمن الوجعَ الذي استنزف الرغبات التي نسيتُها في وهن الإحساس، كان موتًا ليس في وسع أحد تجاوزه أو تغييره، وكثيرًا ما تواجهني أسئلة كبيرة في فَوْرة الدماء الساخنة وآلام التَّوْقِ الشاحبة.

وكثيرًا ما كانت تُردِّد: «كنت صغيرة وبريئة، متألقة أيام النضال والأفكار مع تألُّق الشمس المشرقة، بقامتي

الممشوقة، حتى قيل عني إنني مدينةٌ من المدن المسكونة بحلم كبير، ولكن غربت الشمس وسحقت الأفكار وراء الظل، مات من مات، وجُنَّ مَن جُنَّ، وهاجر إلى دنيا الله الواسعة من كان له القدرة، أما أنا فقد وَأَدَتْنِي تعاليم اللَّاتِ والعُزَّى قبل أن أرى آيات المدينة الفاضلة، انعطفت المسافات بي إلى متاهات مُرْبِكة في قرية تَشَوَّش ذهنها بالاعتقادات الخاطئة حَدَّ اليقين، فأين نهرب نحن الطِّفلات اللواتي وُلِدْنَ في ثَوانٍ قذرة؟ نحن الأمهات المقدسات ذوات الرَّحِمِ الرَّحيم، أين نذهب؟ أنَتْبَعُ الشمس أم نقبَعُ في فضاءٍ منزليٍّ؟».

كانت الليالي تبدو طويلة، خاصة في فترات البَلَلِ التي تجعلها لا ترغب إلَّا في الموت، وكانت غالبًا ما تدفن وجهها بين يديها وتُحوِّل ناظِرَيْها إلى داخلها، كي لا يَرَوْها من خلال عيونها، فُتات أنثى تعوم في الذبول، شبابها الذي تمرغ كباقي لحوم المأدُبة، لم يعد يزعم أنه زهرة ربيع يريد فجرًا، أنوثتها التي لم يعد لها وقتٌ كافٍ للتحليق، لم تدَّخر يومًا أبيضَ تصرفه في الأيام السود، لم تكن تتصوَّر أن بإمكانها الاحتفاظ بها إلى الآن على الرغم من خططها ومحاولاتها لنسيان الوَسَخِ والبؤس والمخلوقات العجيبة.

بعد مرور سنة على اعتقالها الأخير لأسباب سياسية كما في كلِّ مرة، كان مدى سعادتها لا يوصف لتركها المكان والحياة القذرة، لكنها سعادة مُطفَأة، مَشُوبة بالحزن الذي حملته معها خارج الأسوار حتى أصبح قيدًا ثقيلًا على قلبها لا يسمح

بمرور الفرح مهما كان نوعه وشكله، خرجَتْ إلى الحياة كجثة هامدة تمشي على أنفِها، أصبحت متعبة ضعيفة القلب، كأن الأرض مدَّت يدها وأخذت منها سنوات العمر القادمة بِبُطْء خفيضٍ أمامها، فقد عرفت أقذر الوسائل للتحكم في الناس عبر الخوف، الخوف الذي اِحتَكَم إليه النظام، فإنْ تضرب الكبير يَخَفِ الصغير، لذا عليهم أن يبقَوا خاضعين خانعين مُذعِنين للسيطرة عليهم عبر تحطيم القدوة، كانت تقول بحرقة:

«لم يعد هناك ما لم يُجرِّبُوه، أو ما لم يقولوه، كانوا يقومون بتمهيدات ونوبات أذًى مستجدة، كانت أشدَّ إيلامًا لمشاعرنا ليس فقط لأجسادنا، كان يثيرهم إذعاننا، فتهيج رغباتهم على شكل غير متوقَّع، كانوا يضربوننا بوحشية لنُذعِن، وليرغمونا على الطاعة، كان أحدهم يسند رؤوسنا إلى ركبتيه، ويجبرنا أن نميل على بروزه، ضاربًا إيَّانا بعنف بهاويةٍ صاعقةٍ بيده المفتوحة، والثاني يمسكنا من الكتفين، لنظلَّ ثابتين أمام اللَّكمات التي لا نستطيع تلافيها، فتسْوَدُّ وجوهنا وتَزْرَقُّ من أثر اللَّكمَات، عرفت أن التحكم في الناس ممكنٌ مع الخوف، فَضَرْبُ رجل جبان واحد أمام الآخرين أفضل مِن ضرب مَن فَقَدُوا الخوف وتسبَّبُوا في الفوضى، متصوِّرين أنها تقودهم إلى مثاليات العدالة، فنحن لسنا سوى كلاب قذرة في نظرهم ليس لنا غير العُواء اِلتِماسًا للعظام من أجل الحياة...».

«كنا واهمين أنَّ بإمكاننا تمزيقَ ذلك الوجه القبيح

للطغاة، من أجل المساواة والأُخُوَّة والعدالة، فنحن لا أحَدَ أمام العقارب والأفاعي التي تحوم بين أرجلنا وعلى الجدران وفحيحها النافذ كالملح إلى قلوبنا لا يتوقف. كانوا يصرخون بنا للتخلي عن الفضيلة التي ستوصلنا إلى الحضيض، فإنه لا نفع للخير في هذا العالم! وإن الاعتراف هو ما سينقذنا من جرائمهم، عندما نذوب في الغرف المظلمة ويتقاطر فوق رؤوسنا الماء والوقت كحَبَّات جَمْر، ونموت قبل الأحكام، وإنه ليس هناك من يستحق أن نضحي بأنفسنا من أجله. وتنهال المُغرِيات علينا من جهة أخرى، في أنَّ بإمكانهم تعويضنا وجعلنا أثرياء، لذا علينا أن نخدم سادتهم. كنا نُفضِّل مسامير الفضيلة على مِنَنِ الخطيئة اللامعة، لكنْ شكرًا للرب، فإن مبادئي لن تتخلى عني، وإن كانت حياتي مؤلمة في الدنيا فهناك من يكافئني في العالم الآخر».

كانت هذه الأفكار هي ما يُعزِّيها، ويُسَرِّي عن أحزانها ويُقوِّي شكيمَتَها وقت الشدة، فما يُبقينا أحياء.. إيماننا بالإنسانية، وهو ما يُبقينا عقلاءَ.

عادت للحياة، لكنَّ السجن لم يفارقها، ظلَّ رفيقًا مُلازمًا، بل أصبح هو العلامة الفارقة بين الموت والحياة، تحمله معها إلى الأبد، العالم الفسيح أصبح منفًى لها، الناس انقسموا إلى قسمين: وحوش وأنبياء، الأول هو من أَحَبَّ ذلك، والثاني من أجل الهدف الأسمى، يشمون رائحة التفاح من فكر الثورات والأحزاب.

دخلَتْ معترك الحياة، دفنَتْ نفسها في بقعة من الأرض الجرداء، بِلا تابوت يُسدَل على معطفها الأرضي، تصغي إلى الخطوات التي تقترب وتبتعد على الطُرُق المكتظة، تقتحمُها أصوات البشر الصاخبة، فُتات شباب يعوم في دمِها غيرَ متناغم مع سِنِّها الذي شاخ، وعلِقَ ذابلًا في حلقها، لم تفكر في عذوبة النسيم كما كانت سابقًا، ظلَّت الكوابيس تجري في رحلة مستمرَّة صيفًا وشتاءً، بينما تتخيل الحشرات تتسلق جسدها وعنقها، وفي ذؤابة شعرها.

ولكن من يدري؟! قد يأتي في أحد الأيام من ينبش قبرها بحذر ويصحبها إلى منزل على الشاطئ فيغسل أَدْرَان الماضي ويرفع الحِمل عن أكتافها، شاب ذو نظرة حكيمة يُوْقظ ربيعها التائه، ويُرمِّم خرابة روحها، يقترب منها بارتعاشَةِ فضول لتلامس خصلاتها بُحَيرة يديه الرهيفة، يُمَسِّد على شعرها اللامع الطويل، وينظر إلى السنوات الممتدة أمامها.

وها هو يولَدُ غَداةَ اجتياح عواصمها، حين رآها في إحدى زياراته لعائلتها، وقد حاولَتْ جاهدةً بناء نفسها من جديد، لتفوز بقصة حب مثيرة، حين كانت الحرب ما تزال مستعرة وهي تسيل كنهرٍ من الجثث والدماء والحصار، كان زواجُها بأحمد سكوتًا في سكوت حزنًا على فقدها الإخوة تحت رحمة الجلَّادين والمصابيح الخافتة، إخوتها الذين باتوا صَرْحَ حياتها الأنيق، لكنها في بلد كُتِبَتْ عليه قِلَّة الراحة، فقد عادت تواشيح الفَقد والرحيل ثانية حينما رحل أحمد إلى

الجبهة ليأخذ مكانه في الحرب المقيتة، وبقيَتْ تنتظر في جَوفِ الحوت تَعُدُّ السحب الداكنة وتَجْتَرُّ حميم السعير.

لم يلبث الفرح كثيرًا فقد تداركته العجلة للالتحاق بالجبهة، ولَمْ تَرَ غير «سبعة أيام من عمري حلا لي سبعة أيام من...» [*]. حين ركض مهرولًا إلى واجب الوحي الوطني، ما جعلها تتساءل: «تُرى هل نرى غدًا مشرقًا، والدنيا حانيةٌ على إناء الموت المتحجر؟ وهل تُعوِّض الأيام ما فات منها في دنيا سوِيَّةٍ، أم يبلع القط لسانه، ونحن ما زلنا في خطوتنا الأولى نحبو؟».

كان أحمد أيام شبابه قبل الزواج تغلُب عليه الطِّيبة والفطرة وربما السذاجة، وأكبر مُتعته أن يسير في سوق الغزْل [**] يروح ويجيء على أكشاك الطيور التي تُعرض فيها أنواع الأطيار من الكناري وطيور الحُبِّ والبلابل والفناجس، فيقف معجبًا بريشها البديع وألوانها المختلفة، خاصة الببغاوات حين يحاول استدراجها إلى الحديث معه إذا أَلِفَت الكلام، لتكرار ألفاظ بعينها حفظتها وتردِّدُها، وقد أُعجب بثرثرتها وتكرارها بعض الكلمات، كان يحسد الأغنياء على قصورهم ومبانيهم الفخمة الشاهقة، وعلى الأقفاص المزخرفة المليئة بالطيور

* أغنية عراقية قديمة

** سوق خاص في بغداد لبيع الطيور والحيوانات الأليفة يُقام فقط يوم الجمعة.

الملونة التي تزيِّن حدائقهم، وذاتَ يوم دخل مُنهكًا بيده قفصٌ فيه أزواجٌ عدةٌ من طيور الكناري الملونة وهو منهمك في الحديث معها.

كان أبوها قد طلب إلى أحمد بقاءَهَا في بيت العائلة ليكون مطمئنًّا عليها، وكان هذا من دواعي سروره فلم يرفض، لكن لماذا لم توافق قلبَهَا هذه الابتساماتُ العريضة من زوجها بالذات، وتوجَّست منها؟ هل لأنها علامة الوصول إلى الانضمام والذوبان في العائلة، أم لأنها علامة للخروج من النعيم؟

كان أحمد عاشقًا بصيرًا بدروب المَحبَّة، مستعدًا للانكماش تحت ظِلِّها، يجثو أمامها على ركبتيه، يختبئ عندها كلَّما هرب من صروف الدنيا فتنساب إليه كما يتمنَّى، كان ينتفض في اللقاء ثورةً تُفضي إلى استسلامها له، فيستسلم جسمها الذائب بين ذراعيه الذِّئبتين وينتشي بخمرة النَّهَم، نَهَمِ الأوَّلين والآخِرين، كان يقترب منها بهدوءِ ناسِكٍ اغتسلت بالنور أناملُه، عاريًا إلا من الشوق والرغبات.

يرفع يديه ببطء نحوها، ثم يقارب بينهما عند ملتقى التفاحتين، تمد يديها لتمنعه، يتعلَّق بكفَّيها، يمُرُّ بباطن كفيها على وجهه، يلامس بشفته السفلى أناملها، تتنهَّد فترتجف فتفيض من عينيه دمعة، ثم يستجمع وجوده كله، لِيَدُسَّ وجهه تحت نَهدَيْها، تلتصق بشدة به، يغوص فيها

حتى يتلاشى، تُمرِّر كفَّيْها على كتفيه، يستسلم حين ترفعهما بأمرٍ ودودٍ، شَغَفَه الهُيام، جثى على ركبتيه مُمسِكًا بخصرها، يمدُّ يده برفق ليزيح عن كتفيها خيوط ثوبها الشهيِّ السماويِّ، تتمرَّد، فَيُقَبِّلُ كلَّ موضع انزاح عنه الثوب.

رُزِقَتْ بأول مولود (آدم)، كانت تتفحَّصه وهو صامت يتقلب بين ذراعيها كأنه دمية قابلة للكسر، وبين حين وآخر يرمقها فتاها الصغير بنظرات مَلْأى بالحيرة والتساؤل إذ يراها صامتة، تبادر بإلهائه ببعض اللُّعب والأناشيد كي لا يرى أي أثر لجراحها، تحاول أن تتماسك كي لا تفقد اتِّزانها، فلم يمر على خروجها من المعتقل سوى أقل من سنة، وكانت تصرفاته الفرضة التي فرضها حظها العاثر عليها للخضوع إلى ملذَّاته.

كانت الجراح ما تزال خضراء، وكان الظلام تامًّا بسبب انقطاع التيار الكهربائي المستمر، تُبادِر لإشعال الشموع في المطبخ الصغير والغرفة، ومن ثَمَّ المدفأة لعمل الشاي أو إعداد بعض الطعام، فتكون مصدرًا آخَرَ للضوء، في حين تبقى أماكن كثيرة من الغرفة غارقة في الظلام، فلم تعد تدخلها الشمس مذ صار المنزل تحت رعاية الجدران الخلفية للبيوت الثلاثة التي أحاطت به، حتى أصبح البيت كأنه قلعة فقدت هيبتها، قابعًا بلا حضور مميز في المكان، فقد استطالت البنايات من حوله، حتى بدا سطح المنزل وهو في الطابق الثالث، مثل قاع أو وادٍ عميق، أو فناء خلفي للشواهق

التي أحاطت به بإحكام، حتى النوافذ التي فتحها والدها لتطل على البساتين المستقرَّة خلف المنزل، أُغلقت بعد تحوُّل تِلْك البساتين إلى مساكن، وبعد مجيء جيران ثُقَلاءَ قَطَنُوها وجثموا على أرواحهم.

كانت تتنهَّد كلما لمحت الأعمدة المنحوتة التي بُنِيت قبل عقود من الزمان تزيِّنُ مقدمة المنزل وقد شاخت، تتذكر وفاة والدها الذي مات في صحة مقبولة وهو لم يناهز الستين، ومعروف ذلك الشيء الذي اِلتَفَّ على صدره وانطوى على موته عند سماعه نبأ استشهاد أخيها، لقد تساءَلَتْ مِرارًا هل هو اليومَ ينعم في سكينة الخلود، ويتمرَّغ في رِياض الجِنان؟ ربما.. فقط لأنه عمل شيئًا يستحق لأجله الخلود والتمرُّغ.

لقد كانت متعلقة بالدور الثاني من المنزل، حتى لَيَبدو لها أن سُلَّم الدرجات و«البيتونة» الصغيرة أكثر جمالًا من باقي أرجاء المنزل، حدَّثت نفسها:

«لا أعرف لِمَ أتعلق بهذا الطابق بالذات دونَ أرجاء البيت الباقية! ربما لأني قضيت ردحًا من عمري هنا، ولا أعرف.. أهي الأقدار أرادت أن تلعب لعبتها المتعبة معنا مرة أخرى وفي هذا المكان نفسه؟! إيهِ يا نفسي! لماذا تُتعبينَني معك بهذه الأفكار وتستَبِقين الأحداث؟ إنك الآن وحدكِ تقاومين الصدى، نهارك باهت وليلك طويل، لا أحد يفكر فيكِ، مع أنك لم تتوانَيْ في تقديم الأفضل، وليس لديك قُصور مع أي

أحد. إيه هذه هي الدنيا! يتعب المسكين ويحصد المرتاح. قالوا «الصبر أحسن» وها أنا صابرة، قد تكون النهايات أحلى. أتُرى تكون نبوءة حلمي العجيب قد تحققت؟ هذا الحلم الذي كان يراودني وأنا في العشرين من عمري، عندما كنت أرى نفسي في مواجهة الشفق البعيد، وأنا مُتَسَمِّرة الأقدام أمام بحر دَوَّاماته بلا نهايات وخلفي صحراء رملية».

نظرَتْ إلى النجوم فرأتها صامتة، انتبهت لأنفاس تلفح وجهها، سمعَتْهُ يقول: «ماما...».

استيقظَتْ مفزوعة ككلِّ مرة، قرأت بعض التعاويذ، تساءلَتْ، تبعَتْهُ مُسَلِّمة أمرها للمقادير، كأن القدر أراد أن يغمغم برسالة مبهمة، كمن يهدف إلى إخلاء ذمته، رسالة تعرف مصدرها، ففي ظروف موقوتة تعرف المرأة التي أعدها الله للحب والإنجاب، تعرف كيف توظف دالَّتُها تجاه ما هو غامض، حينها تتوهج أوردتها على طول دمها الساخن في حرارة الحُمَّى، تزحف لتبلَّ صدأ روحها بالماء.

تتلفَّتُ فلا أحد سوى الفراغ الكبير، طاردَتْها الأسئلة لفترات طويلة في أعماقها، عن معنى الحلم، هل هو رؤيا للمستقبل، أم هو أضغاث وكوابيس؟ لماذا تكرر عشرات المرَّات ثم انقطع؟ لم تشغل بالها حينها، وما أدهشها أن الحلم يطابق أيامها الآن.

كانت تتشاغل بدندنة بعض الألحان القديمة بنبرة

خفيضة، دافقة بسماحة الأيام الخوالي، أيام كان أبوها وإخوتها، ليتسلل إلى قلبها همسٌ حنون من أغنية لا تنساها بكلماتها التي أحبتها:

«بيت العزيا بيتنا
على بابَك عِنَبِتنا
لها خُضرة وضُلِّيلَة.. بِترفرف عَ العِيلة».

الصمت يلفُّ أركان البيت بالحَيرة، لم يكن برفقتها غير طنين البعوض من حولها، وكان يعرف حقَّ المعرفة أين يلسع، كانت تتكوَّرُ على طفلها الذي أصبح مبعث سعادتها، اقترنت به في لحظة نشوة، تنبثق معها من باطنها معاناة انبثاق الروح وتمتزج مع ساعات صمتها، لحظتها تشعر أنها توحدت مع ابنها، وبعد لَأْيٍ تضع يدها على فمها وتتثاءب بعد حكاية قصة صغيرة للطفل كي ينام.

وفي النهار كانت تجتهد في تعليمه للتحدِّث بلباقة وخاصة اللغات المهمة، كانت تصنع له لعبًا من الورق المقوَّى، وتروي له القصص، وتُثيرُه بأحاديث يمتزج فيها الفرح والتهليل بالكآبة والمناجاة والتدليل، وتشعر أنْ لا سببَ يدعوها إلى القلق، فهي تعرف أن بإمكانها تدبير أمورها، وبالطبع هناك لحظات تواجهها، تتساءل فيها: كيف ستسير الأمور؟ وما الذي سيؤول إليه أمرهما لو حدث مكروه؟ وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها مع ولدها، سكبت في مُخَيِّلة الطفل

كل ما كان يَختَلِج في نفسها من طموح، كانت تطمح إلى إرضاء كبريائها المحطمة، وكانت تحلم بأرفع المناصب له، وتتصوَّره وقد شَبَّ وصار وسيمًا، حاضر البديهة، متربعًا في أحد المناصب الرفيعة، ومن ثَمَّ تولَّت تعليمه القراءة، ولقَّنته بعض الأناشيد، وكانت قد اقتنَتْ له بيانو صغيرًا لتعلِّمه بعض الألحان، على أنَّ أباه لم يكن يحفل بكل تلك الأمور، فلم يَرَ في كل هذه الجهود شيئًا ذا قيمة، كان كل ما يعنيه هو التفكير في ما إذا كان سيقدر أن يجد ما يكفل له العيش والتعليم، كان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن ينجح في الحياة بالصَّفاقة، أمَّا هي فكانت تَعَضُّ شفتها حَنَقًا حين ترى زوجها يفكر مثل الصعاليك، كانت صحة أبيها تُقلقها أيضًا، فالتفكير فيه والقلق بشأنه يجعل الظنون تطِنُّ في رأسها مرَّات عديدة، لكن التفكير في الطفل كان يحتلُّ الاهتمام الأول بالنسبة إليها، لقد فكرَتْ في مستقبله وموضوع تعليمه منذ نعومة أظفاره.

كان الليل قد أرخى ستائره، ونشر سكونه الأبدي في الأرجاء، دخل أحمد فجأة مستغربًا حائرًا متسائلًا كأنه يبحث عن شيء، نظرَتْ إليه، فأشاح بوجهه عنها، تبعته بنظراتها بصمت يمينًا ويسارًا، تساءلت باستغراب:

- أشعر أن روحك قلقة.. حائرة!

كان مخمورًا حتى كادت الخمر تقفز من وجهه الذي بَدَا أكثر احتقانًا، حين وقع مُرتَخِيًا على الأريكة وساقاه ممدودتان على

الأرض بلا شعور، لامَسَتْ خدَّه كي تزيح عنه ضفائر الشُّرود والقلق، مال بعيونه الزائغة إلى الفراغ ورأسُهُ يئنُّ بالظنون، نظر اتِّجاهها نظرة طُفَيْلية لم تترك له سبيلًا للانتظار، فقال:

– لا لا شيء. ماتت زينب! زينب ماتت وانفصلَتْ عن المكان، من بضعة أسابيع ونحن لم نعد نعرف لماذا كانت شاردة!

– زينب؟ من زينب هذه؟! هل تعمل معك أم إحدى أقاربك أم ماذا؟ وماذا أصابها؟

– أعرفها منذ فترة طويلة. بَهجةُ طفلٍ في ليلةِ عيد! تطلُّ علينا كل صباح بزينتها المُجَلجِلَة فتطير بنا معها الرغبات!

قال ذلك وهو يحدق إلى سقف الصالة كأنه نادمٌ على شيء خسره فجأةً مِن دون أن يبوح برغبته فيها، أصغت إليه باهتمام وهي تتابع روحه المجهدة. أردَفَ:

– ضحكتها المحلولة بالسكر.. قوامها الممشوق.. فاكهتها النافرة.. آه يا زينب آه يا زينب...

ثم لطم رأسه وسال دمعُهُ غزيرًا، تعالى صُراخه كالطفل الذي فقد أمه، وهو يشرح مفاتنها، ولم يَبُح بالضبط بحكايته معها. ذُهلَتْ لمنظره، فأجابته بغير اكتراث، وفهمت أن الرجل من التفاهة حتى إنه كان يطاردها، تبعًا لإشارة منها، ثم تمنَّعَتْ ليطاردها، ولم تكمل المشوار لأن الله قدَّر لها أن ترحل:

– الأمر لله وحده. البقاء لله. لكن لم تخبرني، من هي؟

لم يرُد، صبرَتْ عليه، حاولت أن تذهب لتطمئنَّ على آدم، ولم يتردد، فجأة انقضَّ عليها من الخلف قابضًا على شعرها الذي طواه بيده، ثم ضربها براحته المفتوحة على وجهها، على فمها، على أذنيها، على ثديَيْهَا، ثم نزل تعنيفًا وضربًا حتى استحال لون وجهها وجسمها إلى أحمرَ مُزْرَقٍّ بنفسجي، تعثَّرت بين يديه، فَرَجَتْه أن يكُفَّ وأن يشفق عليها والدموع تنهمر على خدودها، لكن كلامها ضاعف لَكَمَاته، كأنَّ به مَسًّا من الجنون، لم يعد يسيطر على نفسه، حاولَتْ أن تُفلت نفسها من قبضته المجنونة فأطلقت أظفارَهَا لتَخْمِشَ وجهه، منَعَها، فدفعها على الجدار، وقعت أرضًا وكاد يغمى عليها لولا صراخُ آدم الذي نسيَتْه لحظات، فقال:

– ألَا تفهمين؟ لماذا تسألين عن خصوصياتي؟ اغربي عن وجهي لا أودُّ رؤيتك.

– لماذا تضربني؟ لماذا؟ ماذا صدر مني؟ ولماذا لا أسألك؟ أليست حياتنا مشتركة وما يهمك يهمني؟ مَن تلك التي جئتَ تُزَمْجِر بكاءً على فقدها؟ أفهِمْني فلم يعد الأمر سرًّا، ماذا يجري خلف ظهري؟ أفصِح عما في قلبك وكُن شجاعًا!

لم تره من قبلُ على تلك الحالة، ولا تحب أن تراه هكذا، ولم يستغرق إلا دقائق استبدل فيها ملابسه وتهيَّأ للخروج، لا تعرفُ إلى أين.

أخذت تشاور عقلها.. «كيف سيهدأ تفكيري؟ ومن

سيُطفِئ نيراني؟ وأنا في حَمْحَمَة تلك العواصف التي حرثَتْ ثمرة عقلي وصفائي، من لقلبي المكدور؟ إنه لأمر يقدح الشكَّ في روحي، الآن عظُمَت مصيبتي واشتدَّ جَزَعِي»، حتى قالت: «ربما الشاعر كتب هذا البيت لي (قد كان ذلك ظَنِّي ... فعاد ظَنِّي يقينًا)».

تدافعت الدلائل مِن نفسِها، كان يدرك أنه يفعل شيئًا غير مقبول، لكنه يزخرف قُبحَها ويُمَوِّه عنها لتتقبَّلَها، لقد فتح عينيها على ذلك في الأول، وهو الذي غضَّ بصرها عنه في الثاني، أيُّ حزن وأَسَفٍ وبلاء أُلْقِيَ بجوف جنتها؟! بمرور الأيام كان عالَم هذا الرجل يُنذر بانهيار مروِّع، عالَم قَلِقٌ يتأرجح صعودًا وهبوطًا، لا تعرف ما يخبئ أو ماذا يريد، يسعد بالاقتناص، ويرضى حينما تسير الأمور وَفْقَ هواه وقراراته، خاصة عندما يختلق المشاكسات، لقد أتقن لعبة المشاكسات والتمهيدات لها، بل يتفاخر بقدرته البارعة على البدايات حين يُمثِّل أنه يأخذه دُوَار ولا يرتدُّ إلى الوجود إلا بعد فترة، يفيض حينها وداعةً وهدوءًا ورومانسيةً وينظر بطرف عين تتوهج دِفئًا ولُطفًا، وهي تردُّ عليه بنظرة العارف مِن دون أن تبوح، ثم يدرك بخبرته أن الوقت غير مناسب، لا تعرف ما الذي يدور في عقله عندما يغيب عنها تمامًا وتَسْوَدُّ رؤيتُه! أو يناجي نفسه.

فتقول: «كيف يشفَى غيظي، ولا يشفَى الغيظ إلا بالعقوبة؟ ماذا أفعل؟ كيف أتصرَّف؟»، ورغم ذلك كانت في

صبرها عليه أعزَّ منها في تركِهِ، ثم تستدرك غائرة في حديث طويل مع نفسها، ثم تصيح في سرِّها: «كيف يستهين بالأنوثة وما فيها من قداسة؟ لا أظن أن إدراكه أدنى، وما كان مِمَّن لا يحفظ الشريعة، ولعله سمع أكثر مني أن الكلام الطيب يجلب المحبوب وأن الكلام والفعل الخبيث يجلب المكروه، يريد أن أكون وعاء للمضاجعة، للإنجاب فقط، ولا تهم احتياجات ما يقع بينهما، ألَا تكفيه البهائم اللواتي يضاجعهنَّ؟ لماذا يطلب إليَّ ذلك؟ أنتَ لا تليق بي.. ابحث عمَّن تليق بك مِن مِثلكَ، لعلَّك تستمتع معها أكثر مني، ولعها ماهرة في المضاجعة، فتحقق لك ما تريد، أما أنا فلا تسألني ذلك».

كانت تخالفه الرأي في أن العَلاقة الحميميَّة تحلو مع العنف، كانت له الرغبة العارمة في سماع الكلمات الخشنة المثيرة تحت وطأة المضاجعة، فهو يملك السُّلطة والحق في الاعتداء، وهو صاحب الامتياز، الذَّكَر الذي يحتضنه المجتمع ويبارك رجولته وأفعاله منذ الأزل.

لم يشغل باله بالغياب، لا يشغله أي شيء سوى اختراع المناكفات.. لغته الجديدة، لم يكن منشغلًا إلا بنفسه، ولم تنشغل عنه عندما صَبَّ الزيت الحار في شراييها، كانت تحبس الكلمات داخلها في انتظاره خلف الأبواب، لتنثرها عليه، على عينيه اللتين تنظران إلى البعيد، حينما تُعَوِّذ في سرها «زوجي الحبيب محروس من عين البشر، من عين كل

طامع وحاقد، اللهم اِكْفِهِ شرَّ صديق السوء وجار السوء والدار الضيقة والعين الحمراء والجبهة الضيقة...» حتى يمتد خيط الصباح، وتغلق عينيها رَبَّات الهوى عندما يطيح رأسها.

كان شديد الرغبة في أن تكون المرأة في ذيل اهتماماته، إذ تَكَشَّف لها أنه لم يكن متحرِّرًا من الأفكار المتسلطة، على عكس ما كانت تظن، كانت تعتقد أنه كان يناضل ضد الأفكار المتوارَثة، وكانت تظن أنه لا يعيش حياة مزدوجة، واحدة في العلانية وأخرى في الخفاء، حتى تحوَّلَتْ من أميرة مُشِعَّة بالبهاء إلى جارية من جواري الحرملك في بيت الزوجية، أن تكون أَمَةً في غابة تَعُجُّ بالإماء والرقيق، تعوي فيها ذئاب في وُحُول الطرقات، لتهشِّم مرآة أحلامها، كيف تكذب وتقول «أنا بخير» والليل يكتم أنفاسها ويسرق منها رائحة النهار؟

كان يدَّعي أن له قدرةً على خلق حياة لائقة بَعد المنافي والشَّتات، وفي الحقيقة إنه كان يُقَبِّل أقدام العاهرات والمومِسات، وينتظر ضرب الأحزمة على ظهره العاري، ليكون في ملكوت الهَيَجان عندما ينام على رمل في أكواخ الريح ويترك فَراشة في ربيع الأحلام. كان تائهًا في أحضان المتاهات، كان يقول لها: «نحن الرجال قَوَّامون عليكُنَّ، نحن جزءٌ من الذات الإلهية ونحن الأعلى والأقوى، أما النساءُ.. فَأنتُنَّ من سلالة الشياطين، ولا عجبَ، فقد مُنِحْنا كل صفات الألوهة، الرجال.. صورة الله التي وردت في خلق (آدم)، ولم تُمنح المرأة سوى كونها حَرَمَ الرجل، ألا تعلمين أنهم خلعوا

اسم الإله القديم (بَعْل) الذي أزاح (عشتار) عن عرش الأُلوهة للدلالة علينا، على الزوج الرجل، وصار لنا التفضيل الإلهي وحظُّ الأُنثَيَيْن، ولنا الحُور العِيْنُ في الفردوس، ولا شيء للمرأة سوى وَصفِها بالعَوْرة».

مع أن تاء التأنيث التحمت بكل الأمور العظيمة كالألوهية، الإنسانية، الربوبية، العالمية، الوطنية، الواقعية، حتى الرجلُ الذي على قدر كبير من العلمِ الفذُّ كُليُّ المعرفة، أُلحقت بِصِفَتِه فصار «عَلَّامةً»، لكن سطوة الرجل الحديثة هي التي سلبت سلطة المرأة وقدسيَّتها وطمست أسرار هيمنتها.

ورغم إيماني بأن المرأة لا تولد بنفسٍ خاضعة، ورغم أن السلبيَّة والضَّعف ليسَا من طبيعتي، جعلتني لوعةُ الاضطهادِ الطويل، وخلفيَّةُ نفسيَّتي المتعبة، أُوْثِر الصمت بسبب عدم إمكانية تغيير نظامٍ كَونيٍّ مُتهَدِّلٍ وحقائق ترفرف على خصلات المضطهَدات مثيلاتي، آه.. لو تعلم النساء أنه بَعْدَ إهالة التراب على المعاني الكامنة في لفظ «القداسة»، وإزاحة المرأة عن عرش قداستها، والحَطِّ من قيمتها بكل السُّبل، أصبحت تنزوي تحت ظلِّ الغِربال، تحت ظلِّ القِوَامة! «ظِلُّ رجل أفضل من ظِلِّ حائط» كما يقال، «خيالُ الظِلِّ» ربما، مهما كلف الأمر.

كنت أعلم أن كل الشرائع معه كي يستريحوا من قلق النساء، حين تَوَلَّوا تَسْفِيه الأفكار الغريبة في رؤوس النساء، لتعود النساء إلى أزواجهن أطباقًا شهيَّةً، ولتُوَفِّي كل واحدة

منهنَّ حقَّ زوجها، تُوَفِّيه حقَّهُ المسكينَ؛ تَعُود امرأةٌ شهيَّة تحب قمصان النوم الخليعة، لن تتفوَّه إلا بالآهات، ولن تفكِّر إلا في ترديد عبارات سخيفة، وما عليه إلا كَبحُها، لقتل الشيطان فيها، ولِمَ لا؟ فهو الذَّكَر.. الوَلِيُّ المُتكامل.

كانوا مهووسين بِاتِّهام النساء بأنهنَّ سبب الأوبئة، أو سبب تغيُّر الطقس، أو هبوب العواصف.. بعد انتهاء زمن حكم النساء وما له مِن أثر لا تدركه الأبصار! وماذا يعني أن يرتفع صدرها وتنتفض عيونها بنظرةٍ حاسمة تتهيَّأ للانقضاض، ما دام كل ذلك بلا نفع، حين يتحول كل شيء إلى عاصفة داخل مغارة تكاد تفلت من عِقالِها؟ وكل مرة يسود الصمت ويطُول ليثبت حضوره، فما يكاد ينهي كلامه إلا ليصدمني بآخَرَ أشدَّ ضراوة، فمجرد الاختلاف معه يعني العقاب، ولا بُدَّ أن أكون صاغرة، فأين أهرب مما أَسَّسَهُ الناس من أوامر أعمق من انتفاضة الحَيض عند البلوغ، وأعتى من العواصف التي تمور بجسد المرأة ليلة الزفاف؟ كلها تمهيدات تُوْمِئ إلى لحظة إلقائها في بيت الزوجية، القفصِ الذي يقال إنه ذهبي، الذهبي إلى الأبد! فلحظة الخروج من بيت القفص، تكون إلى القبر لا إلى غيرِهِ، أليس هو مقياس المرأة الصالحة التي تسمع الكلام؟

لم يستَتِبَّ الأمر على ما اتَّفقا عليه من عدم الإسراف والتقشف كما كان في البداية، فمتطلَّبات الفخامة التي لا تنتهي لديه جعلَتْها في حَيرة من أمرها، فقد تحولت إلى

مِلكيَّة كاملة لزوجها، دخل في أحد الأيام متسلِّلًا بهدوء، كانت في المطبخ تُعِدُّ الغداء، لم تسمع وَطْء أقدامه حين اقتحم المكان منقَضًّا على شباك المطبخ لغلقه، ارتعبت وأثارها تصرُّفه، فقال وهو يحاول غلق النافذة:

- غضب الله عليكِ!

- ماذا تفعل يا رجلُ؟ عندما تكون الظهيرة حارَّة والشمس عالية ساطعة تمنع الرؤية! ثم إن الجوَّ حارٌّ جدًّا والمطبخ خالٍ بلا تكييف ولا (مُفرغة) (*)!

وقف ثم تنحَّى جانبًا وعدَّل من هندامه، بعدها ضحك ومدَّ يده إلى طبق اللحم المشوي مع الباذنجان والبصل والفلفل ليأخذ بعضا منه. أراد أن يضفي جوًّا من المرح، فقال:

- يكون في علمِكِ، جِئتُكِ بمفاجأة.. لقد بعت السيارة وأخذت بدلًا منها سيارة جديدة على الزيرو...

- زيرو ماذا؟! ماذا تقول؟! نحن لم نكمل أقساطها! كيف تشتري سيارة من دون أن تشاورني وتأخذ رأيي؟

- ولماذا أخبركِ؟ هل تفهمين أكثر مني؟!

- لا، بل أفهم في فلوس تسديدها، في التعب الذي يرهقني لتسديدها وحدي، فالأقساط كلها بِاسمي أما السيارة فبِاسمِكَ، وتحت يدك وتحت إمرتك!

* شافطة للدخان.

– وماذا إن شاء الله؟ هل تطلبين أن تكون بِاسمِكِ؟

– على الأقل تكون بِاسْمَيْنَا نحن الاثنين...

– لماذا؟ ومَن الرجل في البيت؟

– الرجولة ليست في بطاقة الأحوال، الرجولة تصرُّف وسلوك. وليكُنْ.. قد تركتُ لك الرجولة فاترُكْ لي الأنوثة. وبما أنك في البطاقة مكتوبٌ «ذَكَر»، يعني لك حق الأُنثَيَيْن، إذن تَوَلَّ أنت الإنفاق على البيت بقدر ما أُنفِق مرتين. وأعِدْ إليَّ فلوس مَصُوغاتي التي بِعتَهَا من أجل مشروعاتك الفاشلة فلم يبقَ عندي ما أقدمه لكَ.

– احترمي نفسكِ! أنا الرجل هنا، والرجال قوَّامون على النساء.

– نعم، قوامون بالسَّلب والاستغلال والانتهازية...

قاطعها وهجم عليها، أدارَيدها وراء ظهرها، وضع فمه عند أذنها:

– لن أنتهز فرصة ضعفكِ فأسرق منك ما تُقَدِّرينه غاليًا، فلِلمرأة أكثر مِن هِبة تقدمها للرجل، وسأسعدُ بأَهْوَنِها. هل تحتاجين إلى قول مزيد يا عزيزتي؟ جرِّبي وسنسعد كلانا.

– اتركني! اترك يدي!

كانت حماقاته وكلماته تقع على رأسها قذيفةً مباغتةً تهزُّ رُوحها التعيسة، حتى تشعر لوهلة أن جيشًا من العقارب

يدبُّ تحت مفاصلها وملابسها، وبآلافِ السحالي تتوغل في دهاليز حياتها. كان يجتاحه الجمود من مقدمة رأسه، ثم يغوص في حذر يجتاح بدنه كُلَّه عندما يشعر بأن أمها قريبة منه، أو عندما تجيء إليهم ويفتح الباب لها وتنظر إليه، كأنها تتدفق في حبلِ وريدِهِ، فيغمض عينيه ويجتاح وجهَهُ شحوب فيغوص في نفسه ويتدثر بالصمت، إذ كانت كلماتها تُزعجه بظاهرها على الدوام، لكنه كان يستعين بودٍّ يلامس شفته السفلى بابتسامة طفيفة، تحت وطأة الكلمات فيغض بصره ليحفظ توازنه أمامها، وحينها يدس بجانبها بعض الكلمات قبل أن يفتح الباب:

– هكذا أُمكِ مُصِرَّة على الخراب! أنا أعرف أنها تكرهني، لذا عليكِ ألَّا تتصلي بها وإلا ستخرب البيت على رأسنا.

تلتفتُ نحوه بِحدَّة، فيتلمَّس وجهه بتلقائية ويتحسَّسُ خدَّه الأيمن كأن صفعةً انهالت عليه، فيدرك أن عليه التزام الصمت، وعليه وحده أن يجد مَخرجًا من تلك الحَيرَة، أو يقوم فجأة فيتَّجِه من فوره إلى غرفة النوم، ليرتدي ملابسه بقوة تنمُّ عن انفعال، فتنظر إليه مبهوتة وعيونها معلقة بحركاته حتى يغيب خلف الباب إلى الشارع، شأنه في كل مرة، ليطمس أنوثتها التي استهان بها، وتظلُّ تحدِّث نفسها بعدما يتوارى: «فِيمَ يفكر؟ أو ماذا بودِّهِ أن يعلن حين يقاطع أمي ويحرجها ثم يتركها ويذهب إلى مكان آخر؟ نعم ذاك سببٌ دلاليٌّ له، طيب.. وماذا سيكون بعد ذلك؟ وما ذنبي أنا؟ أنتَ

وأمي تُنذراني بورق الخريف، تحطمُني بسببها فما ذنبي؟».

كان يثور كلما رآها، ثم يعود ليمسك حبل التوسُّل وتحتقن نبراته ولا يستطيع أن يُكمل بعد أن يقول بصوته الخائر:

- تفضَّلي.

ثم يتوارى بعينيه المشدوهتين غير عابئ بها، كان يَحْذَرُها ويخاف كلماتها ووقارها الذي يُقلقه، منذ أن رآها أول مرة، خاصة أيام الزواج الأولى. حتى يلف البيت صمت ثقيل، وتنتهي بها الحال إلى أن تدور حول نفسها لتبرير حالة عابرة، هامسة له بعض الكلمات:

- كُن طبيعيًّا، واستَرخِ يا حبيبي.. فلا حاجة إلى التشنُّج.

كانت الأم في البدء عندما تراه، تنظر إليه بطرف عين، عاقدةً ذراعيها على صدرها، كأن وجوده يعتصر قلبها، كأنه أخذ مكان ابنها في البيت الكبير الذي ظلَّ خاليًا بعده، كانت تشغلها أفكار تفيض بما في داخلها، فكانت تردِّد دائمًا أن «الغريب قرَّر البقاء في البيت ونحن نرحل لأجل عيونه»، جاء الغريب وصار أبًا للدار ونحن الضيوف، لكن (ثائرةَ) لم تَكُن ترضى بهذا الكلام، فأبوها هو الذي قرَّر أن يبقى أحمد في البيت الكبير بسبب الحرب، ولم تكن موافقة على ذلك، كانت متوجسة حينها، وها هي ظنونها في محلِّها، ثم عندما تنشب المشكلة بينهما ويتعَقَّد الوضع، تفلت زمام الأمور فيستشيط غضبًا ويشتدُّ صوتُه ليُسمِعَ الأم، وهي تحسن

الإصغاء:

– لن أرضى بالوضع السخيف هذا، أنا لست هيِّنًا، ولديَّ الحل السريع لأضع حَدًّا لمُشكِلاتها، أنا شاب وأَلْفُ بنت تتمنى مثلي، لديَّ وظيفة، وقدرة جسمانية بألف حصان، مهذب ومثقف، وأعرف كيد النساء، وإذا كنت غير مرغوب أظن الأمر سهلًا جدًّا.

فتعود لتهوِّن عليه، بأنها امرأة كبيرة السن، بحاجة إلى الشفقة بسبب فقد ابنها الذي طيَّر برجًا من عقلها، وبأنها لم تقصد الإساءة إليه؛ إنها تتصرف بدون قصد، فهي ابنة أكابر أكارم أصحاب مواقف معروفين، تقول:

– سترى، فترة وتُشاور قلبها وتسير الأمور.

– عليكِ بالإنجاب إذن!

– وما عَلاقة هذا بذاك؟

– الإنجاب حلٌّ ناجزٌ لكل الأطراف، لأنها سوف تشغل نفسها بالوليد، ومِن ثَمَّ الثاني.. والثالث، وبهذا تفرغ ما في رأسها عني.

– ما الذي تقوله؟

– أقول لا بد من الإنجاب...

– لدينا آدم وكفى! وليس مفروضًا عليها أن ترعى أطفالنا إن لم تعتزم هي ذلك.

تصمت (ثائرةُ) بعدها حينما يحتدم النقاش ويفتح مجارير العِناد لأنه خبير بالجدال، يجلس محاذاتها على السرير، تنهض من فورها نحو الشرفة، فيمدُّ ذراعه على كتفها بلطف من دون تردد، تتململ، تزيح أطراف شعرها، يهمس بأذنيها بهدوء، بأنه لم يقصد إزعاجها، تتحول إلى امرأة أخرى لا تعرف من هي.. ما الذي يجري لها؟

كان بيت أخيها الشهيد على مقربة منهم، وقد انتقلَتْ والدته للعيش مع زوجته لرعايتها، وحين تذهب (ثائرةُ) في بعض الأحيان لشرب الشاي معهم، كانت تتمنى ألَّا تصادف مجيئه لأنه لو علم فسيخرب الدنيا، لذا كانت تعود إلى البيت بشيء من العجلة رغم أنها لم تكن تخرج من البيت لبضعة أيام، على كل حال، اعتادت العمل البيتيَّ، آدم يحيطها بالصراخ مرة والضحك مرة والبكاء مرَّات، فهي لا تشعر بأي رغبة في الخروج من المنزل، وقد شدَّت الطفلة داخلها سلاسل أُرجوحتها حول عنقها كي لا تذهب إلى الأعلى.

في أحد الأيام كانوا جالسين في أمان الله بباحة المنزل حين دخل زوج أختها الكبيرة، ومن فوره وَجَّهَ اللوم والتوبيخ لأحمد بسبب طول بقائهم في البيت الكبير الذي امتدَّ ست سنوات، نظر إليه بازدراء، تلك النظرة التي تعكس نظرة الوالدة إليه، فاحتجَّ بخوفه عليها، وبأنه كان قد اتفق مع أبيها على هذا الأمر، ولا يجوز أن يفعل هذا بهم:

– ما دخلك أنت؟ ومَن الذي حشرك أنت في الموضوع؟ ليس لك الحق في التدخل لأني متفق مسبقًا مع عمي، أين هو ليأتي ويرى ماذا تصنع؟

– ما دخلي؟ كيف؟ اِسمع.. كَفَاكَ تبجُّحًا، عيب عليك، عليك أن تجد مكانًا آخر.

ما زالت تتذكر نوبة العصبيَّة الهِستيريَّة التي انتابت أحمد آنذاك لشعوره بالانكسار، عندما مدَّ النسيب يده إلى ياقته ليَسْحَبه ويقذف به إلى خارج المنزل، ثم تتالت التهديدات بين الاثنين وانتهت بأنْ أدار أحمد ظهره للآخر الذي صار من يومها شاهق العناد. قبل ذلك بفترة كانوا ووالديها يعيشون في البيت معًا، لكن الوالدة كانت هائجة على الدوام، تصب نار غضبها عليهم لأنهم في تصوُّرها قد استباحوا بيتها وقطفوا أزهارها، لقد دمَّر باطِنَها فقدانُ أخيها، فصارت وقتها بين فَكَّيْ الرَّحَى، إذ توجَّهت إليها نار الفريقين: أحمد وأمها، كأن دمَهَا أُهدِر للجميع.

كانت الظروف كلها سيئة، فقد أطفأ أحمد شمعة قلبها، وكان أبوها يحبها كأنها ابنته الوحيدة، وكانت لا تفارقه كأنه صديقها وحبيبها وقت معاناتها من مضايقات كثيرة في السابق، بسبب عملها السريِّ في الحركة النسائية وحشد النساء للتظاهر وتوزيع المنشورات بين النساء المطالبات بالحقوق والمساواة وعقد الندوات، حينما قالت إنه لا بد

للنساء أن يكون لهنَّ ما للرجل من حقوق وإن الادِّعاء بأن المرأة خُلِقت من ضلع الرجل الأعوج باطل، وإنهن لَسْنَ بناقصات عقول، فهاجَ عليها الجميع، وانقلب بعض النساء ضدها، لأنها عبَّرت عن آرائها حول حتميَّة هدم حياة النساء الرخوة وهامِشِيَّتها في المجتمع، وأن منهُنَّ الربَّاتِ اللواتي عَبَدَهُنَّ البشر في حضارات سحيقة، ولم تكن تكتفي بهذا القول بل كثيرًا ما كانت تكرر: «لو كانوا يَعُوْنَ أن الرجل قديمًا كان يتبتَّل ويتعبَّد في محراب الرَّبَّات، وكان من يريد أن يخدم من الرجال في تلك المعابد يهب نفسه قربانًا ويقدِّم جزءًا من جسمه أضحية لهُنَّ، لكن بعد مرور الوقت شَحُّوا وتناسَوْا مكانة المرأة فاستباحوا قدسيتَّها وانقلبت الطاولة وتغيرت الأمور، ثم عملوا على إبعادها عن هالتها المَهيبة، ثم قاموا بشرائها ببعض المال الذي أُطلق عليه «الصَّداق»، المهر الذي يقدَّم للعروس، وفرضوا القِوَامة عليها، وأخذوا بناصيتها إلى اليوم، حتى أصبحت هي القربان المقدس!».

قرَّرت الوالدة أن تذهب إلى بيت الأخ لرعاية زوجته في غيابه، لذا كانت (ثائرةُ) تستنجد ببعض الصديقات للمبيت معها خوفًا من الهجمات التي تكرَّرت من النظام ومن المتطرفين.

اشتد رذاذ الزمن عليها هي وآدم، وبدت الأرض هشَّة تحت أقدامها بسبب عدم عِلم أبيها وتكالُب الجميع عليها، كانت مشفقة على آدم من الأذى، وكانت متيقنة من أن أحمد لن

يتورَّع عن تنفيذ تهديداته لها ولأمها بسبب طرده من البيت الكبير، وعندما أدركت أنه لن يكفَّ عن سعيه لانتزاعها من المكان خشيَت على ابنها من أن يتمزَّق بينهما، فتركت له الأمر. تركهما أحمد مُلتحقًا بالجبهة دون أن ينبس بكلمة، فبادر أخوها تحت جبروت الموروث بالمغادرة بهما إلى قرية في أقاصي الجنوب ليكونَا قريبَيْنِ من أهله. وبالمناسبة كانت حانقة على أخيها وقتها، ولم تعد اليوم كذلك، بل أصبحت تشفق عليه وإن كان هو لا يراعي الله فيها، كان مسكينًا طيِّبًا بقدرته الفائقة على الحلم، لا يتقن الكذب ولا التصنُّع بل كان كتلة حنين وقعت بين المطرقة والسندان.

قبل لحظة الشروق كانوا قد اتَّخذوا مقاعدهم في سيارة نقل كبيرة تحملهم هي وآدم وبعض الأثاث، ومعهم أخوها، انطلقت السيارة في شارع لا نهاية له ممتد بين صحارى وسهول متناثرة على الجانبين، تتهادى على الأسفلت الذي لا يخلو من الحُفَر والعثرات، لتخرج من بقايا ظلام الليلة الفائتة، فوقها السماء تتجلى تدريجيًّا عن قِطع من السحب المختلطة ببقايا لون قاتم، ولاحت المصابيح ترسل أنوارها خلف السيارة، كادت الشوارع تغرق في الصمت لولا مرور بعض الحافلات الصغيرة بهم، وحالما تجاوزت المركبة سيطرة المدينة، شعرت بأنها ابتعدت عن نجمتها اللامعة في قلبها، عن مدينتها، بيت أهلها المملوء بألحان فيروز، وموسيقا شوبان وتشايكوفسكي، وأسطوانات عبد الوهاب

التي تصدح بأجمل أغانيه في الكرامفون، الكرامفون الذي كان أخوها الشهيد كثيرًا ما يسمعه في الصباح في حديقة البيت الفارهة، وهو ينفث الدخان من غليونه الصغير البنيِّ اللون بزخرفته الرقيقة اللامعة، الغليون الذي لم يفارق أصابعه الرشيقة، كانت تجلس أمامه تتأمله وتنتظر صوت الجهاز حينما يقول «أسطوانات جقمقجي»، فتتحسر: «آهِ لذلك الصوت الدافئ العميق! أشعر أن رغبة في التنفس العميق تجتاحني عند سماعه، ويتولد لديَّ انطباع شائك ومربك، وشعور بعدم الرغبة في كل شيء سوى الطواف في حلم بِكرٍ يترادف فيه الإيقاع الصوتي مع الوقت الجميل»، لكنها فضَّلت عدم الحديث في هذا الموضوع، لما بها من حنين جارف إليه.

وَصَلُوا، ومثلما توقعَتْ، اِنتُزِعَت منها حياتها وأنشطتها يوم فارقت مدينتها، يوم غلبها بطش الأيام العاتي، أصبحت الأيام متشابهة عندها لا يعنيها سوى طفلها، حين تعهَّدت على نفسها أن تنسى أيامها الماضية وألَّا تفكر فيها.

كانت تعتقد أنها ستشعر بالمودَّة، بذراع الحنين الذي يتفتَّت على أقدام الصُّداع عندما تكون بين أهله وعائلته، ورغم الأوهام التي أرَّقَت نهارها قبل ليلها وأثقلت روحها، احتضنها عقلها بروح لا تكف عن القلق أيضًا. ولا أشقى للرُّوح مِن الظنون لكنها أصبحت آسفة لأنها أثبتت فشلها الذريع، بسبب نِيَّاتها الحسنة ومحبَّتها للجميع، كانت تعزف على

حِسِّ الأُلفة والمودَّة، وكانت فكرتها أنْ تبني أسرة كبيرة في ظل أشجار وارفة، ولكنْ دائمًا ما يخطئ في حساباته قلبها المسكين، ولم تستطع إجبار نفسها على الكراهية أو البُغض.

جعلَتْهَا الدروس التي تلقَّتها في الحياة تَعِي مفهوم الاِسْتِلاب ومَهمَّة الأم الصعبة، ونسيت كل شيء سبق أن تعلَّمته في تلك السِّنِّ المبكرة، وفي نفس الوقت اعتقدت أنه أمر بالغ الصعوبة: إخبارُ الناس، سفرُ زوجها إلى الجبهة غاضبًا، ذهنها المثقل بتدبير ظروف الحياة الملائمة، الاحتياجات الماثلة أمامها كقامةِ تمثال ضخم يتصاعد منه دخان الاحتراق الداخلي، كانت تقول إنَّ أحدًا ما سيأتي من عَمَّاته أو خالاته، تنتظر عند النافذة بنظرات المترقِّب، بِلا جدوى، ثم قالت في نفسها «فَلْأُمسكْ ذراع المبادرة وأكسر حاجز التردد وأذهب!» وذهبت، فلم تجد مَن يستقبلها، عادت أدراجَها، ربما كانت لهجتها الطيبة غير مقبولة لأنها لا تستمتع بخداع الناس، وربما جعلتها تلك الغَرابة تبقى على قيد الحياة لأنها لا تَعرف إلى الكُرهِ طريقًا.

كان المطر ينهمر طيلة الليل مستمرًّا في اليوم التالي والذي تلاه، الشقة التي اتَّخذها أخوها لها مسكنًا قديمة متهالكة، خانقةٌ تطبق على الأنفاس، ربما لا تتجاوز مساحتها ثلاثين مترًا، كانت صغيرة جدًّا وبغرفة واحدة، وكان السقف قد تآكل من الرطوبة فعند هطول المطر ترتشفه شقوق السقف بأسرع ما يمكن، فيتحول إلى مزاريب يُغرِق كل شيء، فتعوم

الأغراض كأنها لعب ورقية، حتى إنها تتذكَّر كيف تحرَّكت السجادة وطَفَتْ فوق سطح الماء، لن تنسى ذلك المنظر إطلاقًا، لم تكن تستطيع استعمال غرفة النوم أو المطبخ الذي لم يتجاوز مترًا في متر، لذا كانَا يختبِئان في الحمَّام، أجل تشعر أنه المكان الوحيد الذي يحميهما هي وابنها، أجل.. أصبح ملجأهم الوحيد.

انتهت إلى أُفق حزين دائمٍ في أعماقها في زمان ليس فيه سقف يَقِيهم خطرًا داهمًا، ليس فيه سقف للأحلام في أول قشعريرة للمطر، ليس فيه أُناس يجعلون الدنيا رحلة هيِّنَة في عيونها، أناس تملأ عيونَهم الطيبةُ واللطف، يشعرون بما هُمَا فيه.

كانت تحتضن الصغير وتناجي أمَّها في سِرِّها: «ليس الأمر بيدي يا أماه! إنني أشعر بشعور غريب وأنا أفكر في غرفتي وسريري الوثير في بيتنا الكبير».

ثم تستغرب موقفها: «أمرُكِ عجيب أيتها المرأة! دائمًا ما تكونين بين فَكَّيْ رَحَى، فأنتِ من جهة تطالبين بحقوقك، وتقفين متضامنة مع الحركات النسوية، ومِن أخرى تتهاونين خوفًا على أبنائك من التمزيق والضياع».

ورغم اِنزعاجِها وخوفها على وحيدها لم تكن ترغب في تعقيد الأمور، عليها تنفيذُ رغباته من جوانب عدَّة كي تعيش بسلام، شعرَتْ أن شيئًا ما غامضًا يدور حولها، حتى الآن لم

تعرف السبب، فرغم مرور سنوات على تركِها هذا المكان البشع وقد فرضت على نفسها متعمدةً نسيانًا إجباريًّا لكل الوقائع، فإنَّ بعضَ هذه الوقائع يشخَصُ أمامها رغمًا عنها، فكان لا بد أن تكتب بإفاضة عن كل ما اختزنته طيلة السنين الفائتة، وقد جاء الأوان.

في اليوم التالي، وبعد أن هرَبَت بابنِها من الفيضان الجارف، نزَلَا من الشقة ووقَفَا في الشارع عند الباب، المارَّة يختلسون النظر إليهما، كان عليها أن تنتظر أي أحد لنجدتهما، لم يكن هناك من يتولَّى الأمر، هبَّ لنجدتهما بعض الجيران من أصحاب المحال القريبة من الشقة، أما عائلة أحمد فلم يفكِّروا حتى في السؤال؛ كان كل واحد منهم يشعر بعدم استحقاقهما للمساعدة، وبأنهم غير مسؤولين عن مجيئهما، لذا فَهُم غير ملزَمين بالرعاية.

تحتدم الأسئلة في رأسها: «ولكن كيف؟ ألا يشعرون باحتقار الذات حينما يَخْلُون إلى أنفسهم؟ ألَا يؤرقهم الواقع المفروض عليَّ أنا وابني؟! أليس المقدَّرُ أن يقوموا بالدور المفروغ منه أخًا أو أُختًا باعتبارهم أهل الأولاد ولا بد من الاهتمام بنا أمام الله والمجتمع؟ ربما تناسَوْا العادات الشائعة والتقاليد التي تفرض عليهم رعاية أولاد الابن، أَمِ الطاعة المُطْلَقَة والاحترام والإخلاص واجبٌ على المرأة فقط أن تمنحه للرجل، الذي لا يُلزِمُهُ الطاعةَ شيءٌ حتى الدين؟! المهم، ما يعنيني الآن أن أخرج من هذا المأزق».

تَسَامَتْ وحدَهَا، وخيوط الدخان تعتليها تتصاعد من رأسها، من جمرةٍ كامنة بداخلها تكاد تصطخب وتنفجر عن بركانٍ يشقُّ سقف الشقة نصفين، تمالكت نفسها لتَخرُج من ثقوب الليلة السوداء، وهي إشارات لوقوع أمور وشيكة في قادم الأيام، وهي لم تعد قادرة على احتمال مفاجآت سخيفة أخرى. غسلت المكان وصَقَلَتْه لتطوف نجومها ومجرَّاتها كمجوهرات في سمائها.

همستْ لابنها: «تعال يا فلذتي، دعني أُجلِسْكَ على قُطب الكوكب لترى انفراجةَ الفرح الجميل، وستزداد جمالًا عندما تتوهَّجُ جَمرات دفء وقتنا الهادئ». أغلقت الباب بإحكام وأسدلت الستائر، أشعلت (السَّمَاوَر) (*) بعد أن وضعت عليه إبريق الشاي، أحضرت بعض سندويتشات محشوة بالجبن والعسل واللوز المطحون، جمعهما (السَّماوَر) ليعيشَا في حلم جميل بعيدًا عن عاصفة الليلة الفائتة، تراشقت على وجهها ابتساماته كنسيم ناعم يداعب قلبها الظامئ الذي كاد يفقد وعيه من فرط الإجهاد.

قالت لآدم:

– سأعيد عليك قصص «السندباد» و «علي بابا» و«ليلى والذئب» وقصة «السلحفاة والأرنب»، سأروي لك تلك

* وعاء معدني يُغلى فيه الماء لتحضير الشاي، يُستخدم في بلدان الشرق الأوسط وروسيا.

الليلة حتى الصباح.. يا حبيبي.

قَضَيَا الليل منفردَيْنِ وحيدَيْنِ، تستأنس بالكلمات وتستعيد ذكريات ومشاكسات صغيرة قد وقعت لهما سابقًا، حتى أنهكته الحكايات المُحَلَّاة بابتساماته، فتماوج آدم من سلطان النوم الذي هجم عليه قُرَيبَ الفجر.

كانت نادرًا ما تخرج، لكنها كانت تحتاج في نفس الوقت إلى شراء بعض الأغراض والطعام، حاولَتْ أن تجد عملًا ووُفِّقَتْ للعمل في إحدى الشركات، وأصبح لديها صديقات، وكم كانت سعادتها كبيرة حين كُنَّ يجتمعن حولها في شقتها الصغيرة المليئة بالجرذان، كانت تجاهد لتجعلها تبدو على أجمل شكل في تلميعها وتنظيفها وتهيئتها لتنبعث منها رائحة النظافة الذكيَّة، فقد كان الأمل ضعيفًا في تغييرها أو مغادرتها إلى مكان معقول.

كانت تُسِرُّ إلى صديقاتها: «ثماني إجازات مرَّت ونحن نتدلى لأيام طويلة في نفس المكان، حتى أصبحَتْ مثل جرح في جسمي لا يشفَى ولا يندمل، ولا بد لنا من مدِّ جسور الأُلفة مع أكثر الأمور إيلامًا، كان الأرق والقلق والتنهدات العميقة والأحلام المزعجة مرافقة لي، وكان أحمد أيضًا حانقًا على الشقة لكنه لم يَسْعَ لتغييرها عنادًا فيَّ، لا أعرف لماذا! يذهب إلى «الواجب» ثم يجيء بدون اكتراث، لاستقراره في بيت أخيه القريب، تَعَوَّدَ تلك الحال كأنَّه لا يسمع ولا يرى،

وتعوَّدَ أن يتركنا يومًا أو بضعة أيام، وننتظر حتى يعود فيمتدُّ حبل المودة كأن شيئًا لم يكن!».

كانت صديقاتها يعرضنَّ عليها المساعدة بالتدخل لحل الأمور، لكنها كانت ترفض لأنها لا تعرف حقيقة الأمر، كانت الشقة مطلَّة على الشارع العام، وهي غيرُ معتادةٍ كلَّ هذا الضجيج الذي ينبعث من السيارات والدَّرَّاجات والشاحنات، لذا نسيَتْ كيف يمكن أن تنام في هدوء. ولا شكَّ أنها منذ البداية، كان حدسها من دون أن تعرف لماذا بالضبط أن الأمور لن تكون أفضل من الغرفة في المعتقل قبل أن ترى المكان، فقد أحاطت به ذكريات ملعونة، ملأت رأسها، وأفكارٌ تُصِرُّ أن تعبث بأهدابها، وعزاؤها ابتهاجُ ساعات قليلة تشفق عليها، ترقب من خلالها عُرْيَ الأرض رغم الغابات الكثيفة، تتمدَّد في عصورها القديمة تتصفَّح فنونها الشتَّى: طبيعة النساء.. قصصهن.. حياتهن.. معاناتهن أو كيدهن، تسحب ورقة من جانبها تدوِّن فيها:

اخلُدي إلى النوم
يا روحي الملقاة وحيدة
على قارعة البلاد
رأيتُ حلمًا رفيقًا
ثمَّة فارس
ذو بأسٍ شديدٍ

سيأتي
عند مَوْرد الماء
سيستمع إلى قلبكِ
كطفل صغير.

كانت تقضي الليالي وهي تختم آية الكرسي وتحتضنها: «آهِ.. صاحبتي ومنقذتي، فقد سمعْتُ ذات يوم من الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله أن من قرأها خمسَ مرَّات قبل النوم سينام هانئًا آمنًا؛ اختبأتُ في حِمَاها محتضنةً ابني لأدخُل في حصنها الحصين وأحتمي خلف سورة ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدًّا﴾، يا إلهي! ما هذه الفوبيا التي أصابتني بالوساوس والقلق المقيت؟! صَدَقَ من قال «أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد»، لقد كنت أمسِ في حالٍ واليوم في حال أُخرى».

مرَّت أسابيع وتبعتها أشهر، وفي ضُحى أحد الأيام عندما كانت في السوق لتبتاع طعامًا برفقة آدم، تسير في أمان الله متطلعة إلى المحال المرصوصة على الجانبين والمقاهي المزدحمة بمختلف الأعمار، محال البقالة وأنواع الحلويات، إلى محال العطور وقوالب الصابون، السِّلال والحُصُر المصنوعة من جريد النخيل الملون، السجاد الملون المنسوج يدويًّا، محال المصوغات الذهبية والفضية، الإكسسوارات

وفصوص العقيق والأحجار الكريمة والقلائد والخواتم على الأدراج الصغيرة، محال القدور والأواني والقوارير المختلفة الأشكال والألوان، أواني الصينيِّ نُقِش عليها باللون الأزرق القاتم والذهبي الساطع كتابات لقادة وملوك توسَّطتها صورهم، تخالطها أصوات الباعة التي أضفت على المكان صخبًا بهيجًا يشُدُّ المارَّة ويأسر القلوب بألوان المعروضات، ثم انتهت إلى زقاق تراصفَتْ فيه محال تجار الأقمشة وبيع الملابس الجاهزة رجالية ونسائية والمناديل الملونة، يؤدي إلى زقاق آخر لبيع الشراشف القطنية والحرير والأغطية المنسوجة يدويًّا وصناعيًّا.

تركَتْ سوق القيصرية الكبير وانحرفتُ نحو سوق الخضار، عندها جاءتها ضربة قوية من درَّاجة هوائية من الخلف، فوقعت على وجهها وتناثرت الأغراض من يدها بعد تمزُّق الأكياس؛ توقفَتْ، عدَّلت من هيأتها ونظرت حولها، فاستدار الشاب الذي تعرض لها بدرَّاجته وهو يضحك ساخرًا منها، عرفَتْهُ، إنه ابن أخت أحمد بلحمه وشحمه، وقبل أن تناديه هرب واختفى في الزحام، صرخت.. نادته، لم يردَّ.

اِنحنت تجمع ما تناثر من الأغراض، حتى ساعدها الناس على التقاط بعضِها، فوجِئَت؛ أهو الترحيب القاسي، أم هي إشارة عدم الترحيب بل رفض الأم وصغيرها بينهم؟ فكرَّتْ، عليها أن تتشبَّث بكل قوتها بابنها قبل أن يداهِمَهَا مرة أخرى، وعليها أن تفكِّر الآن كيف تتعامل مع الأمر بهدوء. غامت

الدنيا في عيونها ولم تعد ترى إلا صغيرها.

وقبل أن تُعاد الكَرَّة جمعت يديه في قبضة واحدة ودلفت إلى زقاق جانبي ضيق في السوق، لتتجنب استفزاز الشاب المفاجئ مرة ثانية، سارت مسرعةً للابتعاد بدون أي كلمة.

كانَا واجمَيْنِ، قلَّبَتْ في السبب وأعادت الأسئلة على نفسها.. «لماذا؟ ما الذي يدعو ذلك الشاب إلى مثل هذا التصرف غير المفهوم أو المتوقع؟». حين وصلت إلى الشقة أجهش آدم ببكاء حار ممزوج بالخوف والدَّعَة والرهبة مما حدث، يتطلَّع نحوها تارةً بعيونه المشدوهة، وتارة يتحسَّس وجودها ويتطلع إلى ما تركته آثار العاصفة في المكان. حين رأت ما هالَها وما أرعبها، واصلت تفقدها للأشياء المبعثرة هنا وهناك، يائسة من صور اللا حياة، تفتقد الحكيم الذي يدلُّها على عمل الصواب، افتقدَتْ أباها وأمها وأهلها. وصرخت «دُلُّوني كيف أتصرف!».

عندما وصلَتْ.. كان باب الشقة محطمًا، والمنظر داخلها يبعث الذعر في النفس، فقد عبثوا بالأثاث والأغراض بين تحطيمٍ وتمزيقٍ وسرقةٍ، كانت شراشف الأَسِرَّة والمقاعد في الصالون ممزقة، والإسفنج محروقًا، مطعونًا بضربات سكاكين، الستائر ممزقة، ولم تسلم من التخريب حتى المراوح السقفية، الأبواب مُلطَّخة بالوحل، الأرضية بيضاء فقد رُشَّ مزيج من الطحين عليها، وقد تناثرت بودرة

«جونسون» وغطَّتها كليَّةً، دخلَتْ غرفة النوم فشاهدت خزانة الملابس مخلوعة الأبواب وقد سُرقت مقتنياتها الذهبية ومبلغٌ من المال، وقد رمَوا ما فيها من الملابس بين ممزَّقٍ ومحروق، هُرِعَتْ إلى النوافذ عَلَّها تلمح شيئًا، فلم تجد أثرًا لأي شيء، أدوات المطبخ لم تنجُ أيضًا من العبث بين تكسُّر وانبعاج.

قلَّبت نظرها بين اليمين والشِّمال، ماذا تفعل؟ رفعت رأسها إلى السماء، عاتبت ربَّها على قِسمتها السوداء، جلست تحت رحمة المخلوقات المفزِعة وقلبها يكاد يفرُّ من ضلوعها، الشمس كبيرة معلَّقة فوق رأسها، تتربص بروحها فتزيدها خوفًا من المجهول، الأشرار من حولها يطلبون جَزَعَها ونفادَ صبرها. ابتلعت صرختها وحدَّثت نفسها، لكن ليس هناك من يسمع صدى صوتها، تسمع أباها يحدثها هامسًا: «لا تخافي، كوني قوية، كوني شجاعة؛ لا أحد يملك أن يؤذيكِ».

تنكمش في جلستها، تتكوَّر على نفسها لتسند رأسها إلى ركبتَيْها المضمومتين، تلف جذعها بذراعَيْها، تنظر إلى ما حولها؛ كل شيء يثير الذعر والخوف والتوتر. لَمْ تمنحاها أي فرصة للتفكير؛ تسمَّرَت عيناها محاذاة ذيل ثوبها، تنظر إلى آدم الذي وجدتهُ مقرفصًا عند الباب يواجه مخاوف تلمس قلبه وتقبض على تلابِيبِه، وجهُهُ يحدِّق إلى الفراغ:

– آدم ؟ حبيبي...

صامتٌ.

– ما الخبرُ حبيبي؟ تشجَّع.. أنت رجلنا الآنَ، آدم.. لا أمزح معك!

ولم يَرَ آدم بُدًا من الصمت، لم يفهم ما حصل، ولماذا حصل. لكنه وطَّدَ نفسه على تلك الحالات التي لا يفهمها، ويبدو حيالها قد أغلق أبواب قلبه وقبع داخل نفسه زاهدًا مرتابًا من كل شيء.

أجل إنها تتذكَّر ذلك جيدًا، كانت مضطربة قلقة، حاولت ضبط النفس ليهدأ بالها، وقد انتابَتْها رجفة يصاحبها شعور بالخوف والحزن، إنه ليس منامًا ما يمرُّ على مخيِّلتها بل أجزاء من مشاهد مكتملة، المُرادُ منها تخويفها لتعلن انهزامها ورفضها البقاءَ في هذا المكان النائي عن الأهل، ولكن ما نفع ذلك؟

ولا شكَّ، كانت بحاجة إلى شاهد؛ اتَّصلت بأبيها حالًا، فقد وقع الحادث، ولم يكن لها منفذٌ غير الاتصال به، كانت مصابة بالهلع الشديد فالصدمة كبيرة، ساوَرَتها الشكوك في أنهم مِن الأمن، لكنها ما زلت غريبة لا يعلم بوجودها أحد، بقيت على تلك الحال بضع لحظات، لا تكاد تعرف إلى من تتوجَّه، فهي غريبة في مكان غريب.

نظرت إلى ابنها، ضمَّته إلى صدرها ليرتاح من جحيمٍ صُبَّتْ على رؤوسهم بقسوة، صحيحٌ أن الأولاد هم «مكسر الذُّل» كما تقول الأمثال، ابتسمَتْ له محاوِلةً إسكاته لتمنحه بعض الاطمئنان.

بعد لحظات استدعت الجيران ليطَّلعوا على العاصفة التي اجتاحت الشقة وقلبَتْها رأسًا على عقب، تجمعوا حوالَيْها بين مُتأسِّف ومتسائل، يَصْفِقُون يدًا بيد متأسِّفين على ما شاهدوه من غدرٍ جفَّفَ ينابيع الأمان، وهي في وضع لا تُحسد عليه:

– لا إله إلا الله! مَن له المصلحة في ذلك يا بنتي؟ (قالها رجل يقطن أمام شقتها).

– لا أعرف...

– مَن هؤلاء الذين يريدون إيذاءكِ؟

– لا أعرف!

قالت امرأة متوسطة العمر:

– عليك أن تبلغي الشرطة، أجل.. ونحن شاهدنا، وسوف نشهد معك.

قال ثالث:

– المكان لم يعد آمنًا لك يا أختي؛ لا بد من تركه...

– كيف؟ أين أذهب؟

ثم أردفت:

– ألم يصل إلى أسماعكم شيء من الضجيج.. حين وقع الحادث؟

قالوا جميعًا:

– لا.. لا والله. ولو كنَّا سمعنا لأمسكنا الفاعل ومزَّقناه شَرَّ تمزيق.

ثم تداركوا الواقع:

– كلنا بيوتنا تحت أمرك، فنحن لم نسمع عنك إلَّا الخير.

– أشكر لكم شعوركم جميعًا يا إخوان، من فضلكم، فقط أريد مكالمة أبي.

– أجل، أجل، بالخدمة.

بعد أذان المغرب جاء والدها وهو يرتجف من مفاصل قدميه إلى رأسه، ثم ذهب إلى بيت شقيق أحمد الكبير، طرَقَ الباب، وواصل الطَّرق حتى تورَّمَت كفَّاه، بِلا جدوى، احتقنت عيونه، وشعر بالدماء تصعد إلى رأسه واجتاحته ثورة النَّخوة، وهو يتطلع إلى المكان متأمِّلًا إيَّاه بِاشمئزاز، تأمَّلها وشَرَار الغضب والأسى يتطاير من عينيه، تحسَّسَ رأسها:

– سهلة.. سهلة بُنَيَّتي، ولا تحزني، لا تحزني؛ سترين ما سأفعل، لقد حصل ما توقعتُ! لعنة الله عليهم وعلى ساعةٍ وافقتُ على تزويجك يا ابنتي!

رمقها بنظرة عطف أكملها باحتضانةٍ حنونة، وهو يهمس:

– سيكون كل شيء على ما يرام. اِهدَئي كي يرتاح الطفل، لن تبقَي هنا دقيقة واحدة. فِيم انتظارنا يا ابنتي؟! فقط انتظريني لأجلب سيارة تحمل الأغراض ونترك هذا المكان.

اتَّجهوا إلى البيت الكبير في مدينتها الحبيبة في نفس اليوم، مرَّ بعض الوقت، حينها نظرت الأم نظرة فاحصة، دموعها على وجهها المتورِّدِ ذي الملامح الهادئة، حين رمقتها

سريعًا اِطمأنَّ قلبها، انحنت على الصغير وقبَّلته قُبلة إثرَ أخرى، ثم انصرفت لتُحضر لهم العشاء، كان الوقت متأخرًا حينذاك، انحنى الوالد ليحمل آدم، وَوَجَّه كلامَهُ لأمها:

– خَلِّيهِم يَرتَاحوا، ولله الحمدُ غرفتُها على حالها لتنام فيها، فقد كان الطريق متعِبًا جدًّا، لا أريد أن تحدِّثيها أو تسأليها عن أي شيء الآن، ولا تَدَعِي أي شيء يؤثر عليها، لن أتركهما لهذا الأحمق.

– لا بأس.. لا بأس، هذا نصيب «بنت الدَّلَالِ».

مكثَتْ نَحوَ ساعةٍ بعد تحميمِ طفلها، وبعد أن تناول بعض الطعام والشاي، خلد إلى نوم عميق بعد نهار شاقٍّ وطويل، ورغم شعور الراحة الذي اِجتاحها، شيء ما قد تغير في داخلها، لم تكن تعرف ما هذا الشعور الغريب الذي اِنتابها، قالت في نفسها والحزن يعتصر قلبها:

«لماذا عندما تتزوَّج البنت وتعود لبيت الأهل تشعر بالحرج والخجل والثِّقل؟ لم أكن أعرف هذا الشعور سابقًا، وهل ما يحصل لي بفعل القَدَر أم بفعل أيادٍ خفيَّةٍ؟ كنت واثقة بأنَّ والديَّ سوف يشملاني برعايتهما، إلَّا أنَّ هذا الشعور بعدم الراحة يُثقِل كاهلي، فَهُما كبيران في السنِّ ولديهما ما يكفي من الألم والإرهاق، ما جعلني أشعر في الحقيقة، بالأسف لأنني أرهقت حياتهما، وتطفلت عليهما أكثر من اللزوم».

كان الأب يقرأ أفكارها حين قال مبتسمًا بوجهٍ شاحب:

– لا تحزني، سوف يكون كل شيء على ما يرام، أنا عندك يا ابنتي؛ لا تحملي هَمًّا. هيا الآن ارتاحي ونامي، ولنا غدًا حديث آخر، إنَّ غدًا لناظِرِه لَقَريب.

كان يريد أن يُخرجها من حلقة الحزن التي أطبقَتْ على قلبها، ولكن كيف لها بالراحة وقد أصبحَتْ من الأماني بعيدة المنال؟!

كان الأب من أسرة توارثت التجارة في الحبوب، فقد كان جدُّها لأبيها يملك السفن التي تُقِلُّ البضاعة من الموانى، وتحت يده عدد كبير من العمال الذين وُفِّقُوا بعملهم معه لرعايته لهم وكرم أخلاقِهِ ويدِهِ معهم، كان حينما يمنح بيده اليُمنى لا تعرف اليسرى بها، مؤمنًا بأنَّ من يتصدَّق للمحتاجين فعليه ألَّا يُخبر أحدًا، ليبارك الله في رزقه وماله وأولاده. أما قَسَمَاته فقد نَحَتَهَا الربُّ على أجمل ما يكون، كان طويل القامة، خمريَّ اللون تفرُّ الدماء من وجنتيه على الدوام، منحوت الأنف ذا جبهة عريضة صَبُوحة، وكانت عيناه عسليَّتَيْن تضفيان عليه هيبة وحضورًا، ذا نظرة ثاقبة وعقل راجح، كان يشبه جدَّها شكلًا وخُلُقًا ومضمونًا، كان يطيل الصلاة من الفجر حتى الصباح، لم يؤذهم يومًا بصراخ أو يُشعرهم بانزعاج حين يُسرفُ الأولاد في الضجيج، بل يضحك فيصبح وجهه مشرقًا بجمال أخَّاذ، كان يقول: «إن البنات قواريرُ أوصانا الله والرسول الكريم بهنَّ خيرًا، فهنيئًا لمن في بيته بنات»، كانوا يُجِلُّونه ويُقَدِّسونه لأنه حفظ

معنى الأُبوَّة وجسَّد ميثاقها بحنانه الجَمِّ وخوفه عليهنَّ، لكن ما تعرضت له (ثائرةُ) من مصائب جعلتْهُ يبدو شاحبًا نحيلًا منحني الظهر، حتى إنه أخفى عنها مساهمته بمبلغ المال الذي فتح به لأحمد مشروعات تربية الدواجن والأسماك، ولولا المُصادفةُ لما علمت بذلك.

عاد والدها بكل الحزن الذي يحمله للترويح عنها وعن طفلها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، رغم شحوب وجهه ومغالبته للبكاء، تتذكَّرُه وهو يحمل آدم ويلاعبه ويحمله على ظهره ويركض في أروقة المنزل وهما يضحكان، ويستمر حتى يشعُرَا بالتعب ويناَمَا، لكنها لم تَنْأَ بنفسها عن التفكير من أجل إيجاد سبب معين لهذه الغيوم السوداء التي تطاردها وتَقُضُّ مضجَعَها وأهَلَها، وقد أغرَقَتْها بمطرٍ حارقٍ يتربَّصها كلَّ حين، وهي لم تفرغ بعدُ من طقس الملاحقة والتعذيب، (فوكه فوكه) (*) يصطفق الإعصار نفسيًّا، ولم تَسْتَشْفِ بعدُ.

في الصباح، تداولَتِ الحديث مع الأم في ما يتوجَّب عليها فعله، وقد لاحظَتْ وجهها الشاحب وعيونها المنتفخة مِن أثر البكاء طوال الطريق، قامت لإعداد مغليِّ البابونج لها، ثم عادت لتحضر كوبًا من الشاي الحامض لكليهما، انتصفَ النهار وهم يفكرون في أسباب المشكلة، ويقلبون الأمر معًا

* الشيء تلو الشيء

على وجوهٍ عِدَّة، سألتها الأم:

– هل تشعرين بتحسُّن؟

– سأكون أفضل.

– هل اختلفتُما أنت وأحمد؟ تشاجرتُما؟

– لا.

– هل أثقلَ عليك بما لا تطيقين؟ أم تقاعسَ عن تنفيذ ما تطلبين؟ هل وبَّخكِ لأنكِ تركتِ البيت الكبير لتكوني قريبة من أهله لرعايتكم؟

– لا.

– أنا أعرف قسوته، إنه مستبدٌّ كبعض الأزواج الذين يُظهِرون القسوة لنسائهم ليضمنوا طاعتهنَّ وانصِياعَهُنَّ.

– لا. لم يحدث شيء ممَّا قُلتِ.

– إن ما حصل لا يمكن السكوت عنه!

قالت في نفسها: «ماذا أقول لها؟! هل أقول إنه تركني وطفلي للقَدَر؟ هل أقول إنه أهملني رغم علمه بكل شيء؟ هل أذكر لها قسوته على آدم واعتداءَهُ عليه؟ هل أُخبرها بأنه ركَّزَ جميع حواسِّه على متعته حينما يخرج ويتركنا، وقد يأتي أو لا يأتي لعدة أيام؟ مِن أين أبدأ لك الحديث يا أمي؟ خَلِّيها سَكْتة».

ثم قرَّرتا أن تتشارَكَا الأمر مع الأب ليقرر.

لم تكن تتوقَّع ولو لوهلة أن الأبواب سَتُوصد دُونَها مِن قِبَل أهل أحمد، ولا تَعِي كيف ولماذا لا يطيقون وجودهم. هل هناك شيء ما خلف الجدران يخشون افتِضَاحه؟ كانت تفكِّر يقينًا أن عينًا أصابتهم؛ إصابة من حسد تمتدُّ أمواجه وكيمياؤه لسنوات، وإلَّا كيف تفسِّر ما حصل؟!

رُحماك ربي! أيُعقل أن تختفي مواثيق الدم وصِلات الرَّحم بسبب النَّزَق والحسد والحقد الدفين؟ أم تُراهُ طنين الأقدار؟ وعَلامَ يحسُدْنَني؟ عجيب أمر هؤلاء النساء! كنت أتمنى أن أذوب بينهن، أن أكون واحدة منهن، عجيب! لم أُتِمَّ حتى البَسْملة، ليكون كل هذا الكُره والحرب الخفيَّة التي لم تخطر على بالي يومًا، لكن صدق مَن قال إن أشرس عدو للمرأة هي المرأة ذاتها.

بعد فترة لم تتجاوز ثلاثة أشهر، لاح على والدها شحوبٌ فقد نَضُب ماء الحياة في بَدَنه تدريجيًّا، جفَّ عُودُه وذَوَى، ظَلَّ يذوي وازداد بِمَرِّ الأيام جفافًا ونحولًا، شعرَتْ بأنه شارد الذهن، حواسُّه خامدة باردة، كأن وَقْدَةَ دمه تبرد وحرارة أطرافه تخبو، فارَقَه صفاء البهجة التي كانت تفيض من عينيه، لتشعل جذوة الحياة في كِيان الجميع كلما كاد يطفئها النكد والوَهَن والهِرَم، حتى قال لها في يوم: «لقد دنا أجلي، وأوشكَتْ أيامي على انتظار النُّعاة، وكأني محمولٌ اليومَ أو غدًا، أجَل، لم يبقَ لي في هذه الدنيا إلا القليل».

بعد عدة أسابيع مات الأب، أبوها الذي كان مربوطًا بأصول الشجر، مات بين يديها في ظلام حالكٍ متكاثف، كان مشهد موته قفرًا مُوحشًا، يملأ النفس أسًى والقلب حزنًا، اختفى القمر والكواكب خلف أَصْفَقِ حِجابٍ من السحاب، وخَيَّم على البيت الخراب والبؤس والشؤم والنحس، فقد حزنت الدنيا وأقامت مأتمًا مِن نائحات الغمام الموجعة، وصائحات الرياح المفجعة، كأن كل ما على الأرض مات، وكأنها هي أيضًا في سياق الممات.

ظلَّت تنوح وتناجي أباها برسائل تدمع لها عين الظنون، أباها الذي كان نبراس حياتها اللاثغة، وهو ما تبقَّى لها من ذخيرة، فمن يخلُفُه بعد فقده؟ مَن لها وقد خلَتْ منه عيناها ويداها؟ من يسدُّ مكانه؟ من أين لها بالخِلِّ الوفي، والصاحب الصديق، الرَّفيق الشَّفيق، الحبيب الرؤوف، الوَدُود الأَلُوف؟ مَن يسدُّ كل ذلك ويعوِّضه؟ مَن؟ مَن لها غير ذلك الشيخ الواهن المتهدِّم من سعير الجراح؟ كيف سيطيب لها العيش، ويلذُّ لها مقام الحياة؟ كانت تقصُّ عليه ما تعاني من زوجها، لمن ستحكي الآن؟ ولمن تشتكي مِن سلوكياتٍ غيَّرت نظرتها تجاه أحمد؟ حينما حوَّل فرحَهَا يوم التقَتْه ووافقت على الزواج به، إلى تعاسة منتظمة.

كانت لا تجرؤ على الحديث المسموع مع والدها خوفًا عليه من الأسى، وخجلًا منه في ذات الوقت، كانت تُكابر بكل عنفوان فتعود لتخاطب نفسها، لكنها اليوم زادت نُدوبُها

وعمَّت آثارها جسدها، حتى قالت:

«لقد انتهيتُ يا أبي، لَيت صباح الغد لا يطلع إلا على جثَّتي الهامدة، وجمرتي الخامدة، أبي.. أين أنتَ الآن أيها الروح المُحلِّقة في عالم الملكوت؟ أبي.. لقد انتهيتُ إلى باب الليل البهيم، السُّحُب تتسابق فوق رأسي وتتبارى، الرياح تعزف على فُرقَةِ الخُلَّان، اِرفع رأسك وانظُرني يا أبي، لن أستطيع بعدك صبرًا، لا تنتزع مهجتي يا أبي، إني لأرى دموعك على لحيتك البيضاء كالدُّرَر اليتامى».

وسرعان ما أَعْيَتْ ووهنَتْ، وانطوت على نفسها في هدوء وصمت، ولكن الكبرياء والعزة التي هي شأنها دائمًا، منعتها أن تعلن وَهَنَها وضَعفها أمام الجميع، فواصلت الصبر على المسير على مضض، إلَّا أنها جعلَتْ تحدِّث والدها، كأنها بِهِ يسألُها:

– ما بكِ بُنَيَّتي؟ أتخافين؟ أتخافين وأنا أحملك بين عيوني؟ لن ينالك أحدٌ بأذًى وأنا معكِ.

– أتتذكَّريا أبي عندما حمَّلتني بوصايا (أُم الحارث) لابنتها يوم زفافها؟ والله يا أبي فقد لبثت عليها فحقَّقتُها كلها، ولكني كنت أَطرُق على صخرة صماء. أخبرني يا أبي، أهذا هو المعبود المقدس الذي يُعبد بعد الرب؟ أهو الذي أردتَ مني أن أجعله حارسًا على قلبي؟ الأمواج تتقاذفني مع هذا الرجل الذي يكاد يجرِفُني نحو اِلتِياعٍ لا محدود، الآفاق تتقاذفني يا أبي، أتراني

تلك الأنثى الساذجة التي كُنتُهَا سابقًا؟

تعرِف يا أبي؟ لم أبقَ تلك العاشقة الغارقة في بحر الأوهام أيام الكلية وتوهُّج الشباب واندلاع الدلال، وهو لم يبقَ ذلك الماهر في التقاط شواردي واقتناص فُرجة ابتساماتي، لم يبقَ ذلك الشاب الذي فتحتُ له أبواب فرحي وانطلقت معه أيام معرفتي الأولى حين عِشت زلزلة الوَلَه بكل روعتها، كم كان هادئًا ورقيقًا وجميلًا! آه يا أبي! الآن عرفت أن العوم في بحر الأنوثة ليس بمقدور أي رجل كان، وما هو إلا واحد من الرجال الكُثُر الذين يريدون أن تكون النساء ككاهنات المعابد المقدسة، فإلى مَن سأرفع شكواي يا أبي؟ ومن سيسمع نجواي؟ ولمن سأبوح بأسراري؟ وقد علمتُ الأسرار بداخلي، وكتمتُها بيني وبين ذاتي، تلك هي النقطة المؤلمة، وهذا الرجل الذي كان حولي ويشاركني سريري، قام بيننا جدارٌ عالٍ وهُوَّة سحيقة، يا أبي لقد أدخلني كهوفًا خالية من صلصال الحياة. أبي، أتُراك تسمعني؟ أترى سأكون مثلما كنتُ مشرقة النجوى، قبل أن يدور مفتاح العَتَمَة في حياتي؟ أبي خذني معك، تلك أنَّاتي أُرسلها إليك قبل أن أتَّجه نحوك، لأني لن أكون كما كنتُ سابقًا، أبي خُذني ولا تُبقِني ليلة أخرى.

(٢)

انتهى فصل الصيف وقد استرخى عقلها وتعلَّقت عيونها بطيف يثير بها الآمال قليلًا، وغضَّت الطرف عن صخب التهيُّؤات والأحداث رغم المواقف المؤلمة التي لم تخطر على بالٍ، ورغم تفاهة الأقدار التي تضفي عليها بعض القيمة والأهمية، كانت تنفض ذهنها بين حين وآخر وتلتقط القلم لتنظِّف وعاء الروح من زعيق الصور الشاحبة، عليها أن تبقى كي لا تكون فريسةً للأوجاع، ويومًا بعد يوم رجعت إلى طبيعتها نوعًا ما، وهي تعلم أن زمنًا محملًا بالأورام قادم نحوها.

أمضي بِلا اِلتفاتٍ
يا قدَرِي
أمضي قبل أن يذبل
ورد الابتسام
خلف دموع الأقحوان
أمضي
بِلا اكتراثٍ
لزكائب الرماد والتراب

بِلا اكتراث لريح الكآبة
أخلع عن قلبي قميص الصمت
أصرخ بِعالي الضوء
لتخرج أفاعي الليل
من شجرة الطهارة.

كانت لي زاوية صغير ظليلة بأغصان العنب المتشابكة، تحيط بها أشجار البرتقال والليمون وزهر منمنم من الرازقي(*) أحاطت به الغصون المتشابكة، وأوراق الزيتون الداكنة اللون، تمرح على متنها عصافير النهار، يلامس أجنحَتَها سرور الأعياد فتضيف إلى الخيال رؤية ذهبية تتداخل في خُضرة الأوراق بصمت ورفق، كنت أجلس كأني عروسٌ تهلَّل وجهها بالسعد والخير، إذ أنتظر وصول أحمد لأبلغه عن غضب الأيام، كنت لا أتحدث إلا لِمامًا، أصغي إلى زغاريد العصافير وأحتفي بها، ثم بعدها أنهمك في تشذيب النباتات في حديقة البيت الكبير لبعض الوقت، حين سمعتُ طَرقات خفيفة على الباب، وتكرر الطَّرق فذهبت لأرى مَن الطارق، كان الوقت منتصف النهار حين رأيت رجلًا يقف عند جانب الباب بيده ورقة تعلَّقتْ عيناي بها:

* نوع من الزهور عبق الرائحة.

- تفضل
- مرحبًا... أرجو التوقيع على هذا التبليغ.
- أي تبليغ؟
- من المحكمة، أختي.
- هاتِ لأرى.

بدت الورقة واضحة، وبَدَا لي أنها كانت صادرة من المحكمة بإقامة دعوى الطلاق الغيابي ضِدِّي، وعليَّ الحضور بحَسَبَ التاريخ المحدَّد للدعوى، تَسلَّمتُها بعد التوقيع في السجِل.

أسندت رأسي إلى الباب بعد إغلاقه وقد اجتاحتني سَوْرَةٌ من الدُّوار والضباب الذي غطَّى عيوني، كنت لم أزل أنظر إلى الورقة حين أطلَّ آدم برأسه وهو يحمل لعبته على استحياء، لم أنتبه لوقع أقدامه وهو يقترب خلسة، وقف في رواق الباب المطلِّ على الحديقة معهم كَظِلِّهِم القصير، وعلى صدري تربَّعَت صخرة.

كنت أحلم بحبٍّ قرير، قلبين يلفُّهما زَنْدَان واحتضانٌ هامس بدفء الحرير، أو سرير فضفاض تعوم فيه حكايات يومٍ مُعَافًى، كمركب يعبُر بنا ثلوج المدى والمجهول، لكن كل ما أذكره كان عمْرًا يتلوى في كهف الهجير، في زواياه تعشِّشُ الخفافيش ودبيب العناكب وصرير الصمت في أسًى محموم، يتمطى شبح الموت فيه وغَرَابِيب لم أعرفها،

كل ما أعرفه أنني في جوف حُوت، يتراءى لي طُوفان شاهق يعترض صلواتي، وعاد الدمع نهرًا عاريًا على بيتي الخَرَاب، ومن حولي يُسَبِّحون لردِّ غزوات البلايا، فقد غُرز نابُ مخصيٍّ في جسد ابنتهم البَضِّ، ولم يكن نابَ أمير، لم أكن جاحدة في حبي يومًا من الأيام، كان دمي يُسقَى الطحالب وصرير أمعائي يَرِثُ علقم الليل.

كانت المحكمة تغصُّ بالرجال والنساء والموظفين وسُعاة البريد، وصراخِ النسوة وزعيق القضاة والمحامين، ينبض برماد الأرواح الخاوية. كنت أبكي في صدري ابتسامات الطفولة، ابني الذي يتلظَّى في الشمس على جمر الانتظار، رَوَّضَتْنا الأعاصير ونحن نتشدَّق عند بَابِ مُرَاءٍ أحرَقَ طفولةَ الولد وامتصَّ عسل حياته.

قد تكون ذاكرتي عن هذه الأحداث تشوَّشت مع الزمن، وقد تكون الأمور قد حدثت أقسى مما أتذكَّره اليوم، ولكني أستطيع أن أتذكَّر بوضوح ذلك الإحساس المخيف المُوحش الذي خيَّم علينا ونحن نقف هناك في باحة المحكمة، ننتظر ذلك الشيء الذي خلف الأبواب، وحين اقتربنا رأيتُ المحامي -وهو رجل كبير السنِّ- مُلتفًّا بوشاح صوفي وقد أحنى ظهره ليكتب شيئًا ما، رجل بارد، كقالب ثلج لم يلسعه لهيب ناري، حتى قلت في نفسي «إنه غير مهتم بأمري فكيف سيساعدني؟».

كان قد وصل قبلنا بقليل، كنت أبطأ منه بسبب اِلتِزامي مع آدم، وحين وصلنا وقف محدِّقًا إلينا، كانت عيناه مفتوحتين، حتى إنني ظننت في البداية أنه كان هارب التفكير، لكني سرعان ما رأيت عينيه تتحركان وتنظران إلينا بدهشة وخَواء كبيرين. سألته لاهثةً:

– مرحبًا أستاذ، هل أنت بخير؟

لم يردَّ على سؤالي، كان يتفحَّصُني وابني وهو صامت، سألني:

– ما الذي حدث؟ أريد أن أفهم. فقد طلبكِ إلى بيت الطاعة، ولكنه عَدَلَ عن الأمر وطلَّقكِ غيابيًّا!

قلتُ، وكان يواصل التحديق إلى آدم:

– ماذا؟ كيف؟

– لكني طلبت التأجيل.

– ما السبب؟

– هذه إجراءات عادية جدًّا، إنها أشياء روتينية، فبعد الجلسة الثالثة أو الرابعة سوف يصدر القرار.

– طيب، ما ذنبنا؟ وقد شرحتُ لكَ كل شيء.

– أنا واثق بكلامكِ يا ابنتي، لكن تلك هي سياقات المحكمة، «وَدِّي حِبال وجيبي رجال» (*).

* هامش المؤلف

– وهل أبقى يوميًّا أجُرُّ أذيال الخيبة في انتظار اللا شيء؟

– وهل تظنين أنها تنتهي في يوم وليلة؟ إن حبل المحاكم طويل يا ابنتي، المهم لا تحملي همًّا؛ أنا موجود.

– أشكرك عمو، لكني لا أستطيع أن أفهم؟ أليس المُفترض من القاضي سماع الطرفين؟

– لقد تحدثتُ بما فيه الكفاية، ولا أرى أيَّ سبب يدعوك إلى القلق، أنتِ مرتاحة في بيت أهلك!

– لكن كيف ستسير الأمور؟ أنت تعرف احتياجاتنا، فهل هو مستعد لهذا؟

– هل تظنين أني لم أتحدث في هذا أولًا؟

– أرجو أن تعطي الأمر أكبر قدر من الاهتمام والعناية.

– خليها عليَّ، أنا لا أسمح بأي قرار يهدد مستقبلك وابنك، وقد ناقشت الموضوع كلَّه معه، وأُؤكد لك أنك ستكونين بخير ولن تكون هناك أيُّ مُشكِلات.

لم أكن أتوقَّع منه كل هذا، كنت أتصوَّر أنه سيُهرَع إلينا أولًا، ليعرف ما حصل لنا، لم أكن أتصوَّر!

لُذْتُ بالصمت. أما المحامي فقد هزَّ كتفه بعد كلامي واستأذن بعد أن رمى التحية.

في الحقيقة كان سوء الطالع يرافقني دائمًا حتى قطَّع أوصال حياتي، لكني كنت كثيرًا ما أَعزُو ذلك إلى الانتقال من

مكان إلى آخر، وقد يكون هو رد الفعل المباشر الذي أضمَرَهُ للردِّ على تصرُّف زوج أختي حينما طلب إليه تَرْكَ البيت الكبير، ونحن نمرُّ بأوقات صعبة بسبب الحرب. على كل حال، فأنا ما زالت أمامي فسحة من العمر ويمكنني الاعتماد على نفسي في إعالة ابني، ورغبتي أن نصبح عائلة متماسكة، نملأُ البيت دفئًا وحُبورًا، هذا كل ما في الأمر. وظننت أن الصمت والهدوء هما مفتاح تحقيق الأمنيَّة، ولكنْ بإمكان الأمنيَّة أن تنتظر.

غادرنا دار المحكمة، كانت السماء قد امتلأت بغيوم داكنة، أو تَراءى لي ذلك، وكنا قد تجاوزنا محطة القطار بقليل حين استدرتُ وقد أثقل كاهلي حَمْلُ ابني على صدري، من أجل استئجار إحدى سيارات الأجرة.

بعد فترة لن تسعفني فيها الذاكرة قاربَتْ ثمانية أشهر، ربما كانت بعد عدَّة مُرافعات، بعد حفنةِ أشهر، كنت يومَها أيضًا في المحكمة، عندما وصلتُ إلى البيت استطعتُ سماع صوته من الداخل وهو يتكلم بغضب مع أختي، استغربت؛ اقتربتُ أكثر، حين دخلتُ لم ينتبه أيٌّ منهما، تفاجَئًا بمثولي أمامهما، التفتا إليَّ معًا، كانت أختي تجلس على حافة الكنبة وهو على طرفها الآخر، ومن خلال الضوء المنبعث من النافذة رأيت وجهه الذي حَلَقَه بعناية فبَدَا كالقناع، غاب وجهي حين رأيته، فقام خجلًا وبادر بالقول:

– أخشى أن تكون أختي وأهلي قد سببوا لك المتاعب.

قفلت عائدة لأخرج من المكان مِن دون رد، فثبُتَ في مكانه ولم يحرِّك ساكنًا.

– عليكِ أن تنسَي الأمر.

(قالت أختي وأمسكت بذراعي بقوة).

استدرت أريد الخروج، أردفَتْ:

– لن تتحركي من مكانك، فقد جاء ليعتذر!

– يعتذر؟ هل هذا سلوك الرجال؟ كنت أنتظر مجيئه من زمن. لست بحاجة إلى الاعتذار، لقد رمى ورقة الطلاق بوجهي فماذا يريد بعدُ؟ لكني أتساءل.. أين كان كل هذه الفترة؟ كان عليه أن يأتي ليعرف الحقيقة مني، فقد حَشَوا عقله بالحقد والجحود والاستخفاف. أنا هنا أعيش بأمان مع ابني رغم قسوة الظروف. ماذا يريد بمجيئه متأخرًا؟ ألا يكفي ما فعل هو وأهله؟ اتركيني.. اتركيني!

حاولْتُ الإفلات من قبضة أختي، لكنها بيدها الأخرى جذبته بسرعة قائلة:

– هيَّا اعتذر. هيَّا!

غضبتُ من تصرُّفها الساذج ودلفت إلى الغرفة المجاورة، بدأَتْ الدموع تنزل زخاتٍ من قلبي الذي دبَّت فيه أفاعي القسوة بعد أن كان جبلًا من التفاؤل والمحبة يؤرِّخ تاريخًا

للحَمَام، لكنه هجم عليَّ وألقى نظرة معتذِرة، بعد أن التَفَتَ إلى أختي:

– دعيها لي؛ سوف أعتذر لها بطريقتي.

ظلَّ يحملق بنظرات لم أعرف مغزاها أو معناها، ثُرتُ، تمرَّدتُ وعلا صوتي، دفعتُهُ عني عدة مرَّات متقزِّزةً من أسلوبه الهمجي، أحاطني بذراعيه وأحكم إقفال قبضتيه؛ سكنَتْ حركاتي، بقيتُ بلا حِراك لا أتمكَّن من تحرير نفسي، كنت أشعر بشدة الكُره والحقد تجاهه، كنت أبغضه إلى حدِّ أنني لا أطيق النظر إلى وجهه، شعرت بالاختناق فقلت:

– كفى.. كفى.. ابتعد!

– دعيني أشرح لكِ.

قلت بعد وهلة، بعد أن ربَّتَ بكفِّه على رأسي:

– لقد تأخرتَ. ماذا تريد أن تقول؟ ما عُذرك؟ كيف تركتَنا هكذا من دون أن تعرف الموضوع منِّي؟ وكيف تجرأتَ على الشكوى في المحاكم؟ ثم الطلاق؟! لِمَ كل هذا؟ ما السبب؟

سحبتُ نفسي منه بعد أن سَرَت في جسدي رِعدة مخيفة جعلتني أقشعر من أخمص قدمي حتى رأسي، شعرتُ بالكُره تجاهه بعد وابلِ الأكاذيب بين طَيَّات كلامه الغامض. قلت بحزم:

– لا أريد العودة معك، ولا يهمني ما اتفقتَ عليه أنت وأختي...

قاطَعَني:

– لا تنسَيْ ظروف العسكرية وما نراه من القتل والجرائم والعِيشة المطفأة على الجبهات، لم يخطر على بالي ما حصل من أهلي ولا أعرف سببًا واحدًا لذلك، فقد استقبلوني بمرح ومزاح في البداية ثم صُدِمت بمجيئكِ إلى هنا من دون أن أعرف السبب. صدقيني فقد حيَّرني قرار عودتك المفاجئ، لذا كان تصرُّفي أخرقَ، أعترف بذلك لأني لم أعرف أي شيء، ولم يخبروني بأي شيء! لم يخبروني!

كان إبريق الشاي يغلي على (الطبَّاخ)(*) منذ بعض الوقت، رفعتْهُ أختي من فوق النار، وبدأت تصبُّ الشاي لكلينا، نظرتُ إليها لبضع لحظات ثم سألتُها بهدوء:

– هل وجدتِ تصرُّفكِ عقلانيًّا ومنطقيًّا؟

– أجل؛ الرجل جاء يعتذر، وله الحق في العودة وقتما يشاء، وماذا يعني أنه تأخَّر، ها؟ المهم أنه جاء، لذا عليكِ أن تغفري وتسامحي.

واصلَتْ إعداد الشاي من دون أن تنظر إليَّ، بعد ذلك أكملَتْ حديثها:

– لا تُعقِّدِي الأمور أختي، ها هو يعتذر وكفَى، الرجال يغضبون مرةً واثنتين وعَشرًا، ويرجعون حين يريدون. المهم

* البوتجاز

عادَ واعتذر. فَعَلامَ التَّناطح معه؟ صار ما صار، وجاء ليصلح الخطأ.

بقيتُ أتابع حركاتها وتبريراتها السخيفة، كأنها أنياب تُنبِتُها في صحراء قلبي، ثم قلت:

– ما خططكِ؟ ماذا تخطِّطين لنا؟ وما شأنكِ أنتِ؟

– خططي؟ هه.. لقد أخبرتكِ عدة مرَّات أن أهم شيء بالنسبة إليكِ هو مصلحة ابنك، وهذا قبل كل شيء، وأنا أُم وأشعر بما تشعرين، اِلْعَنِي الشيطان ولا تتركي دماغك للافتراضات والتساؤلات، أرِيحي عقلك وَلْتُفكِّري.

– أهكذا أعود بكل سهولة؟ ولم يخطر على باله أن يعرف الأمر مني؟ وهل يعلم ما أَلَمَّ بنا أنا وابنه؟ وعندما تركنا، هل تساءل كيف سأدبر أمري مع الطفل؟ بل تركنا بلا حساب لأي شيء معاندًا إيَّاي ونفسه، لا أدري كيف ولماذا أتى الآن. هل هي صحوة ضمير؟ أم أنَّه لا يحتمل العيش مع أهله؟

– ماذا نعمل؟ وما الذي في أيدينا؟ هكذا يبقى الرجال قَوَّامين على النساء إلى ما شاء الله، وعليكِ أن تتقبَّلي الأمر وتكوني راضية، وسوف أناقش معه إمكانية العودة إلى بغداد.

– إنه عديم المسؤولية وقد أثبت ذلك. وهل يعرف معنى القِوَامة؟ القِوَامة هي أن يكون الرجل قائمًا على المرأة يحافظ عليها ويرعى مصالحها بالتدبير والصيانة والإنفاق، ورعاية الزوجة بما يحقق لها السَّعادة في حدود شرع الله، القِوَامة هي

توفير المسكن والمأكل والملبس و...

– هذا قدَرُك ولا مفرَّ من القدر.

قالتها وهي تواصل تحريك إبريق الشاي بين يديها، وهو مُطَأطئٌ وَجَدَ مَن يدافع عنه بدون أتعاب.

– أنا لا أُوْمِن بأفكاركِ، ربما كان الأمر مخيِّبًا لآمالي من البداية، صحيح. ولكن ليس الآن، لقد عرفتُه على حقيقته وقد يُقْدِم غدًا على الأشنع والأفظع، كل شيء جائز، فكيف يمكن أن أضع مستقبلنا بين يَدَيْ شخص كهذا؟ كيف أصدِّقه؟

أَخْلَدْنا إلى الصمت ثانية، وضعت أختي إبريق الشاي أمامنا وراحت تحدق إليه، ثمَّ قالت يائسة:

– أرجو أن يكون مُتفهمًا.

قالتها، ولم يُبدِ أيَّ مبادرة حينئذٍ.

••••

عادت معه، وقالوا العَودُ محمود لأجل لَمِّ شمل العائلة ورغبة الطفل، ولكن يملؤها الآن شعور عارم بالندم على موافقتها على العودة معه، بعد أن كانت راضية حينها، فقد علَّمتها الحياة أن تتلقى كل ألوانها رضًا وقبولًا، وحين رأت

قبولًا من ابنها خفَّ عن كاهلها حمل المآسي، رضيَتْ به لئيمًا أو نبيلًا، لم يكن بِيَدِ قلبها الحافي قابلية للطنين بلا طائل ولا جدوى، بين نشيج الصغير الصاخب رغم أنه تخلى عنه، كانت ساذجة إلى حدٍّ بعيد، فلا شيء في يدها غير تدحرُج الدموع المحبوسة في عيونها.

مرَّات عديدة كانت تغرق في غزارة الأسئلة وهي تهبط حارَّة لاسعةً فوق رأسها:

«كيف يتغير بهذه السرعة بعد أن كان يتحرَّق لهفًا، ويتلظى شوقًا لرؤيتي؟ كانت الأمانيُّ أشباحًا ترواغه في أودية الرجاء، وتحدو به في شِعاب الأمل، كان قلبه الخافق لا يبرح نبض الشوق المتسول، وعينه الشاردة متلهِّفة طمَّاحة إلى فضائنا، لم تُطفأ جمرة شوقه إلا تحت ظلال عشبنا الأخضر، فما الذي حصل؟ ولا أدري كيف تتهافت عليَّ صور النساء اللواتي يصرُخن أمام صرير العالم اللا مُبالي، من دون أن يرفَّ له جفن، من دون التفاتةٍ إلى دواليبهنَّ المليئة بالشكوى، لا أدري لماذا أتذكَّر حادثة المرأة التي التصق قميصها بجسدها بسبب غزارة العَرَق في المعتقل، تلك التي قتلت زوجها دفاعًا عن أطفالها، وهي يتيمة الأم والأب، وقد ركضت وراءها الاتهامات والأخطاء من مكان إلى مكان وهي تتشبَّث بطرف الدنيا لتعيش».

كانت من عائلة مُفلسة، عَمَدَ والدها قبل وفاته إلى زجِّها

في الخدمة ببيت أحد القضاة، كبُرتْ وانتفضت أغصانها، أحرزت مكانًا أثيرًا في قلب ابن القاضي المدلَّل الذي لا يعرف الجوع وخَواء المعدة، وقد أغلق عقله عليها وأسدل نوافذ روحه، وأدخل عائلته في خوف وإنذار بسبب حَمْلها الذي قارب على الظهور، ولكن أمه السيدة العجوز ذات المكانة الرفيعة كانت تريد إنقاذ ابنها من براثن الخادمة، فذهبت بها إلى أحد المشافي كي تُجري لها عملية إجهاض، ثم تركتها للشارع، وَجَدَها بعد فترة فتزوجها وأنجب منها ثلاثة أبناء، لكنه بسبب مقاطعة أمه له أصبح ضائعًا بين دخان البارات الضيقة بملابسه الفاخرة، لا قيمة للزمن لديه، لا وقت لديه للاهتمام بها، حتى انقلب إلى وحش بعد طرده من قِبل عائلته.

عرفت منه أصناف العذاب، وفي خضمِّ هذا التيه وبحرقة الجوع الأزرق دفعته بقوة لتنقذ ابنتها التي انقضَّ عليها بالضرب المبرِّح لأنها بَكَتْ من رصاصات الجوع والجفاف، فسقط على جبهته ومات، المحكمة حكمت لها بالبراءة واعتبرتها حالة دفاع عن النفس، وأُفرج عنها، بعد أن تحطَّم قلبها بين حريق البيوت المتناثرة من أجل عمل يضمن لها النجاة من النكبات، ولم تترك والدة زوجها الموضوع، فما إن انتهت فترة وجيزة حتى طاردتها، قطعت عليها الشوارع، ركضت خلفها في الأزقَّة والحارات.

قامت معه، مستسلمةً، أدهشتهُ موافقتها، لا يعرف سرَّ استسلامها المفاجئ، أخذ يديها إشفاقًا، لم تتمنَّع عندما أخذ بناصيتها، أراح عينيه على جدائل شعرها المتهدِّل على كتفيها، انزلقت عيناه على استدارة كتفيها، كان عقلها رافضًا العودة حين همست لنفسها:

«ماذا لو اقترب مني الآن، ولثم نقطة انحدار شمس الكتف المنساب إلى دفء النَّحر؟ من أيِّ طينة خُلق هذا الرجل؟ هل أزيحه عني لو اقترب، أم سأتركه يجتاحني مدفوعًا بِغِيِّهِ نحو غاياته؟ ما غاياته مني؟ أين سينتهي به المطاف إذا تركتُهُ يبحر في نواعمي؟ أين هو مِنَ اشتياقه إليَّ؟ الشوق يذكِّر باللقاء، واشتياقه يفور بالالتقاء، شوق ردَّه من غيبته في لذيذ ماضينا المشترك، أتراني استسلمت لتمُرَّ ساعات الحياة الباقية بهدوء، حتى يأذن شروق آخر أو فراق النهائي دونه؟ أهملت ما ينبض في زاويتي اليُسرى، لأجمع ترانيم داكنة على بقعة ضوء طافية لأقترب من مركز القوة الربانية، الحقيقة الكامنة خلف كل النساء، تابعتُ رحلتي الطويلة في صبر منقطع المثيل، فكل شيء يهون من أجل مَن أُحب، ولعل الرجل وَهَن عن حمل عبء الحنين فشرع في ابتغاء السَّعادة».

كانت دائمًا ما تترنَّم بعظمة الإلهة إيزيس، تصلِّي لها لتمنحها القوة، قوة الرياح واصطفاق أمواج البحر ليصمت الجحيم، فلن تخسر إذا أحصت النجوم، بطَرَائق شتى

وبتسميات شتى كي تبتدئ، لتكتب السطر الأخير، عسى أن يهنأ الصباح في شِعاب الفجر.

يا أيها البشر والآلهة
الذين في الجبل
إنها السيدة الوحيدة،
المَهيبة
إلى إيزيس
سيدة الغرب (العالم الآخر)
فهي التي ولدت
النهار
سيدة الغرب
والأرضين معًا.

(ترنيمة مصرية قديمة)

– نعم...

قالت له بنعومة آسرة، لا تخلو من سخرية هامسة واشيةٍ بإدراكها حالة اضطرابه، حتى زاد اضطرابه اضطرابًا، اقترب خطوتين خجولتين، ثم استعدَّ للانكماش تحت ظلِّها، جثا أمامها مفترشًا الأرض، كأنه يجثو أمام تمثال نادر قديم، أمال

رأسه برفق نحو مرفقها الذي اِتَّكأ عليه، سكَنَ.. انكمش، ارتخى جفناه، مرَّرَت أناملها فوق منابت شعره، أخذه الدُّوار، حارَ سعيه في اختيار المدخل؛ هل يكمل مشواره أم ينهزم فتنساب إليه، كما يتمنى أن تفعل؟ وقت طويل مرَّ على آخِرِ استسلام، وقت طويل مضى منذ آخر مرة تناسل فيها جسدها بين ذراعيه ليحتسي دفئًا مجنونًا، حَدَّ النهم، نهم الجاهلين المحرومين. شعرت باستسلامها كطفلة صادفت متسولًا تعيسًا، مدَّ يديه، تعلَّق بأكتافها، مدَّت يديها لتمنع تسرُّبه، لَثَمَ كفيها ببطء، سحبها إليه كمتعبِّد ناسك، مرَّ بباطن كفيها على عيونه ووجهه وعاد لَثَمَها، لَثَم أناملها واحدةً إثر واحدة، أطبق شفتيه، لامسَتْ شفته السفلى أطراف كفيها، تنهدَتْ، ارتعَدَ، حتى فاضت عيناه، ناداها:

– حبيبتي، أمامك.. أمامك فقط يرتعش قلبي. بالكاد أستجمع قوايَ معك، وُدِّي لو أغوص فيكِ حتى أتلاشى تمامًا، بوُدِّي أن أُولد من رحِمِكِ ثانية. بماذا تفكرين؟

– آه يا ربات الحضارة المندثرة!

ابتسمَتْ مستخفَّة بكلامه، لم تكن تعرف ما يخبِّئ الزمان في قادم الأيام، جَنَّ الليل، رفعت رأسها إلى السماء، نظرت إلى النجوم، نامت العيون، ولم يبقَ سواها والحيِّ الذي لا ينام، لامست وجهَهَا نسمةٌ غريبة فارتفع صوت دمائها إلى ذروة الجبال.

كان الأمل قد استعمرَ قلبي بكامل إرادتي، خاصَّة حينما رُزِقتُ بصغيري الثاني، طَفِق قلبي يضحك وبالسرور ينبض كل حين، عسى أن يجلب لنا الله يُسرًا بعد عسر، وفَرَجًا بعد ضيق، وبعد شقاء سعادةً تجلب لي معها شيئًا جديدًا. تتهلل أيامي حينما يطوِّقني صغيري بذراعيه الصغيرتين وتلتفَّان حولي، إحداهما تلمس عنقي، والأخرى استقرت على وجهي، فيشرق وجهي سرورًا، كنت أستخدم سِحر الكلمات بمهارة فائقة، كما لو أنها عصًا سحرية، وكنت أتعامل مع الأشياء بكل حبٍّ، أنارتني الشعلة التي تكرَّست بأعماقي حدَّ الذوبان فيها. مسكينٌ يا طفلي الصغير، توَسَّدْ كتفي فإنها نِعْمَ الوسادة لرأسك. انحدرت الدموع على نحره، لكني ما بكيت عِلَّةً، أنما بكيت نكدَ الحياة وخُبثها، فمهما صِحنا وبكينا وانتحبنا، لن تسمع الحياة شكوانا، ثم تتمادى في ابتلائنا بالمِحَن والكوارث.

مرَّت الأيام مُسرعة بسرعة كبيرة، وبسرعة ماتت، كان يضربني، يضربني كثيرًا، كلما لعبَتِ الخَمرة برأسه، مع أني أحببته لاتزانه، لسرعة بديهته واتِّقاد ذكائه، لكنه قابلَ حُبِّي بالإساءة، والإهانة كلما اِنتَشَى، يسلبني مدَّخراتي ونقودي كلما جاد بها عَلَيَّ أبي، وكل هذا سهل يسير لو لم يَعْتَدِ الجري وراء الفتيات، أمام عيني! أَوَلَيْسَت تلك من أقسى الإهانات وأشدِّها؟ فأولئك الفتيات لَسْنَ بأحسنَ منِّي ولا أملَحَ، ومَيلُه إليهنَّ يُعَدُّ ضربًا من الاستخفاف بشأني، وكلَّ مرة يسألني

الصفح والمغفرة على ما كان عليه من حماقات.

ما زلتُ أشعر بطعم الشَّرِّ المُرِّ على لساني، بِعَصف الريح كأنها مجنون يقطع أوصالنا، والأشراريتمتَّعون بعبقرية فائقة في التحكُّم والتسلُّط وفن البطش، لكني دفعت ثمن التذكرة من دون أن أشعر، اِعتلتني رعشة انقبضت لها أساريري، كانت فكرة الانتحار تراودني كثيرًا، وكنت أقول لنفسي إنها خطوة أُولى، والحقيقة أنني قُتِلت على أيديهم مسبقًا، كل الذين اجتمعوا على غلق قلبي، فلحظة واحدة تبهر السامع بلغة الإعجاب والحب والأزهار لينال الاطمئنان، حتى يلفح وجهي ظلامه الحالك، كانت الحياة على لسانه مليئة بالألوان وطعم السَّعادة، لكني رأيتها بالأسود والرمادي، حين تدلَّى الضباب ليقلب طاولة الآمال إلى نكبة، رغم الفرص الكثيرة المتاحة لي، لكني غالبًا ما أكون خاسرة، لم أكن أعلم أنني سأتعرض إلى سوء المعاملة رغم أني ساعدته كثيرًا، لم أعرف حينها أنه خسيس في لِباس قدِّيس طيب، لم يُثِر الريبة والظنون، كان له أسلوب ولباقة تجعل الناس خاتمًا في إصبعه، وأنا وقلبي لا نعرف التصنُّع، وربما اختارني لصمتي وطيبتي الساذجة.

لم أصادف السَّعادة قطُّ، ولم تبسط عليَّ ظلها الرطيب، ما يدريني؟ لعلها مدفونة في أحلامنا المسحورة، أو في نومتنا الأبدية، ربما في الأمل الكاذب الذي يستحيل إلى زفرة طويلة تحت سرادق الليل، ويحفر أخدودًا في الرمل، فمنذ الثامنة عشرة وأنا أسير الهُوَينَى على الرمل المبتل، أتلمَّس

شيئًا من السَّعادة مما عسى أن يكون قد تخلَّف بأفنية زماني المهجور، أُبصرها شبحًا يجثو على ركبتيه عند ثيابي المبللة بالمطر، ماذا أصنع؟ ومُذ ذاك الوقت وأنا أتهادى من شدَّة الوهن والإعياء، أُطْرِقُ، أدمنت النظر إلى أديم الثرى، أقول.. عساي أعثر ببقايا إطراء من ربَّات الدلال في الدنيا لتطيب ثمرات حياتي.

آه.. كنت أبحث عن تعاويذ إيزيس لفرط ما كنت أقاسيه من الآلم والشجن، لأتحول إلى طائر صغير يفرُّ من المصير، ليتني ما زلت يافعة أصطاد الفراشات في زوايا الأشجار وأتصدَّى لِلَّيل فوق عباءة الأرض، ليتني ما زلت ألفُّ جسدي بدفء الأهل وأمسح الشحوب عن الأيام، ليتهُ ما أَلَمَّ بي مدارُ دهرٍ مرتجف، حين قطَّع الشجرة ليصنع منها سريرًا جديدًا بأرجل قديمة، فهل نحن الربَّات اللواتي عبدهُنَّ البشر لعمر مضى؟ عشتار.. إنانا.. إيزيس.. نحتاج إلى حماية ظلٍّ.. رجلٍ.. ظلٍّ مُستَظَل يتحكم بمصائرنا، الرجل الذي كان يشقى قديمًا ويبتهل إلى الربَّات ويتعبَّد في محراب الأنوثة، لِيَهَبَ نفسه أضحية، ليس لنا الآن غير الطاعة له، وإلا فالإحباط هو قَدَرُنا المذموم. علَّمونا أن الرجل هو الذي ورث كل المعاني العظيمة في القوة، هو ممثل الله والخير في الأرض، وكثيرًا ما كنت أسمع أن طاعة الزوج من طاعة الله، ورضا الله من رضا أُولي الأمر؛ الأب الذي يسلمنا إلى الأخ، ومنه إلى الزوج، ومِن ثَمَّ الابن. كأيِّ ذبيحة تُقاد من عنقها إلى المسلخ، وأيًّا ما يكون

الرضا فهو كلمة تقال، إنما هي الخسارة والهلاك، كان ينبوع عيني بحرًا هادئًا رَمَيت فيه القلب وبريق الأيام والثياب، وازداد السواد في عمق النفس، أنا المشنوقة أدناه ليس لديَّ رصيد سوى لحظات ابتسامات الأطفال، جسدي يريد الطيران ومِن حوله أنقاض وخراب بوزن أَلَمِي وسُفُنِي المثقلة بالأنين.

آهِ كم هي رخيصة حياتنا بعد هرس الأدمغة وتلعثمها وسقوطها من يد الزمان؟ وهذا الميزان الذي انحنى بقلبي يمنحني شعورًا مجعَّدًا، يُخفق في قياس حناني الذي أمنحه للأرض رغم تساقط أوراق السنين، حين أصبح متنمِّرًا، يرعد بعينيه المحمرَّتين، ويعود ليعلِّل بأنه قد ورث شخصيته عن والده، كان يظن أني لم أعثر على ملفَّاته السرية، صورِهِ الرثَّة أيام كان بالريف، صور العاهرات ورسائلهن، النساء اللواتي عرفهن قبلي، مدخراته البنكية التي أخفاها عني، فيما لا يكفُّ عن ابتزازي، حتى أجرة التاكسي حينما يمدُّ يده إلى الخلف حيثما أكون، وأنا بدوري لم أفعل شيئًا بخلاف ما يهوى، كنت أُعلِّل ذلك بأن مالنا واحد، وأُعلِّل عصبيَّته تجاه الأولاد وهم يغرقون بالحزن والدموع، بأنه لم يتَسَنَّ له أن يتعرفَّهُم جيدًا في طفولتهم المبكِّرة بسبب ضيق الوقت وهو يقضي أغلب الشهر في حضن السواتر في الجبهة، كان المزاج السيئ يرافقه طيلة اليوم، ومع ذلك كان لديَّ أمل كبير في المستقبل حين تضع الحرب أوزارها.

– بالمناسبة.. هناك أخبار حلوة.

(قالت أمي).

– خير إن شاء الله!

– الناس يتحدثون عن قرب انتهاء الحرب.

– لقد سمعتُ ذلك أيضًا. ما الجديد؟ نحن نسمع يوميًّا عن توقف الحرب. إن عِلمها عند الله.

أُعلِن وقف الحرب في ١٩٨٨/٨/٨م، ولم يُعرف من الذي تقلَّد فيها أشرطة الانتصار ومَن الخاسر في أُتُّونها، كان السياسيُّون منهمكين في الجدال بعضهم مع بعض، وفي البيوت والشقق نُوقِش موضوع الحرب باستمرار، ولكن المناقشات اتَّسمت بالسخرية التي طبعت الأوضاع المهملة، أما التقارير حول الناس فقد ازداد سعيرها، كانت رائجة جدًّا، وقد هدَّدت كل من لا ينتمي إلى الحزب الحاكم، ولم تكن (ثائرةُ) واثقةً بما إذا كانت تلك التقارير قد سببت له أيَّ قلق في تلك الأيام، ومع ذلك فهو يعود بالدرجة الأولى إلى التطورات الأخرى التي حصلت في أثناء الحرب، فقد تسلَّمتُ خطابًا منه يُعرب فيه عن رغبته في تغيير السكن في حال مجيئه، وفرحتُ حينها، وبعد تلك الأنباء بقليل، عندما جاء أظهر كثيرًا من الشوق، وقد تمكنتُ من جمع بعض المعلومات حول الأماكن القريبة قبل بضعة أشهر.

كان البيت الذي استأجرَتْهُ واسعًا، وفي الحقيقة كان

يحتاج إلى التأثيث وتجديد الطلاء وترميم السِّياج والحديقة الخاوية، ومع ذلك، كانت قد جمعَتْ بعض المصاريف وانطلقت لتحديث السكن الجديد وتأثيثه.

إنني أتذكَّر الآن بوضوح شديد، كنت في أحد الأصباح الجافة في منتصف آبَ، أقف على سلم معدني لأتسلَّق السياج الخارجي لطلائه بيدي، حتى خرج بالمُصادفة جارنا الطيب أبو حَسَن، وقد دُهش من المنظر حينما رآني أتسلَّق السلم لطلاء الجدار، كان يحدِّق إلى المنظر الذي أمامه مذهولًا وهو يرفع يده ليتَّقي بها وهج الشمس:

– من أين لكِ بكل تلك الشجاعة والهمَّة؟

قال مبتسمًا، ثم أردف:

– إنه عجيب بالنسبة إليَّ، أنا حقًّا لا أستطيع أن أفهم كيف تمكَّنتِ من ذلك وحدك! إنني في شوق شديد لرؤية زوجك، فهل يستحق كل هذا الاهتمام والجهد؟ إنني لأحسده عليكِ حقًّا.

– أشكرك جدًّا أخي العزيز، ليس لديَّ خِيار آخر، ولم يعد الوقت كافيًا أمامنا لذا قررت أن أهتم بالأمر بنفسي، وأنا سعيدة بذلك. ولأن كل شيء أخذ هذا المجرى فليس هناك أفضل من التعاون بين الزوجين، نحن نقدر بعضنا إلى أبعد حدٍّ لذا لا فرق بيننا البَتَّة، ولا أستطيع أن أفهم أبدًا ما الذي جعلك تتصور العكس! نحن في انتظار عودته.

– لا. أنا أعتذر، فقد ظننت أن أُمَّ حسن ذكرت شيئًا عن حدوث مشاجرة من نوع ما بينكما، ذكرَتْها أختُكِ لها!

– مشاجرة؟!

نظرتُ إليه لحظةً ثم ابتسمتُ متجاهلةً كلامه، وأكملتُ:

– أجل أجل، الآن فهمت قصدك، لا لم تكن مشاجرة، لم تكن سوى اختلاف بسيط في الرأي.

– أجل أنا أفهم تمامًا. أنا آسف مرة أخرى، لقد كنت مخطئا. آسف لذلك. هل يمكنني تقديم أي خدمة، سيدتي؟

– لا. شكرًا لك.

في ذلك اليوم بعد أن أكملتُ ما بيدي وأتممت طلاء الجدار، تنفستُ الصعداء، قررتُ أن تكون كل زوايا البيت مرفأً يغصُّ بالزَّهر واللوحات الجميلة.

أذكر أنني بقيت أيامًا أنتظر موعد مجيئه في شوق، وقد تكون واحدة من ذكرياتي الطيبة عن تلك الأوقات، ففي تلك الأيام أحببت حياتي، أحببت المكان، لم يكن هناك شيء غير مستحب. صِدقًا، كانت أصوات الضفادع تبعث الهدوء في النفس وتشير إلى عودة الحياة، كانت قادرة حينذاك على بعثِ المعنويات العالية لنا، لم يعد الجوُّ خانقًا كما كان في الشقة السابقة، كان النسيم عليلًا يُرحِّب بنا، وكان سقف الفناء يوفِّر ظِلًّا ضئيلًا من الشمس، فلم يكن الفناء سوى مساحة مفتوحة على الحديقة السبخة، كان بإمكاننا لمس

الصيف القائظ منها، لكن سعادتنا بالبيت جعلتنا مأخوذين بمنظر الحياة المستقرة، والحريَّة التي نتحرك بها صعودًا ونزولًا، ثم نبدأ بالهبوط عن السطح، كبرت الفرحة شيئًا فشيئًا حينما غرست بعض بذور الريحان والرازقي والجوري وفسائل النخيل والآس، كان الأطفال يثرثرون تارة ويتجمَّعون حولي تارة أخرى لمشاهدة الشتلات، كنت أقول لنفسي: قد حان الوقت لأبتسم. وبأن الحب سيملأ حديقتي، وستكون عيونه شموعًا في غرفتي وحول سريري.

أسرجتُ أحلامي الثرثارة لتتكلم مع الفراغ من سقف روحي، لَسَوف يناديني فأكون أول من يرتوي من إناء قدومه، سنكبر معًا ربما، وربما نكون شيئًا واحدًا في أحد الأيام. كنت أتوقف بين حين وآخر للراحة، لكنه مشغول، لم يحاول فهم لغتي حتى حينما وضع أقدامه لأول مرة في بيتنا الجديد، لم يكن راضيًا، كان يسير بخطى متمهلة ولم يُظهر أيَّ بوادر تدلُّ على امتنانه وإعجابه بما يرى، بدا مقطوعًا عن عالمنا، ففحوى كلماته لا يعرفُ معناهُ إلا قِلَّة من المقربين، علما بأني قد رفعتُ كثيرًا عن كاهله، راح يُجيل النظر إلى ما حوله:

– هذا ليس جيدًا، لكن...

قال أخيرًا وهو يمطُّ شفتيه.

– على الأقل دعني أسمع منكَ كلمة شُكر.

قُلتُ له.

لم يقل شيئًا سوى أنه غير لطيف، بدأ يسير مبتعدًا، وبدا غير راغب في الحديث، فدَاخَلَني شعور بعدم اهتمامه، وأنا أطالع بين أصابعي التي أكلها التعب والنَّفتالين والطلاء، وعاودَتْ شبكة القلق السقوطَ على أكثر الأمكنة وداعةً، ماذا يريد إذن؟ ما الذي يخفيه في دهاليز روحه؟ لماذا يُدخلنا في نفق الكآبة المظلم مرة أخرى كمن يحمل جنازته بيديه؟ لماذا أركض خلفه مثل طير يركض قُبالة صياده؟ وأنا أنتظر قدومه يومًا بعد يوم وساعةً بعد أخرى، وقد وافقت على العودة إليه وجئت بأقدامي، كيف يرضى أن يتسلَّل النشيج إلى صدور الأولاد المساكين ويُبعثِرُ كلما بنَيتُ؟ متى التفَتَ إلى أثوابي التي كانت تستغيث؟ متى أشعر بثوب الحماية والطمأنينة الفضفاض أمام هذا التوجُّس البشع، وهو يتمادى في اللامبالاة؟ كنت أتوقَّع أنَّ سنوات عمري اليتيم ستحيا على معجزة رحيمة، ستحبُّني، وترمي أَسْمَالها لتناجي نورًا جديدًا يعمُرُ كوكبي مرة أخرى.

لكني رغم يُفُوعِي كبرت على غرار جميع المُسنِّين، أطلي وجهي بما تيسَّر من المساحيق لأرمِّم زلزلة الحظ، وكثيرًا ما أنقذتني ونجَّتني من شراهة الأسئلة، أقول لنفسي: نامي، فالليل لن يُفرغ كل جِراره، الليل الذي أنبَتَ الثلج في قلبي ورأسي، أُحصي الأيام والساعات التي أصبحت طعامًا للعقارب، آهٍ منكَ! ستفهم بعد عمر طويل ما المرأة، وستفهم أن ليس بإمكانك أن تجعل الأمور كما تحب وتتمنى.

أخذتُ نَفَسًا عميقًا وقررت أن أكون متفائلة، إنني أعتزم أن يكون مستقبلنا سعيدًا، فقد كان أبي يخبرني دومًا عن مدى أهمية التفاؤل بالمستقبل، وهو على حقٍّ تمامًا، ولو لم نكن هكذا فقد تستنزفنا شراهة الدنيا ونغرق حدَّ العزلة العارية وتقتلنا رؤوس الموت والعمى، فحينما فقَدَ كثير عائلاتهم في التهجير وأبناءهم في الحرب، ورغم الصدمات الرهيبة، واصلوا الحياة. على كل حال، إنني بدأت في تكوين عالم خاص بي، جديدٍ، رغم عبث الريح الذي لا نشتهيه، عليَّ ألَّا أنظر إلى الماضي بل إلى الأمام وعلى الدوام، فلديَّ أطفالي وتلك المشاعر التي تُغرقني بالأمومة التي تمنح قِيَمًا ومعانِيَ أخرى للضوء الداخلي، وفوق كل ما حصل، كل الذي يهمني أن أمنح أحمدَ بعض السَّعادة رغم عُبوسه المستمر، كي يسترجع ما فاته، أجل يجب أن يشعر بالاطمئنان بعد قلق الدمار والحرب التي تتناسل سيماؤها على الوجوه، وما يزال لدينا كثيرٌ لننظر إليه.

كنتُ أدخل في ثنايا التفكير لأفوز بالترويح عن النفس، حتى لو كان سبيلي إليها حِيَلُ بعض الأساطير والخرافات، فبدونها لن أستطيع أن أعيش، ولأن كل الأفكار تُمهِّد لنا جسورًا للوصول إلى الراحة التي نريد. تعوَّدت أن أكون مَنجَمًا يتفجر بالابتكارات واختراع السَّعادة وسط البحيرات المالحة، لم أكن أريد أن أبقى نادمة على أيام قضيتُها بالآهِ وألوانِها، أو متحسرةً على أحضان أبي وأمي وطفولتي الرائقة، أو على

دراستي التي ضاعت مني، حين كنت ألبس أفخر الثياب والأحذية، حيث الترف الذي عشته في بيتنا الكبير، وحيث أنهيت دراستي في مدرستي التي تذكِّرني بطقوس الشتاء والدفء وأناقة المعلمات والمُدرسات، من (الإتيكيت) والتزامِ النظامِ حتى في ساحة المدرسة، كنت أفتح حقيبتي لأجد السندويتشات التي هيَّأها أبي لنا وما تَجُود به يداه، كنا نشتري الآيسكريم والبيبسي من الكُشك المجاور للمدرسة ونملأ القنِّينة بالحُمُّص كي نفوز بطعم غريب محبَّب إلينا، لذا كان عليَّ أن أتقبَّل كل شيء وأن أجعل الرضا يُمشِّط شعري، وأن أغرق في الأحلام للسيطرة على خبايا المصادفات.

لم أكن أتوقَّع سرعة الكشف عن صورته المُتخثِّرة بلا استحياء، فقد تساقطت الأقنعة واندَاحَ لسانُ التعَقُّل في حِسٍّ ذكوريٍّ آمِرٍ، حينما ألَحَّ على تشغيلي في أحد المصانع الأهلية الشعبية لصناعة المُخلَّلات في أثناء ساعات الليل، وأن أعود في النهار لإكمال أعمال البيت، كنتُ حينها أضع طعام العشاء على الطاولة، دخل مُستجمِعًا كل قواه المعنوية، وبكل ثقته المستمَدَّة من أناقته التي صنعتُها بيديَّ، حتى تحوَّلت الغرفة إلى ساحة حرب في المنزل لأتلقَّى منه غريبَ الأوامر، قضيت فترة طويلة أتأمَّلها وأعجب من قدرته على فرض اللا معقول، وقدرته الفائقة على الإقناع باللا منطقي، والجمع بين إذلالي وهيمنته للدلالة على سيطرته، في لفظ واحد قال:

– تَهَيَّئِي غدًا مساءً للذهاب إلى العمل، فقد وجدتُ لكِ عملًا جيدًا، خيرًا من جلوسك بالمنزل بلا فائدة، وتعودين قُرَيب الفجر.

– ماذا؟!

كانت الحادثة غريبة تثير التساؤل، البدايات سيل جارف من القِيء النَّتِنِ والادِّعاءات الكاذبة، وأنا أصغي إلى إيقاع صوته كمن يُصغي صاغرًا من عمقه الداخلي، كان كلامًا مخيفًا وعنيفًا. كرَّرت سؤالي:

– ماذا؟

– ماذا؟ ألم تسمعي؟ نعم تعملين. وما العيب في ذلك؟

– كيف تسمح لنفسك أن تعمَلَ زوجتك خارج المنزل ليلًا في وجودك؟ وما عملك أنت؟ أنسيتَ أنني حامل وعلى أبواب ولادة؟

– وماذا يعني؟ كل النساء تعمل!

– أجل، يعملن في النهار وليس في الليل مع الرجال. وأين؟ في محل شعبي لبيع المخللات؟ أجُنِنت؟ ألَا تستَحْيِي؟ أهذا منطق إنسان عاقل يَدَّعي الشرف؟!

– هِيّ.. هِيّ! على رِسلك!

– كيف تكلمني بهذا المنطق؟ كيف؟ ولم لا تعمل أنت ما دام يعجبك العمل؟ ماذا أنتظر منك بعدُ؟ أنت تُتحِفُني يومًا

بعد يوم...

- كفى.. كفى!

- كفاكَ أنت! كفى استهتارًا بقيمتي وكياني يا بَعلِي، أليس الرجال هم القَوَّامون؟ فإن لم تفهمها أشرحها لك.

- سأصبر عليكِ إلى حين تفكرين في الأمر.

- عجيب أمركَ! لا تَأمل.

آه من عجائب الدنيا ومفارقاتها! كان كل مرة يثبت أنه لم يكن رجلًا حقيقيًّا، إنه خرافة، يتقمَّص العَظَمَة بين الشخصيات، فيؤمنون به لدرجة اليقين، ولم يتعرَّفوا على الحمار الذي بداخله، لقد سلَبَني حتى حقي في القرار، ثم يندهش ويتساءل حينما أرفض! أنا حامل في الشهر السابع في طفلي الثالث يا رجل!.

ما زلت أتذكَّر نوبة الهستيريا التي أصابتني حينها، ولكن يتستَّر وينزوي كما النعامة في الأرض بين الأعيُن، كنت أستشيط حينما يبرِّرُ أسبابه كي يستريح ضميره بأعذار مختلفة لا تدركها الظنون.

أصبحت ألتمس الأعذار لهذا المخلوق، بسبب شعوره بالقلق والتوتُّر خلال وجوده في الجبهة بين المقاتلين، بل أدعو الله أن يحفظه لشبابه وأولاده وليكنْ ما يكون، ليس مهمًّا أن يقدِّم لي خدمة أو يهتمَّ بي، فقد أصبح لديَّ أطفال بحاجة إلى رعايتي، حتى إني لا أتحدث له عمَّا حصل لنا فترة

غيابه حينما يعود في الإجازات، وأتنهَّد في صبر، فأنا لا أتوقَّع أن أرى تغييرًا منه في حياتنا، لم أتذمَّر رغم صعوبة الأمر وكثرة الاحتياجات، إلا أن عليَّ أن أصمت وأن أعمل حتى لو اضطُررت إلى العمل لإعالة أولادي.

في البداية كان يبدو لي حلمًا بريئًا تمامًا، حلمت بأن الطفلة الصغيرة التي تلعب وتلهو في الحديقة ستعود، وفي الحقيقة كانت أيام الحلم قليلة ولم يهدأ مطر المرارة ونحن نبدأ سيرنا في الشارع الجديد، ويبدو أني قد تسرَّعت بالموافقة على السير، على أني كنت أُفضِّل الخطوات المتمهِّلة، ولكنه قد يكون سوء الطالع أو الإرباك الذي شَابَ عيوني وأحاسيسي.

كان شيء يتحرك كالظُلمة حول قدمي ويزحف إلى سمائي، ثقيل متورِّم مراوغ، يتحرك حول زجاج النوافذ، أعرف أن أحلامي كانت كثيرة، لكني لا أتذكَّر الآن شيئًا منها، فقط أتذكَّر أني تركت اهتماماتي ورائي لأهتم بأحمد والصغار، كان ينبغي عليَّ أن أجعل نفسي مِثل حجرٍ مضطرٍّ، لا أرى ولا أسمع ولا أتكلَّم، من أجل عدم رؤية وسماع تفاهات الحياة الباهتة، وربما لم تكُن هكذا لو أنني هممت بالخروج من صندوق الحطب لأجمع أوراقي المتناثرة، ثم ألملمها بحذر، لأضعها بترتيب واحدةً تلو أخرى في ملفٍّ كي أتأمل فيها أشيائي المتفائلة، وهي تنفع علاجًا لجميع موجات الكآبة والإحباط والعُبوس الذهني، فمجرد النظر إليها سيجعلني أتجاوز الجمر المتوهج وأتطلَّع إلى قلوب أطفالي الناصعة.

غالبًا ما أجد نفسي أسترجع وجه أحمد كما رأيتُهُ في تلك الظهيرة ونحن نستعد لمائدة الغداء في البيت، حين شاهدت على صدره أحمر الشفاه، من دون أن ينتبه لذلك، إذ شدَّ انتباهي صدره العاري الموشوم بقبلة حمراء تحت سطوع أضواء الظهيرة الصارخة، سألتُهُ:

- ما هذا؟

أخذ يمسح صدره بعجلة مذهلة قبل أن يردَّ على سؤالي، بقيت صامتة أنتظر ردَّه، طيلة الوقت، لا أعرف ماذا أقول من هَول المنظر، تسمَّرتْ الكلمات في حَنجرتي، اِمتقعَ وجهه بلون بالغ الصُّفرة، طأطأ جفنيه، وبلا تردُّد قفز وترك الطعام وغادر المنزل. هل تبدَّد حلمي ومخططاتي؟ طَفَرت الجمرة من عيوني إلى قمة رأسي، وبدأ دخانها يتصاعد ويمتزج ويصنع دوائر ممتزجة متداخلة أصابتني بالدُّوار، حاولت أن أشغل نفسي ببعض الأعمال، توجَّهت لغسل الثياب في غسالة الملابس، وبلحظة واحدة فقط وجدت قُبلة أخرى بأحمر الشفاه على قميصه الناصع من الخلف، مع أنه لا يوجد فيه أي شائبة غير تلك البصمة المميزة، جفلتُ، ارتجفتُ، اِرتَجَّ كياني لمَّا افترشت القميص، بدت كبقعة متوهِّجة في قبوٍ داكن، تيقَّنتُ أني مخدوعة طيلة الوقت وأنه قتلني للمرة الثانية، كانت هناك امرأة تقف في الظِّلِّ، كانت تكبُره سنًّا، ولا أعتقد أني كنت سأشُكُّ في شيء لولا تلك العلامات في تلك الأثناء، إذ لاحظتُ أنه منذ انتهاء الحرب والتحاقه بالوظيفة

كان يتجمَّل ويضع أفخر العطور ويتأخر عن عودته مُتعلِّلًا بعدة أسباب، من دون أن أنتبه لوجود امرأة في حياته، غريب! لم يمرَّ على عودته للوظيفة سوى أشهر لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

حين أستعيد الأحداث أرى مدى وضوح سبب مُكُوثه خارج المنزل لساعات طويلة في تلك الفترة، وأحيانًا يبيت خارجًا ويعود عند الصباح لتغيير ملابسه ثم العودة مجددًا، وبكل بساطة كان ينتظر اكتمال بناء البيت على قطعة الأرض التي أملكها، وفي أثناء ذلك الوقت كان يؤيِّد بصورة تامَّة ضرورة الإسراع في إتمام البناء بصورة حازمة وعاجلة، كنت فَرِحةً بذلك لأنني تصوَّرت أن ذلك لأجلنا، وأنه سوف يُريني إياه في أقرب فرصة سانحة.

أستطيع أن أرى الآن بوضوح كم كان ذلك الموقف بسيطًا وتقليديًّا للطريقة التي واجَهَ أحمد بها هذا الموقف الصعب، وبكل بساطة في تلك الليلة، وفيما أنا أتهيَّأ للذهاب إلى الفراش، قلت في نفسي إن عليَّ التحدث معه حول الموضوع، وكنت أشعر بضرورة قيامه بتوضيح موقفه أمامي ليدافع عن نفسه، فقلت لروحي:

يبدو أنني لن أقطف
عناقيد الأحلام
ولن يغلق باب التعاسة

والقلق الصديق
لن أعبُر وادي الدموع
كلما يعتريني
الرجاء
يتراءَى سراب.

كان الوقت متأخِّرًا، جاء مُتعَبًا جدًّا، وأيُّ محاولة للحديث معه تُفقدُه صبرَه، وفي كل الأحوال لم يكن الوقت ملائمًا لنا لمناقشة هذا الأمر بسبب نوم الأطفال والوقت المتأخِّر، وربما تعمَّد ذلك كي لا أخوض في تفاصيل الحدث، شعرتُ بالغثيان حينها ولا أعرف لماذا، وبدافع قوي يدفعني إلى القيء بدل الحديث، لكني رغم غليان صدري تمالكت نفسي وقلت بهدوء:

– ما معنى الشيء الذي رأيتُهُ منقوشًا على صدرك؟ ولماذا لا تواجهني؟ لماذا تتهرب؟

– إنه ليس بالحدث الذي يستحق كل هذا الاهتمام.

– ماذا؟ بل هو كبير بالنسبة إليَّ وإلى كل امرأة. بالطبع أنت تقوم بعملك على أحسن وجه في الوظيفة بوجود المتعة. أجل، الآن عرفت سبب وقوفك أمام المرآة ساعاتٍ في وقت مبكر قبل الذهاب إلى العمل، كم أنا ساذجة حينما فكرت أن هذا ليس بالشيء غير الاعتياديِّ!

هزَّ كتفيه:

– حتى لو رأيتِ ذلك فَكَذِّبي عيونك، إن ذلك لا يعني أني على علاقة أكيدة، ولكني أتذكَّر أن المدير قد طلب إليَّ جمع بعض الرمَّان والحمضيات من الحديقة، وقد احتكَّ قميصي بشجرة الرمان من دون أن أنتبه لذلك.

– أعتقد أنه يثق بك ثقةً كبيرة، كيف لك أن تخدعني؟ وكيف تتوقع أن تسير الأمور لاحقًا؟

– إنها ليست بالشيء البالغ الصعوبة والأهمية لتفكري فيه.

– على كل حال عليكَ أن تنُهِي هذه اللعبة، لقد مضى عليكَ عدة أشهر منذ أن بَدَأْتَها.

– لا تشغلي بالك، فأحيانًا يُختار أشخاص ويُفَضَّلُون مع أنهم يفتقرون إلى مؤهلاتكِ وقدراتكِ وحنانكِ، عليكِ ألَّا تسمحي لهذا الأمر بالتأثير عليكِ.

– وما الذي تريده.. مِن اللهو والركض وراء المتاعب؟

في الحقيقة كان كلامه هذا عبارة عن مُخدر ومَخرج للهَرَب من الموضوع، فما زال يمارس الخطأ نفسه، وتمامًا كان على عكس ما يقول! كانت أمي كلما تراني بوجهي النحيل وشُحوب لوني تسألني وأدَّعي أنني بخير، أستطيع أن أتذكَّر الآن الساعة التي اتَّصلَتْ فيها إحدى الموظَّفات لتخبرني بأنْ آتِيَ مسرعة إلى مقرِّ عمل أحمد، لتُطلعني على خبر ما، وكان سببًا كافيًا

لمعرفة ما كان يخطط له مسبقًا.

وصلتُ، أشارت إليَّ الفتاة بأن أفتح أحد الأبواب المغلقة، وفتحته على حين غفلة، تفاجَأ، انحصرفي زاوية لا مَخرج منها حين أمسكت به متلبِّسًا بالفعل الفاحش مع عشيقته سيئة السمعة، اِنتفضَ واقفًا حينها وأراد التبرير للخروج من المأزق بعد أن قامت عشيقته لتقف بجانبه، قال بعصبية رافعًا يده مُتَهَيِّئًا لضربي بسبب مجيئي، تداركَتْ هي الأمر وقالت له بهدوء بعد أن خفضت يده التي رفعها أعلى من رأسي:

– خذها إلى البيت.. تفاهَمَا هناك.

– ما الذي جاء بكِ إلى هنا، ها؟ ماذا تريدين؟

– هه! معذرةً على تَطَفُّلي عليكم، وإقلاقي راحتكم، كيف لكَ عين تبصرني؟ ألا تخجل من نفسك؟ ما هذا الهراء؟ ماذا أصابك؟ عجيب أمركَ! أمعقول ما يحدث؟ ماذا أرى؟ حقيقة أم خيال؟ عِلم أم حُلم؟ فَهِّمني!

غامت الدنيا والأشياء كلها، انتابني نوع من الإغماء، وقبل أن يكمل كلامه استدرتُ مهرولةً باتجاه الباب الخارجي، أبكي، وكل أجزائي تبكي عليَّ. ركض خلفي:

– انتظري انتظري.. لا تركضي! ما بالك؟ تمهلي، أرجوك! ليس هناك معنى لفعلتك هذه، لماذا تركضين؟

لم أكن أعرف وقتها لماذا ركضت، كأني أهرب من كابوس، كنت أشعر بأن صخرة كبيرة جثمت على صدري منعت الهواء

عني، تمنَّيتُ وقتها أن يكون حلمًا غَثيثًا لم يَنتَهِ بعدُ، لا أعرف إلى أين أتَّجه، لا أرى أين أتجه، لا أرى شيئًا أمامي، أهو العمى المؤقت الذي يحدث عند الصدمة؟ ربما.

قادتني خطواتي إلى بيت أهلي فدخلتُ صارخةً منهارةً بأحضان أمي وهي فاغرة تتساءل: ماذا حصل؟، دخل بعدي بلحظات، فَضَجَّ استياء أمي احتجاجًا على ما أصابني، ارتعدت فرائصها، وبغضب قالت:

– واجِهني أنا واتركها، ما الذي فعلْتَهُ بها؟ ماذا حصل؟ لك الويل مِن غبيٍّ أحمقَ! إنك على الدوام تحاول إخفاء خُططك بملاءة العفويَّة والبراءة...

حينها أخذتُ أهذي وأقول لأمي «رأيتُها جالسةً بحضنه وغائِبَيْنِ في القُبَل والأحضان والفِعل السخيف». وواصلَتْ أمي كلامها ملتفتةً إليه:

– أأصابك الجنون يا أبله؟! أَبَعدَ كل هذا الدلال ولذائذ العيش التي وفَّرَتْها لك تخونُها وتلعب بها؟ ألَا تستحْيِي من نفسك؟ إلى متى تدبُّ كالحيَّة تحت جلدها وتؤذيها؟ ألَا تخجل عينك من أبيها ونِعَمِهِ وأفضاله؟ ألَا تذكر ذلك؟ ألا تذكر كيف احتضنَّاك ومنحناك الرعاية أنتَ وأطفالكَ؟ ماذا تريد بعد كل هذا؟ هل تتصوَّر أنَّ الأمر لا ينكشف؟

– شششش اسكتي أنت! لا تحشري نفسكِ بيننا.

– ماذا تريدُ بأفعالك الخسيسة تلك وحماقاتك؟!

– قلت لكِ اسكتي!

– سنينَ طويلةً تلهو وتلعب ترويحًا لنفسك من عناء العسكرية، وهي تحمَّلت كل الأعباء، هل ظننْتَ أنك تتأرجح عليها العمر كله؟ انكشَفَ كذبك وهراؤُك وظَهَرَ وجهك الحقيقي، أنت رجل غير مسؤول ولا تبالي، وهي صفةٌ، طبعٌ، أَتَرانا غافلين عنك وعن تبريراتكَ واستغلالك لها؟ ماذا قدمت لها؟ ماذا أضفت إليها؟ ماذا تبتغي جرَّاءَ عملك هذا؟ ألستَ أنت زوجها والمسؤول عن رعايتها وحمايتها وتوفير الحياة الكريمة لها؟ أين وعودك لنا؟ إذن أنت تكذب للتسلُّل على أكتافها. اِذهب فهي ليست بحاجة إليكَ، فأنت لم تُشعِرها بالاهتمام يومًا، ولا تَنسَ أن تأخذ أولادكَ.

– قلت لكِ اسكتي!

كانت أمي تتكلم بعصبيَّة وبصوت مرتفع حتى بَدَا هو مندهشًا حين قال:

– قد يكون الأمر مناسبًا تمامًا بالنسبة إليكِ فلطالما كرِهْتِني ولم تَهْوَيْ زواجنا منذ أول يوم، وبالمناسبة.. أنا لا أطيقكِ أيضًا.

– أجل، لأني عرفتكَ منذ أول يوم بل من أول ساعة، اترُكها واذهب ولك الدنيا أمامك افعل بها ما تشاء، ولا يهمُّنا، يُوَلِّي كلبٌ أسوَدُ ويأتي كلب أبيضُ.

اِنهارت أمي ونَهَرَته وتفتَّقَت حنجرتها عن أغرب

التوصيفات في موقف تَراءَى لي، بل تَيَقَّنْتُ أنها نهاية رحلتي معه، وهو يواصل التحديق إليها وأَمَارات الاستياء مرسومة على وجهه. وما كادت أمي تتمُّ كلماتها حتى وثبَ وعيناه تتوقَّدان كأنهما جمرتان، واستدار ليخرج:

- لِتُبقِيها عندك!

كنت أحسب أنه قد دنا أَجَلُه، حين استمر على صمته وإطراقه لا يَفُوه ببنت شفة، وقد يكون متصنِّعًا الهدوء، لا أعرف. وربما رأى أن الدفاع عن نفسه لا يُجديه شيئًا لأنني رأيته بأم عيني، لبثنا أنا وأمي صامتتين برهة طويلة، قلت لأمي:

- لَطالما أحببتُهُ، وانتظرتُ مجيئه.

- أعلم ذلك، وأعلم أنه لا يحبكِ.

- ليذهب كل الرجال إلى الجحيم! إلا مَن عَرَف معنى الرجولة والعفَّة والشهامة.

ثم عاودنا السكوت والإطراق.

رفعَتْ أمي رأسها ونظرت إليَّ نظرة مِلؤُها الأسف والحزن، وقالت:

- مهما يكُنْ من الأمر فعلينا أن نصبر.

- لا أستطيع بعد ذلك صبرًا، لقد انتزعَ مهجتي من أحشائي.

قلت ذلك وأنا أحاول كِتمان وَجْدِي المستعر ولَظَى هُيامي،

ثم عَمَدْتُ إلى النهوض للذهاب إلى بيتي والأولاد رغم إعيائي وكبريائي المجروحة، فقد قذف بي إلى تيار من وراء صخرة.. لكنه لم يعُد.

كان بإمكانه الخروج من هذا المأزق الذي دمَّر الانسجام المؤقت، فهناك أمور بإمكانه فعلها، أبسطها هو ألَّا يترك أمامي ما يثير الشك، لكنَّ من الواضح أنه كان يعتزم أن يقلب حياتنا إلى جحيم ويرمينا من دون عناء، كان يريد الارتماء في أحضان الثُّمالة، ولكن بماذا يفيد الندم؟ فحينما يُسكَب الماء على الأرض ليس بإمكان المرء جمعُه، بعد أن كشف نفسه وفقد توازنه الذي كان عامدًا به إلى التنصُّل والتجاهل، وكما قال العرب سابقًا في الأمثال: «أول الغضب جنون وأخره ندم».

ويبدو أنه غير مدرك لفعلته الدنيئة، وللحظةٍ توقعت أنه سوف يعود إلينا وأنه يمكن إصلاح ما انْكَسَرَ، لكنه التقط عَصَاه وغادر من دون أن يتفوه بكلمة وبلا تمهُّل.

كان خبر زواجه قد تسرَّب بين الناس قبل أن يُكشف لي، فقد سألتني إحدى جاراتي وهي مارَّة:

- لقد رأيت زوجك يخرج من بيت (كفاح)، هل انتقلتم إلى هناك؟ ما الأمر؟

كنت أحملق إلى سؤالها الذي فاجأتني به كقطة ضالَّة، ألهَبَ الخبر جمجمتي، تجمَّع كالصاعقة على رأسي وقلبي،

فالجميع يعلم إلا أنا! وقد ظهر أني نائمة ورجليَّ بالشمس، آهٍ.. كنت مصابة بداء اللهفة! المرض الذي دام سنين لا تُحصى ولم أتخلص منه إلَّا بعد عناء، أَجتَرُّ الوجع وأنظف دربي المسدود. لكني تَيَقَّنْ أني سأتركك لعيونكَ الضيِّقة التي تتوسَّل الموائد الفقيرة، ستتأمَّلني وتتألم، وسأدع شوقَكَ يؤنبك، فما عاد فضائي يحتمل دخان أنفاسك المتسخة، تردَّدت قليلًا قبل أن أردَّ عليها:

– كلا.

– حسنًا، فقد ظننت أنكم انتقلتم إلى سكن جديد، حسنًا فعلتِ فمنطقتنا جميلة وهادئة.

– أجل.

وفي الحقيقة كانت هذه الحالات تثير شجوني وتؤجِّج شعور الحنين، وفي يوم، بعد مرور أكثر من أربعين يومًا، دخل البيت على حِين غِرَّة كفأر هارب، اِندفعَ إلى غرفة النوم بلا سلام ولا كلام، وظلَّ حتى المساء. لماذا أتى؟ هل اهتدى تفكيره، أم ما زال يبحث عن حرث جديد؟ وَجَمَ، ثم عَبَسَ وتوجَّس، قام وجلس، ثم كرَّر ذلك مرة أخرى، وهو يُلقي نظرة بين حين وآخر على التلفاز، أراد أن يُظهر لي حنقه، دار الوقت ولم يتفوَّه بشيء ينقذ به زرعته المعطوبة، لم يتطرق إلى غيابه الذي استمر لأكثر من شهر في ذلك الوقت، بالنسبة إليَّ رُحت أُنصت بتركيز لأي صوت قد يأتي منه أو من غرفة

الأولاد.

ولكنه وقف بعد خطوات، بعد فترة من الصمت والوجوم الذي ساد بيننا، أرسل زفرة من صدره ورفع عينيه إلى السقف، شقَّ قماش السكوت بنبرة فجَّةٍ وأنا أختلس النظرات إلى ملامحه القلقة المضطربة:

– بدون مقدمات، أريد أن أخبرك أنَّ هذا فراقُ بيني وبينكِ، ليس لديَّ رغبة في الاستمرار معكِ، الحياة أصبحت معكِ مستحيلة فأنا أراكِ كخنزير برِّيٍّ قبيح ولا أشعر بالرغبة في الاستمرار معكِ.

نظرتُ إليه، فلم أَرَ نفسي في مرآة عيونه، لا أرى رغباته المحمومة، غَيرته، تشدُّقه في بهاء جسدي الذي كان يشعُّ في أرجاء روحه. قلت:

– أهذا أنت الذي تتكلم؟ حَسبُكَ أولادك غبطةً ونعيمًا. لكن، بارك الله فيكَ وعليكَ وحوالَيْكَ ونِعْمَ الأب أنت! وما عساي أن أقول لرجل أصبح في عداد الأموات، ويرى في الهلاك أقصى الآمال؟ سبحانه جلَّ وَعَلَا هو يعلم وغيرُه لا يعلم، أَوَتَحسبُ أنك فاعل خيرًا لنفسك؟ لا بد أن الخدمة العسكرية أصابتك بلوثة في عقلك.

تضرج وجهه من فرط الخجل، فقلت:

– لقد عزمتَ على الذهاب. ولكن ها أنا أقول لك إنه لا فرصة أخرى لزيارتنا، وعليك أن تنسى أن لك أطفالًا.

رفع بصره إلى السقف وفي عينيه رجاء، ولعله لم يُصدِّق كلمة واحدة مما قلت بشأن الأولاد، لكنه قال:

- أجل، أعرف.

كنت في حَيرَة في أمره، لا أدري ما سبب تشدُّده وإصراره، وما سر هذه العلاقة الشاذة المستغرَبة. حتى عرفت ما كنت أجهله، راحت أنفاسي تلهث في جوٍّ خانق، ولم ألبث أن شعرت باضطرابٍ عصبيٍّ، ففضَّلْتُ التوجه إلى مكان آخر لأستريح، حتى أمسك بذراعي وقد عَرَاه الخوف. قلت:

- ماذا جرى لكَ؟ أراكَ مصممًا على وجهتك. أهكذا بكل وقاحة تقولُها في وجهي؟ لماذا؟ والأطفال ما ذنبهم؟ ألا تفكر فيهم؟ ألا تشعر بالخجل من نفسك؟ أنسيتَ كم ألححتَ على الإنجاب؟ عليكِ بالإنجاب، عليكِ بالإنجاب! وتُحمِّسني بقَالَ الله وقَالَ الرسول.. أنسيتَ؟ وها قد رزقنا بالأولاد، فما العذر الآن؟ لماذا مُصِرٌّ على خراب البيت؟ ماذا جرى لكَ؟ ورغم أن الخطأ رَكِبَك من فوق إلى تحت، كنتُ أنتظرك طويلًا كي تكون معنا بعد انتهاء الحرب، وها أنت تتركنا للضياع.

أرجو أن تسمعَ صوت العقل، مَن تلك البهيمة التي أغوَتْكَ وتريد أن تمخُرَ عُبابها؟ عجيب! كنت أنتظركَ لتحتوينا لكنك لم تفهم، تجرَّدت من قداسة الأبوَّة والرأفة، تجرَّدت من صلة الرَّحِم والشفقة. خططك لم تكن سوى مُزْنَةِ صيف كلها تبخرت، غاصت في قلب السحاب. أيها النَّكِرة! هل تظن

أنني أستطيع أن أتحدث إليك؟ أنا لا أكاد أصدق!

أصابنا عصفُ المشاجرة، تناثرت شظايا الكلام بيننا، بين عِتاب ولوم وتَرَجٍّ وبين تفقيس قلبه المليء بِبُيُوض الخِسَّة، وقد أدار الظهر والقلب معًا، تركَنَا إلى عواصف الرزايا، والبلاء الذي تفر منه النفوس.

وفي تلك الأثناء شعرت بأن لهيبًا يجتاح معدتي ويصعد إلى حلقي، وإذا بماسورة قيء تنفجر من فمي ملأت أرضية المكان في كل ناحية، ولم أتمكَّن من إيقافه، أتذكَّر الآن تلك الدفقات الحامضة وهي تهرس جوفي وتخرج كاللهب إلى الخارج، أحسست أن نهايتي قد حانت لا محالة، تجمَّع الأولاد حولي وهم يصرخون «ماما.. ماما...». كان يتفرَّج متنهدًا بنفاد صبر، يواصل طعامه غير آبه بما يحصل، لم يظهر عليه أي تأثُّر، وبدون وعيٍ مني سقطتُ مغشيًّا عليَّ.

كنت أسمع توسلات أدهم وهو لم يتجاوز تسع سنوات حينها، وهو يقلِّب وجهي يَمنةً ويَسرةً كي أصحو، وزفير الرعب مزَّقَ صوته، ثم صرخ بوالده:

- بابا انهض.. أنقذ أمي، بابا أمي ماتت! ماتت!

كان يعتبر نفسه معصومًا من الخطأ، ومع ذلك لو أراد أحمد.. لو خطر على باله.. لو التفَّت نظراته مرة بخواطري.. لتفتَّح قلبي عن فيض مفاجئ، فيسقط قلبي بيده، كما تسقط الفاكهة الناضجة بمجرد أن تمسَّها الأيدي. بَيْدَ أن

الأمر كان يجري على النقيض من ذلك، كان حديث أحمد سطحيًّا، فلم تُثِر انفعالاته وضعي المأزوم حتى عجزت عن تفسير سَكِينته الناعمة، ألم يكن من الواجب أن يعدِل عن رأيه أو يتريَّث على الأقل، أن يُبَصِّرَني بخباياه؟ ولكنه على العكس من ذلك، لم يخبرني ولم يطلعني على شيء، كنت أجزع من سكوته الخامل وركوده المطمئن.

غبت تمامًا ولم أسمع أي صوت، فتحت عيني متثاقلة بعد غيبوبة استمرت نهارًا بعد ليلة بكاملها، وجدت نفسي في الطوارئ، جاء وتوقَّف بجانب السرير ليقول:

– ما الذي تنوين فعله؟ هل تريدين أن تفضحيني؟

تجاهلتُ حديثه، جلست ببطء، رفعتُ يد أدهم الذي جلب لي بعض العصير، ارتشفت منه قليلًا وهو ينظر إلى خارج الغرفة، فيما أدهم واقف بين يديَّ، نظرت عبر النافذة إلى السماء رأيتها شاحبة كأنها ترثاني وتوصيني: تَجَلَّدي.

كم شهدتُ في حياتي من أحداث ووقائع، منها الصغيرة ومنها الكبيرة، إلا أن هذا اليوم كان مهمًّا بالنسبة إليَّ؛ يومٌ نُقش على صفحة ذاكرتي لن أنساه ما حييت، شعرت حينها بأني اقترنت بأكثر الرجال وحشيَّة، رأيتُه مخيفًا عاريًا أمامي، مُتْرَعًا بالاضطراب النفسي والبدني، حين كشف وجهه الصَّلِف، إذ انقلب ذلك الفقير البائس فجأة إلى مخلوق مزعج، لا يشعر بالخجل والعار لأفعالٍ ارتكبَها، يتلذَّذ بتعذيب

أقرب الناس إليه، لقد صفعني صفعة أفقدتني توازني، لم تعادلها كل صفعات السجن والتعذيب التي لم تصل إلى كسر روحي وكرامتي، لكن تلك، وصلت إلى أعماقي وخطَّت على يدي شاهدَ موتي وأنا معافاة، لم تُسعفني كل الأقلام لوصف ما انكسر داخلي، اشتعلتُ بغيظي وغضبي، شعرتُ أن الأشياء تسخر مني، حين أمطر عليَّ وابل شروره وسمومه، لكني فتحت عيوني بعد فوات الأوان، كنت واثقة به بشكل أعمى، وإلا كيف اِنطَلَتْ عليَّ أكاذيبه؟ فهل عليَّ أن أبقى هكذا لأكون زوجة صالحة بين النساء؟ يا آلهي! لماذا تزوجتُ؟ لماذا اقتصرَتْ المصادفة عليه؟ تمنيت في تلك اللحظة أن أبصق في وجهه، قذفتُ الغطاء وقمت مسرعة مصطحبة ابني.

ألقيتُ بنفسي في كنبة السيارة الخلفية، حين وصلتُ إلى البيت فتحتُ تيار الماء لأنظف الأرضية وأنا أتحدَّث مع نفسي، لماذا هذا التشدُّد على نفسه؟ ما أزال غير مصدقة ما يجري، فقد أطبقَتْ على الفضاء زوبعة مُزمجرةٌ سوداء، أسكتَتْ أنفاس الهواء، وراحت أنفاسنا تلهث في فضاء مكتوم وجوٍّ خانق، ولم ألبث أن شعرت باضطراب عصبي محموم ففضَّلت الذهاب إلى فراشي لأستريح، ولم يَكَدْ يراني أهِمُّ بالنهوض إلى السرير حتى أمسك بذراعي وقد بدا عليه الخوف، وهو يُخفي يديه تحت ردائه. صاح:

– إلى أين؟ اِجلسي قليلًا.

– أعصابي منهارة، وصدري منقبض. ماذا تريد؟

– لكني الليلة أراني مندفعًا للحديث، على الرغم مني، أريد أن أُكاشفك بما حصل، بأن قوة مجهولة تأتي المرءَ منا فتسلبه إرادته بسهولة، فنلجأ إلى إخفاء أسرارنا وكتمان خوالج شعورنا، وهو أمر يلُوح لنا جميعًا، قاسٍ وسيِّئ، فظيع النتائج، سألتُ نفسي كيف حدث هذا، لم أجد جوابًا، أشعر أن تخديرًا يسري في أعصابي، كأني تعاطيت مخدِّرًا أو مُسْكرًا، أحسبكِ غيرَ مصدقة ما أقول.

فوقفتُ مبهوتة من كلامه، خِلتُ أن الجدران تتحرك، والسقف يدور، قلت:

– كفى! كفاك كذبًا. كفى كفى لا تستهن بمشاعري!

أخذتُ أزداد نحولًا وشحوبًا، خدَّاي يتهدَّلان، ووجهي يستطيل، كنت كأني أجتاز الحياة وأعبرها من دون أن ألمسها، كنت هادئة رغم حزني وحظي التعس، كنت في الأشهر الأخيرة، قد شعرت أن ما يستعر بداخلي من مشاعر ووُدٍّ، لن يستقر إلا حين يرسو قاربه فوق سطح مياهي، أشعر أن كل ما بداخلي جزء منه، مسافر عاد لوطنه، غريب وجد داره وأهله، قطعة مني مرضت ثم شُفيت وعادت كما هي، كنت حينما تخمد ثورات جسدينا في هدأة الليالي، وتهمد حُمَّى المنازلات والتشدُّق؛ أسمعه يهمس بصوت ذي بحَّة سحرية بفحيح دافئ يلامس أذني، أسمع عبارة: «دوَّختِنِي

أيتها الأنثى الناصعة». يقولها بسحر خالص وقد أسبل عيونه على خلايا بشرتي، فأذهب معه إلى أفق بعيد، ثم أهبط على بساط سماوي إلى دفء المنتهى.

تعالَي إليَّ إنانا المقدسة
أن تنزلي وتأخذيني
مِنِّي
مِن أرض النحيب
والظلام
إلى السماء
قولي قرارك الفصل
خذيني، عشتارُ المقدسة
ليُدِرَّ ثدياك المحبة
لا تتركيني
على مثلبة الانتظار
أنا في عَماء مخيف
لقد ماتت الفصول
مات الزرع، مات الوقت

وعين الغد

أغمضت في مياه آسنة.

(٣)

كان يتراءى أمامي رأيَ العين، كأخر عهدي به، مديدَ القامة، باديَ النشاط، غريب الأطوار، يبدو مقوس الظهر، أتذكَّر نظراته الملعونة، ولعلِّي لم أصدق كلمة واحدة مما كان يزعم، لا يشغل نفسه بشيء سوى طمأنة نفسه الضائعة عن وجودي، غائب عني رغم احتراقي عن آخِرِي، حين يراه الناس يظنون أنه مُدَّخِر لمكامن الطيبة، رَنَوْتُ إلى المِرآة، فإذا بِي قد كبرت وتغيرت، وقد اشتعلَ رأسي شيبًا، ذبلت غَضَارتي، رغم ذلك رفعتُ عين الرجاء إلى السماء.

عام مضى ونحن نفقد العائل والنَّصير، ولا عجب أنه طبَّق سُنَّة الله ولن نجد لِسُنة الله تبديلًا، وبحلول آذار ١٩٩٣م كنت مسجلةً على قيد المطلَّقات غيابيًّا.

كنت مضطرة إلى قبول الطلاق، مذعنة لأمره، خاضعة مستكينة له، لأنه فَرض عليَّ بدون إرادتي طلاقًا تعسفيًّا، حاول القاضي تأخير وتأجيل الجلسات أكثر من مرة بلا جدوى، لعدم موافقته على تصديق قرار الطلاق كوني ما زلت صغيرة ولديَّ حفنة أجساد.

لم أكن أتوقَّع أبدًا أنه سيأتي يوم كهذا، حين وجدت نفسي أمامه في المحكمة مرة أخرى، وحيدة مشوشة الذهن لتلك

الدرجة، وهو أفَّاك بطبيعة تبدو ناصعة البياض، كان ماهرًا في مسح بصمات الريبة خلف ابتسامته الصغيرة وشخصيته المثيرة للإعجاب، فقلت للمحامي حينها:

– سحقًا له ولكل من شاكَلَه من الرجال الخونة الذين لا وفاء لهم ولا حفاظ معهم، الذين لا يرعون عهدًا، ولا يحفظون ذمَّة، آه لو مكَّنني الله لأعددت لهم نارًا موقدة، لأقذفهم بها جميعًا ولا أستثني منهم أحدًا، بعد أن أبصق في عيونهم، هؤلاء المنافقين، الذين يُظهرون خِلاف ما يضمرون، ويقولون ما لا يفعلون، لا يحسنون غير الرياء، يجرُون وراء كل سواده كالكلاب، يختلسون النظر بأطراف ذيولهم، ويختبؤون كالجرذان، ثم يلعقون أقدامنا ويستَدِرُّون قلوبنا للصفح عنهم، حتى يذوقوا حلاوة الوداد، فيعودون وينقلبون غِيلانًا علينا ترمي بنا إلى الجحيم.

فقال:

– لا فائدة من هذا الكلام يا ابنتي. تحلَّي بالصبر، فما ينبغي عليكِ الآن أن تترفَّقي بالأولاد. لا شكَّ أنه خسرك خسارة فادحة، ولكن الله بالمرصاد، سيردها عليه إن عاجلًا أو آجلًا.

– كيف أدعه وأنا في عنقي هذا الحِمل العظيم؟ لقد أذنب في حقنا، وأساء أشد إساءة، كيف أثأر منه؟ فإن كنتَ حقًّا في صفنا فخذ لنا مُلكًا منه أو شيئًا يسندنا. لا بد أن تتصرف.

– يا إلهي! أراكِ ترتجفين من فَرعِكِ إلى قدمك، لا تكوني

ضعيفة يا ابنتي، تشبَّثي بالقوة تشبُّثَ الميت بالحياة.

وفيما أنا أتأهب للرحيل، نظر إليَّ، فرَاعَهُ الدموع التي انحدرت على خدي وقميصي، وما كاد يبلغ باب المحكمة، حتى أجهشتُ، وأسندتُ رأسي إلى الحائط أنتحبُ انتحابًا. نظرتُ إلى وجهي مليًّا في المرآة فتصدَّع قلبي، فنظرت إلى ما أمامي من حطب الحياة وغيمٍ وضبابٍ متصدِّع، وخُيِّل إليَّ أن صفحة القدر صامتة غامضة مبهمة.

خُيِّلَ إليَّ، أن ابتعاده عنا ربما بسبب أنني تماديت في صدِّه حتى فَوَتُّ الفرصة وضاع كل شيء، كنت أتمادى في كبريائي، وربما تراودني البهجة عندما أعلن أنني امرأة فاضلة، وقد يكون في هذا بعض عزاء لي عن التضحيات التي قدَّمتُها. وربما عنادًا في أمي، لم يكن سببٌ واضح للخيانة، فبدلًا من أن ينتشل نفسه منها، راح يخضع إلى شهوات الجسد وطمع المال، كان ينفعل إذا تأخرتُ في تقديم الطعام، أو إذا رأى بابًا موارَبًا، كان يندب حظه وسعادته الناقصة، وما كان عليه بيتُنا من ضيق، في حين كان هو حجر العثرة في سبيل كل سعادة، والسبب في كل تعاسة، كان كالطوق المدبَّب الذي يُطبق عليَّ من كل ناحية، حتى تَلَطُّفي معه كان يزيده تمردًا، ما يضيف إلى خيباتي خيبة أمل أخرى، وتزيد الهُوَّة بيننا عمقًا، ومع ذلك لم أجد بُدًّا من أن أستمر في الابتسام، وأن أتظاهر بالسَّعادة، ليعتقد الآخرون أني سعيدة.

كان مشهدًا مزعجًا وأَيْمُ الله.. كأنني في حلم: الكلاب حولي متململة، تدور حول نفسها، تنبح نباحًا هائجًا مضطربًا، لكنني أعود لأقاوم وأغالب تأثير الصدمة، ولكن ليس هذا كل ما هنالك، وإنما هناك حكم المجتمع واتِّهام المطلقة بالتمرُّد والغباء والفشل، حتى بِتْنا نحن النساء مُضطرات إلى التخلِّي عن الحقوق، ولم يسعَ أحد للتبصُّر في أن النساء في العصور القديمة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تقول بكل شجاعة: «لا حاجة بي إليه»! ورغم أني لا أبالي بالناس وألسنتهم، فإن الأمور تعقَّدت. فافترض الناس أن في المطلَّقة عيبٌ، وإلا فلماذا زهد فيها بعلُها؟ حتى أصبحت الأرملة في درجة أعلى من المطلَّقة لأنها أصابها قدر الله، ثم إنني لم أكن تاجرة تلثم الدنيا بدنانيرها فلا أحتاج إلى إعالة، ولست ممَّن يَمتَلِكْنَ المدَّخرات بفضل الباري للأيام السود، وربما لم يكن إهدارًا، لو أني قتلتُ بعضها لأهُشَّ عن أبنائي مداهمات الضياع، ولو لأمرٍ واحد فحسب، مما يترصَّدنا من جوع وتَدَافُع أصابع العَوَز المرعبة. حدثت نفسي: «شُدِّي أزرك يا نفسي، اِحذري أن تقعي كصخرة من أعلى منحدر نحو أفواه الحياة الفاغرة».

انزلقَت السماء تحت أقدامي وأدارت وجهها عني، أصبحتُ أتأرجح كعصفورة مبلَّلة في مهب الريح، تزاحمَتْ حولي كل فنون اليأس والغربة، فهل ثمَّة قمر أدُسُّ رأسي فيه ليضيء أشجاري الداكنة؟ ربما سيكون بوسعي أن أجمع شتات الأشياء المبعثرة لأشعل فيها الفتنة الدنيوية الزائلة،

وربما يكون بوسعي أن أفتح عيوني المتورِّمة إثر بكاء طويل كي أتمكَّن من تقبُّل الأشياء التافهة، لأحفظ كوخي دافئًا، فما بَدَا خطأً لا بُدَّ أن يُرمى خلف أبواب المنازل ليبقى الكوخ نظيفًا جدًّا، وسيأتي كل شيء إلى يدي من تلقاء ذاته، لهذا أُخفي يدي في جيبي دائمًا، ولا أعرف ماذا أصنع.

كنت أُنفق الأيام المتتالية في اختبار صبري وقُوَّتي، لأطمئن إلى وجود الحياة التي سُحِبت من رحمي، إنهم لذَّتي وألمي، مصدر قوتي وضعفي، وباعث مَسَرَّتِي وخوفي، ساعات كثيرة لم يشغل حيز تفكيري شيءٌ سوى معاناتهم بالدرجة الأولى:

شيءٌ مخيف
الريحُ عنيفةٌ والمطرُ مدرارُ
الرجاءُ زفرةٌ في التيه
صرخةُ الأُبوَّة
يعلنها أميري الصغير
يُطلِقها ابني
في معركة الصبر
صوت صاخب
على مأدُبة الليل
شهيق الابن لأبيه
يعلنه شوقًا
ليحرق ضجيج الغياب.

لم تكن تتجاوز سِنُّ (وليد) الصغير ستةَ أشهر، حين شرب الحُزن مع الحليب، حتى بَحَّ صوتُه. كان يرفض تناول الحليب؛ يتملَّص من بين ذراعيَّ بحركة عنيفة، يذهب إلى الباب يطرقه مرارًا وينادي «بابا». في الوقت الذي نفض فيه أبوه يديه من كل شيء، ومنذ الدقيقة الأولى، لم يمنحنِي فرصة لاستعادة توازني ريثما أستقرُّ، كان انشِدادُهُ لأبيه يعصف به وبِكِيانه، كأنه يعاتبه بغُصَّة بكاء مجروحة، مرَّات عديدة كان ينتهي به البكاء إلى نوم قَلِقٍ وقد يكون الخوف من المجهول أو الجزع، وقد يكون إيغاله في هذا العويل معناه أنه عَرَفَ الحقيقة التي استبدت بنفسه وإحساسه المُبكِّر في سِرِّه. في الفقد، كان يفتِّش الغرفة ويدور حول السرير بصراخ يخرق الآذان، وحين أضمُّه إلى صدري ينزلق من بين ذراعيَّ ويتمرَّغُ أرضًا ويضرب الهواء برجليه، وتتقطع نياط قلبي، تتقطع حينما أراه يعاني، أُهرَع إليه:

– كفى يا صغيري.. كفى!

– بابا.. ديد بابا...

لم يكن امْتِقاعُ لونه ولوعته المريرة مدعاةً لنفادِ صبري، بل الإصرار على إيْلَائِه رعاية خاصة ومباشرة، لكنه يرفض الانصياع. فاجأني ذات يوم بنغمة صوته القريبة إلى الترجِّي وهو يطرق باب الحمام وينادي «بابا.. بابا» وهو يحبس سؤالًا كبيرًا داخل قلبه الصغير، في ذلك اليوم ردَّدتُ في سرِّي تساؤلًا

قاهرًا جعلني أجْهَشُ: «لماذا طلَّقَني وخَذَلَ أولادي وقد صدَّع رأسي من أجل الإنجاب وكثرة الأطفال؟! لماذا نَحَتَ عظمي بإلحاحِهِ على الإنجاب؟ وحينما أُعرِض عن طلبه يشتكيني لأبي! هل هو التأنيب أمام تقريع أمي له، أم إنَّ له أمرًا مُبَيَّتًا؟ أهكذا تتفسَّخ روح الإنسان عندما يريد التخلص من أحد، أم هو هكذا جاحد ماكر ومريض؟».

كانت معاناتي من موقف أحمد ضئيلة أمام معاناتي مِن وليد، في الوقت الراهن لم أكن أعرف كيف أُرضيه، لا أعرف إلى أين تسير الأمور؟ التجأتُ إلى الطبيب لأُسَكِّن روعه، أجريت له بعض الفحوصات لمعرفة سبب العويل واللوعة:

- إن جسمه سليم وممتاز وحالته الصحية سليمة.

قال الطبيب مشيرًا إلى وليد، ثم عاد ليجلس وراء مكتبه.

- لكن ما سبب سَوْرَة البكاء المستمر؟ أحيانًا تنتابه الحمى يا دكتور!

- ربما يعاني أزمة نفسية.

- معقولٌ؟ وهل يعاني الطفل وهو في هذه السنِّ أزمات نفسية؟

- طبعًا، معقول جدًّا. بل هي أشد خطورةً...

استمرَّ الطبيب في طرح الأسئلة مستفهَمًا، تردَّدتُ قليلًا وشعرتُ بالحرج ثم أجبت متلعثمةً:

– أجل، هو يردِّد كلمة «بابا» دائمًا و...

قطع الطبيب إجابتي بِاستفهامِه:

– وَضِّحِي أكثر.

– لقد تركَنَا والده قبل فترة.

أدرك الطبيب توضيحاتي المختصَرَة، ثم استدار إلى وليد وتابع:

– إن ارتباط الطفل بأبيه، ثم إبعاده المفاجئ...

صمت برهة ثم أكمل:

– الطفل في هذه السن يكون مرهفًا جدًّا، لذا عليكِ أن تراعي فَكَّ ارتباطه العاطفيِّ تجاه والده إذا تعذَّر عليه المجيء، مع ضرورة الاهتمام المباشر والرعاية الملحوظة.

ثم واصل:

– هذا إن لم يكن أبوه موجودًا، فالأطفال الأذكياء تكون مشاعرهم مُرهفةً جدًّا.

سيطر عليَّ شعور بفداحة المرارة، وأَلْجَم اندفاعي الألمُ، حين قلت:

– لم يكن الأمر بيدي، دكتور.

انصرف الطبيب إلى دفترٍ صغير أمامه يكتب فيه، قائلًا:

– هذا دواءٌ مهدئ يساعده على النوم، ضعي ثلاث قطرات

في الحليب الدافئ...

سكتّ، ثم تابع:

- عند الحاجة!

شكرتُهُ وتوجَّهت مع وليد نحو الباب، توقَّفت لأستوضح:

- هل هناك آثار جانبية للدواء قد تكون سلبية في المستقبل؟

- لا، بشرط ألَّا تُكثري منه. إن شخصية الطفل تتشكَّل في السنتين الأُولَيَيْنِ مِن عمره صراحةً، وبالتالي فأي مِحنة تؤثر عليه؛ عليكِ مراعاة ذلك.

كان آدم وحازم ينتظران عند أمي، وعند عودتي قالت بعد أن أخبرتُها بما حصل في العيادة:

- كلام الطبيب صحيح، لكنْ يجب أن يأخذ الدواء بعد الحليب، فالدواء على معدة فارغة ضرر.

- لكنه يرفض كل شيء! حاولت معه مرارًا.

- الطفل لا يفهم؛ عليك أن تمنحيه الحليب ومِن ثَمَّ الدواء، ولو عَنْوَةً إذا لَزِم الأمر.

أقبلتُ عليه وبيدي قنينة الحليب وقد بَدَا منهَكًا من شدة البكاء، دفعها بباطن يديه، أعدتُها وأنا أُنشد له بعض أناشيد الأطفال.. «آكلِك منين يا بطة...» و«حبيبي بُكرة تكبروتروح المدرسة...» وعيونُ قلبي تقطِر دمًا.

أعلنت ساعة الحائط الثامنة مساءً، حين استسلم وليد للنوم على صدري بعد إرهاق طويل، شعرت بانتظام أنفاسه بعد أن سَرَى بجسده تيَّار من محبتي الدافئة، ثم حملته حذرةً ووضعتُهُ في سريره.

بقي على هذا المنوال مدةً طويلةً تجاوزت حدود عمره المدرسي، كَبَتَ في داخله ما كَبَتَ من الحسرات والغُصَّة، وهو يُحصي الأيام والأسابيع عسى أن يرى أباه مِن خلف الغروب، من خلال أيَّامه المبتورة التي تنقصها كلمة «بابا»، وقد أَمِل أن يسمعها في يوم ما، رغم الحياة الوثيرة التي وفَّرتُها له بحسب مقدرتي، فصار من الصعب عليَّ أن أقتني شيئًا لنفسي مِن دون أن أُقدِّمهم أمامي، لم أستأثر لنفسي بشيء، بذلتُ لهم بكل سخاءٍ عمري الذي وضعتُهُ بخدمتهم وتحت الطلب، منذ استيقاظ الفجرَ وحتى انطفاءات المساء، لم أعرف الشكوى لأني أعلم أن المُشتَكَى لله وحده، فقد عقدتُ عزيمتي بِذَيلِ وشاحي وقرأتُ عليها «اللَّهُم يَسِّر ولا تُعَسِّر»، فلا تستغربوا حين أطمئنُّ عليهم في منتصف الليل وهم نيام وهم في سنِّ الشباب، حتى أصبحتُ أنام بعين واحدة، وقد تعوَّدتُ ذلك خوفًا عليهم، وفوق رأسي جحافل الليل المتربصة.

بَدَا كل شيء ليلًا يزحف نحوي، كل شيء يجرحني، ذابت صفحات أيامي تحت أقدام الوقت المارق، دخلتُ في ثوب السَّكِينة أُمَسِّد على ظَهر الأيام علَّها تكون ناصعة وتستردُّ

روحها، وأنا أمشِّط شَعري بشَآبيب الأزمات التي أمْسَت الآن ساكنة بذخيرة طُهر الروح الذي لا يشيخ، حتى تحوَّلَتْ إلى صمت وذكرى، فعندما يسترد الإنسان بعض ضِفاف روحه يلتمُّ على نفسه ويبدو جميلًا في هدوء سماويٍّ، لامعًا كأنه غُسِلَ من سُخَام الشدائد والأطماع، ولا يبقى سوى ترتيب الأولويات والاحتياجات وما يتوجَّب إنجازه.

ورَدَ على ذهني فكرة العودة إلى الوظيفة، والبحث بصبر عمَّن يُعيدني، كان الاقتراح قد أثار استهجان أمي، ما جعلني أتحمَّس لإنهاء الأمر، ولم يَدُرْ في خَلَدِي رفضُ أمي في وقتها، بل لم يساوِرْني شكٌّ في احتضانها للأولاد عند ذهابي للعمل، كان عليَّ أن أحاول ألَّا أغرق في بحر الاحتياجات المتلاطم، فإن لم أُنجِد نفسي فلن يُنجِدَني أحد في ساعاتي الأخيرة، وقد رأيت الربيع قد أقفل أبوابه، بعد أن تنبَّأت لي أحداث الصيف وما بعدَها بأن كل المُسَمَّيات والأشياء الجميلة لن تعود بعد الآن.

«أنت كالزَّهْرِيَّة المكسورة، حتى إن جَمَعْتِ أشلاءك فلن تعودي مثلما كنتِ»، قالها ابن خالتي في إحدى المرَّات، يا له من عالَمٍ مُدَمَّر والحارسُ أخذَتْه سِنَةُ النوم، ومهما حصل ستظلين وحيدة على كل الجسور، حتى إن توهَّمتِ أن النجوم تمشي على أكتافكِ. ابتسمتُ بحنان حينها، وبدأت أصابعي تعُدُّ العروض المُغرية والخسارات والخيانات، سقطات الأشياء العابرة، الانهيارات العصبية، الكآبة، المحاولات

الفاشلة للانتحار.. لعدم استرداد الحقوق من فم الغادرين والمخادعين.

كل ذلك جعلني أشتاق إلى أبي صوتِ الضمير النابض، صوتي البعيدِ، حزامِ ظهري الذي يشدُّ أزري، ليعيدني لأيام زمان عندما كنت أراقص حوريَّات البحر في أغاني عوض دوخي وشادية وفيروز، الموشومة في قاع حنجرتي، التي اِنْمَحَقَتْ تحت صفحات الجمر أُراقب انتهاءَها، لكنها توغلت في أعماقي، وقتَها كان الوقت يحلِّق حولي كالحمام، يهزُّ أعماق الأنوثة الكامنة في الكون كله، لكن الذكورة تصطخب فوق الأرض، وتسعى إلى شَقِّ اللغة نصفَيْن، فتستقر على العرش.

كم أودُّ التجرد فوق نجوم سمائي، أطوف بها فوق المجرَّات، أردم بها الثقوب السوداء، وأرمِّم أرضي بِجَوَاهرها الهادئة الصَّقِيلة، آه.. إنه الصعود أعلى الهرم، والنزول إلى أرضٍ محتلَّةٍ بالظمأ.

آه.. كأن كل الأشياء تتأوَّهُ من فرط توهُّج الاحتراق، حتى البشائر والثرثرات والنادبات لا تكفي لتزيل غبار ترحالي الطويل، آه يا ألمي الأخضر! يا تردُّدي بين الأرض والسماء، لو هدأَتْ لوعتي! كم أتمنى أن أستريح، لو استطعتُ تكسير الأصنام وتمزيق الرُّقَى، مع أنه لا يكفي، بل لا تكفي كل آلات الموسيقا والأمواج التي تهبُّ على صدر السفن بما تحمل، كي تُنسيني جِراحي التي تدثَّرَتْ وطال رقادها في صدري؛ لا

تُنسيني فعلَ ذلك الزوج المحروس من عين الحاسدين، الذي أطلقَ هِرَاوته على ابتسامات البهجة، آه.. أيتها الأغاني الزرقاء المخنوقة في زَهْرِيَّاتي الناعمة، متى تنفرجُ شفاهِكِ الملونة بطيف ابتسامة؟

كنت أركبُ مراكب الظنون في قاع نفسي حول عِشقِهِ المتوقِّد كالجمر بأهدابه المتوقِّدة عقب منتصف الليل، أيمكن أن يمحوَه احتشاد الشَّرَهِ هكذا بسهولة؟ أيمكن أن يتململ من سرور مجلجِل يتأبَّط صدر البيت ويطوف بذراعه فتنفجر ضحكات تشرئب فيها الأبصار؟

انتهت حكايتنا، وتمَّتْ وليمة خيانة، راحوا فيها يتماجنون ويتفاكهون، اِنحسر لون الربيع عن ثيابي، خائفًا متألِّمًا من خطوات بنات جِلْدَتي، حيث لا ينفع أفخم الثياب، آهٍ! الخيانة التي اصطَحَبَها معه، أفرغَتْ بيتي من فرصةٍ أغلقَتْ عينها عنَّا، دفنَتْ ما أنا فيه عاكفةً تحت حياة مؤجلة، انسلَّت خلف ظهر السنين بدون أن أدري، كان قضاءً محتومًا، فنحن لم نلبث أن نتجاذب أطراف الحديث، في أُلفة ومزاح، كأني غير مرغوبة! وأَلْفَى لديها حاجَةَ فؤاده، ومضى يتخيَّلها حواءَ التي تسعده، ويحسبها نصفه الذي لا يكتمل مِن دونه، كيف أنسى فحم الخيانة في جنح الليل الصامت، وقد أنشَبَ أنيابه في عقر داري ونام بين ضلوعي؟ ياه! هل كنت نائمة حين مثَّل دور العاشق الخائب، وهو يبدي أسنان الابتسام الناصع لأجلي، مُقْسمًا بأنه سَيُحدِث في نفسي أكبر الأثر، وبأنه

سيُنسِيني كل ما مرَّ بي؟ حين كان يطارد حياتي بحركات شلَّتْ وجودي، هل كان كل ذلك كذبًا وتمثيلًا؟ لا أعرف ما الجواب. كيف رضِيَ لنفسه هذا الابتذال؟ ما الفرق بين هراء السُّلطة وبينه؟ وبكل بساطة السذاجة، السُّلطة اعتقلت جسدي وهو قتلني، وَشَوَّه روحي.

ظننتُ أنه سيأتي وسيصل إلينا بعد حين، لكني تنبَّهت أن في صمتِه رسالةً مزَّقَتْ وجه ادِّعاءاته، فترامى الغبار شرسًا على حياتي اليومية، ووجدت نفسي مدفونة تحت عباءة «المطلَّقة»، هذا الكابوس الذي غطَّاني، وغلَّفني بِلِحاف الحذر والخوف من الأحكام الصفراء من أناس خلعوا عنهم وجه الحياء، وهم كالحشرات التي تنتشر فوق المروج، رغم نظرات الاحترام.

تجرَّعتُ مرارة خطأ لم أرتكِبه، أغلقت عينيَّ على صبر أيوب بداخلي، وأنا أراقب بنفادِ صبرٍ «اللهمَّ اجعل بيني وبين الناس سَدًّا من أمامي ومن خلفي ومن جانبيَّ، واحرُسني وأطفالي بعينك التي لا تنام»، لتهبَّ نسائم الربيع على صيف زاحف نحونا، كأنني أريد رفع حِدَّة الحواجز المُسنَّنَة بيني وبين الناس، لتسقط وتتطاير أشلاء المصير، وتنتهي اهتزازات الروح حين يصافحني صباحٌ لامعٌ كضحكةِ نشوة. ثم أحكي بيني وبين نفسي: «قد يعود على غفلة، سأنتظره، وما لي سوى الانتظار».

ولم يفكر في إصلاح الأمر، تَرَكَنَا قيد الانتظار، رمى شباكنا جانبًا، ثم بَنَى جِدارًا عملاقًا بيننا وبينه، جدارًا عُمره سنوات تجاوَزَتْ بخُطًى بعيدة حتى عبرَتْ شباب الأولاد، ولم يحفل بما تحتوي لياليا المُوجعة، ولم يفكر في ما نحن فيه، نسِيَ كل شيء وحلَّق حول رغبات ملعونة عارية تُخفي نِيَّاتِها الملوثة، أخذَتْهُ صور لزجة فتثاءب جسده العابث فوق نفسه المتمايلة، ظَنًّا منه أن السرور سيداعب أصابعه ويُشعِره بالشبع، فيما سيرتخي جفناهُ، ويشهد قَلَقَهُ طويلًا.

كان حصادي من كل هذا أنني أصبحت محطَّمَة الأعصاب، لاهثةً، عاجزةً، منتحبةً بصوت خفيض، تملأ وسادتي دموع مِدرارة، مع ذلك كنت دائمًا أحاول طَمْأنة قلق الصغار الذي تشبَّث بمبرِّرات المحبَّة؛ بأنه مسافر. ولم يعلموا أن سَلَّة انتظارهم فارغة وستبقى، إلَّا آدم الذي كان يبكي في جوف الليل، هكذا كان لا ينتظر عودة أبيه، كان متعَبًا، هائمًا في السكون. أما إخوته، فقد نجحتُ في طمأنة أنفاسِهم، فلو أنهم شَمُّوا دخان الغياب، لسوف تنمو طحالب الجزع ولن أتمكَّن من نفضها عن حقائبهم الصغيرة، وسترتدُّ آمال البسكويت إلى صدورهم وتنهار أحلامهم.

كنت أسحبهم إلى حياة هادئة ناعمة، وكنت أرتعش حين تراودني تلك الأفكار في سِرِّي، فأنتفضُ بيميني لأساعد شِمالي على النهوض بهمَّة، لأغلق فمَ القلق المِهْذَار، لأرفع جاهدةً أجنحتي تجاه المطر الهاطل في خطواتي القادمة،

كنت أكره اليأس الفضفاض، وأعرف أن المَهَمَّة مصحوبة بالسُّمِّ والهلع، عسيرةٌ محفوفةٌ بسلسلة المعاناة، لكني رغم ذلك، كنت أحدق بعيون جاحظة إلى الأمل، لم تهزمني الأفكار المجرَّدة وكلمات التأسِّي، ولم أُصْغِ إلى قاموس الاويلي والخطية التي تردَّدت أمامي، «هَسَّه لو باقي ظِل رِجَّال أفضل، وإذا تزوَّج شِنُو يعني؟ الرجل إلَهْ حق يتزوج أربعة، ماكو مَرَا تأكل مَرَا، المهم الرِّجَال هم القَوَّامون»، قالتها في إحدى المرَّات واحدة من القريبات، فأجابتها الأخرى: «إي والله عِيني، خلِّيه طيب، المهم الأطفال هَذولي مكسر الذل»، لم تُزَعزِعْني هذه المبارزة والتسوِيَات أو الحرمان ولا قسوة أردية الخذلان.

لم يعلَم ذلك البائس أنه سيكون مُطَأطِئًا بين المطرقة وزعيق السِّندان، ولم يتصور أن زمنه الذي طَوَاه بقسوة ستُعيده إليه أشواقُه اللائذة بصرخات أعلى من صرخات الصغار، فينزف الوقت بين يديه حالِمًا بالعودة، وسينسى صوته أمام طلباتها المِلْحَاحة، ويودُّ مفارقتها إلى الأبد، لكنه لا يقْدِر؛ كان عاجزًا، مكبَّلًا، مُقيَّدًا إلى سُلطتها تحت هَيْلَمان تنمُّرها وأحقادها، وظَهَر له أن ذلك الوَلَهَ ما كان إلا من خيالاته التي راحت تزيِّن له قرار الانفصال، وأصبح تحت رنين الماضي وضربات ذكرياته المتواترة، ذكرياته القديمة أيام الشباب والدراسة، وهو يعلم أن صوته هنا كان في حضرة النعيم الدافئ الذي دَعَسَه بأقدامه وتركه للضياع.

الأيام تمرُّ، ينطوي بعضُها فوق بعض، وقد تكوَّمَتْ فوق جسدي المتعَب، الحياة داهمتني بقدميها المتورِّمتين، كنا مُسَلِّمِين بانتظاره، بانتظار عودته كل تلك السنين، عسى أن يفُكَّ أَسْرَه ويسحب ثوب اللقاء الطويل برِفقٍ ناحيتنا، أنهكني التحدِّي والبحث عن مفاتيح الأبواب المغلقة وعصف الريح المسموم، كنت كَمَن بلع أمواس الحلاقة كلها، لا ندم ينفع ولا حلٌّ يُرتَجَى، لا أدري إلى أين يأخذني حظي التعيس، أتعوَّذ من الشيطان مرَّات ومرَّات وعيون الأطفال الخانِسَة تراقبني وترتجف كأنها بلا هُوِيَّة ولا أسماء، وهو يتقصَّع بين فخذيها ويغوصُ حتى ركبتيه تاركًا لها الحبل على الغارب، كان شرطُها أن ينقطع عنَّا تمامًا ويتركنا في مهب الريح.

حيث لغةُ الخَوار
هناكَ
على بابِ صبرنا المنسابِ
كنهرٍ
من كُمِّ الزمنِ
على قميصِ ليلِنا المكتومِ
على حائطِ صباحِنا
الذي يُروِّض الثقةَ
في صُدُورنا

هناكَ أُمي
لا تطفئُ حرائقي
لا تسقي أصِيْصَ رُوحي
حيث النقيقُ
يخترقُ آمالَنا الخائرة
لَعَقْنا الضجيج وكلَّ هذا التيهِ
في قلوبنا
المكوثُ خَواءٌ
لا ضفَّةٌ مُرَمَّمَةٌ للعبورِ

كان الوقت منتصف النهار، حين ركبنا سيارة النقل وهي تحملنا والأغراض إلى البيت الكبير، وقد تراكم بعضها فوق بعض بازدحام شديد، عندما وصلنا، طرقتُ الباب الخارجي مرَّات عدَّة، ظننتُ أنْ لم يكن هناك أحد، وأصبحتُ في حَيرَة من أمري.

راح الأولادُ يتحلَّقون حولي، وراحت أنفاسهم تلهث في جوٍّ قائظٍ وفضاءٍ خانقٍ، فلم يكُنْ من السهل عليهم معرفةُ ما أنا مُقْدِمة عليه، كنا نقف تحت أشِعَّة الشمس القوية التي اِلتَمَعَ تحتها سطح السيارة والأثاث، وبعد حين سمعتُ صوت أمي وهي تسير مُتمهِّلة:

– مَن الطارق؟

كنا نمسح العرق المتصبِّبَ عن جِبَاهنا، بدأتُ أُوجِّه نظراتي نحو صف البيوت التي امتدَّت عن جانِبَيْ دارِنا القديمة، لم تكن المنطقة قد تغيَّرت كثيرًا خلال السنوات، خُيِّلَ إليَّ أن الشوارع أمسَتْ ضيقة وبائسة، يلتَفُّ بعضها حول بعض وتفترق وتلتقي، وقد شاخت البيوت التي كان معظمها ليس غريبًا عليَّ، لكنَّ ناسها اختلفوا، فلم يكن السجَّاد سابقًا يتدلَّى على الأسْيِجَة أو (البلكونات)، ولم أَرَ في حياتي ملابسَ منشورة على الحيطان الخارجية لتعريضها للشمس! سَئِمتُ شدة الانتظار تحت الشمس التي أرهقتنا جدًّا، تورَّدَتْ خدود أطفالي، لم أقُل شيئًا ولم أعتقد أي شيء، بقيت أنتظر بصمت:

– ها بنتي.. خير؟ ما هذا؟ (قالت أمي بعد أن رميتُ عليها السلام وقبَّلتها).

– إنها أغراضي يا أمي، لم يعُد باستطاعتي البقاء في البيت وحدي أنا والأولاد، وأيضًا لم يعد باستطاعتي دفع مستحَقَّات الإيجار.

– نعم؟! تقصدين أنكِ أتيتِ لتعيشي هنا أنت والأولاد؟! (قطعتني ساخرةً).

– نعم، أمي. أين نذهب في اعتقادكِ؟

لم أكن أتوقَّع ردَّة فعلها، صرخَتْ في وجهي، وَبَّخَتْني بعنف وأخذَتْ ترمي الأغراض والكراسيَّ والأجهزة الكهربائية

بعيدًا عن الباب، إلى وسط الشارع، فَارْتاعَ الأولاد والعمال المتأهِّبون لإنزال باقي الأشياء.

– ما معنى هذا؟ أريد أن أعرف متى نتخلص منكم! ألَا تراعينَ وضعنا؟ أنا لست مستعدة لاستقبالك واستقبال أولاد الغريب، هيا اذهبي! هيا!

– لكني يا أمي.. استمعي أرجوكِ.. لن أستطيع...

قاطعتني:

– لا شأنَ لنا. اذهبي!

أغلقَت الباب بعدما رمت الأغراض التي تبعثرت بين مكسور ومُمَزَّق.

نظرتُ حولي عبر الشارع، حمدتُ الله، لم يكن أحد يمرُّ من أمامنا ولم يكن هناك من رأى هذا المشهد. فقال سائق العربة وهو يراقبني بعد أن دَنَا بضع خطوات:

– ها أختي؟ هل أذهب أم أعيدك إلى نفس المكان؟

اتَّجهت نحوه بنظرة حائرة على وجهي، لكنه هتف منزعجًا:

– هل هذه أمكِ؟ لا إله إلا الله! هذا شيء غير متوقع.

ثم أردف:

– هذا حظٌّ سيِّئ وفألٌ تعِس.

ثم ألقى نظرة على ساعته وواصل.

– أستطيع أن أُعيدك إلى بيتك إن شئتِ.

وقف العُمَّال باهتين ينظرون بعضهم إلى بعض، ساد الصمت على الجميع وخاصة أولادي الذين أمسكوا بطرف ثوبي ولَاذُوا بِي خائفين، ثم جاءني صوت صاحب العربة بِرَنَّة غريبة نبَّهتْني لوجوده:

– أرجوكِ أختي، لا أريد أن أتأخَّر عن عملي، عليكِ أن تسرعي، هيَّا لأعيدك إلى البيت.

– لا لا، شكرًا. اذهب أنت.

– هل أنت متيقِّنة؟

مرَّت لحظات، بعدها استدار بعربته وخرج من الشارع الفرعي إلى الرئيسي.

شعرَتْ أمي بجرحي الواثب فوق صدري، حينما تفجرَتْ أَعْطافُها عِتَابًا ولْومًا وأَسًى على حالي، حين أيقظ وجهي الحزين قلبَها، فعاد بريق عينيها الصافيتين يحتضن أجسادنا المتعبة بعد دُشٍّ ساخن، دخلنا حاملين الأغراض إلى غرفة في الطابق العُلوي في القصر الكبير الذي احتلَّتْهُ (سليمة) زوجة أخي بأكمله، كما قرَّرتْ والدتي.

أتذكَّر جيدًا ذلك اليوم بتصرُّفها المعهود، حين تلقَّفَتْنا الهتها الشريرة وصارت تُدَوِّي في أرجائه وتُرسل صداها

ليتردَّد في جوانبه، مع صوت أمي الذي يلاحِقُنا بالتعليمات والتحذيرات التي نُقشت بالفحم على خريطة منزلنا وأرْوِقَتِه التي اغتالت طفولة أولادي سبعة أعوام. ولا عجب، فإن زيارتي الأولى كانت في نظرهم حادثًا غريبًا غير مألوف في ذلك البيت.

في ذلك اليوم، بعد أن أنهَيْنا تكديس الأثاث في الغرفة كيفَمَا اتُّفِق، نزلنا مساءً إلى باحة البيت بعد أن استبدَّ بنا التعب وعضَّ الجوعُ وعاء الصغار، وقد سحقت ساعات الانتظار معدتهم، انثنت والدتي تهمس بأذنها أن تحملَ لنا بعض الطعام وبعض الخبز الساخن، بعد حين صافَحَتْ وجوهَنَا صينيةٌ نفثت قَذَاها في عيوننا الرطبة، وهي تحمل بقايا طعام وفُتاتٍ يابس، خطفَ نظراتٍ أمي التي اعترضت ببرود:

– ما هذا؟

– ماذا؟ ألا يعجبهم؟ هذا الموجود.

قالت بشراسة وهي تقلِّب الصينية رأسًا على عقب في الحال أمامنا، فتتطاير الصحون فوق رؤوسنا، فَغَرَتْ أمي فَاهَا وسكتت وهي تضع أصابعها على فمها، ثم استدارت تاركةً ما خلَّفَتْه من عبث، لتقول إنها تعمَّدت أن تستقبلنا بتلك البركات كي لا يطول مكوثنا، وكما في كل مرة.. كانت تُوحي لنا بأن زرعنا هنا لن يدوم، حتى تراهَنَتْ على اقتلاعِنا

مع زوجة أخي الثاني، وسارعت في سكب دِلَاء الخُبث علينا كي تُعجِّل بِتَركِنا المنزلَ، كانت تُشعِرنا بأنها هي صاحبة الأمر والنهي، وقد سحقت كل جدران الرحمة فيه، جعلتني أحترق بصمت كشمعة وسط ظلام دامس، وأنا أنزف كل عمري سنةً بعد سنةً بسبب إقامتي في البيت الكبير، ولم يكن بيدي غير شعائر البكاء النازف من قلبي.

في نفس الليلة، سمعتُ صوت أخي الثاني وقد جاء ليَسْتَعلِم عن وجودي، تكلَّم معها بصوت خفيض سمعتُ منه بعض (طراطيش) كلام، وهو يدلو باعتراضه أيضًا على بقائنا في الحَوْشِ الكبير الذي تلتفُّ حوله الغرف من ثلاث جهات، ومطبخان أحدهما مخزن للأطعمة والآخر للطهي، تفوح منه رائحة (التَّبَاسي) و(المكدوس) (*) واللحم المقدَّد والفسنجون، إضافة إلى الحديقة الفسيحة المحلِّقة حوله، التي طالما لعبتُ فيها وركضت في صباي وطفولتي، خلف الفراشات الملونة، وكم تعثَّرت عند محاولتي الإمساك بالهدهد الذي أَحَبَّ الوقوف على شجرة الرُّمَّان.

كنت أتحايل للنزول إلى المطبخ مبكرًا لأُعِدَّ الطعام للأولاد، وكنت أحتضن الأواني رغم حرارتها على صدري وأصعد السلالم بكل هدوء، أُهْرَع بها إليهم، فلو عَثَرْنَ بي لقامت القيامة، ولن أنسى إعداد الفَطُور لهُنَّ ومن ثَمَّ أعود

* أكلة سورية

لفرك الصحون والقُدور وحَوشِ المطبخ كما في كل مرة، وبِطِيبِ خاطِر، من دون أن أنتظر شكرًا من إحداهنَّ.

ورغم القهر الذي طحن فِكري وقلبي، حاولت أن أتجاوز ما حصل في بداية النهار، ولست واثقة الآن كم قضيت من الوقت تلك الليلة وأنا أفتِّش عن حلول وأفكر في ما آلت إليه الأمور، هل يستوجب الأمر طلاقي والتفريط في الأولاد ونحن حَبَّاتُ عنب في فمه؟ الحَقُّ أني كنت أبكي من قرار أحمد، إلَّا أن قلبي مشفقٌ عليه، لا أصدق أن أحمد يفعل ذلك ولو وضعوا السكين على رقبته، هل نسِيَ أن الحظ التَّعِس سيرافقه حتى ينحني ظهره وتسقط أسنانه بسبب فعلته هذه؟ وفي المساء يدور وحيدًا في الطرقات، لا زوجة حبلى يخاف عليها، ولا أطفال ينشغل بهم وبصخبهم وركضهم. طيب.. ما الحكمة في الزواج إن لم يكن قادرًا على تحمُّل المسؤولية؟ من يدري، قد يتحول الزواج إلى مؤسسة عاطلة بلا معنى! هل مَرَّ على باله كيف يتنمَّر الناس على المطلقة؟ وأنها ستسمع كلامًا وثرثرة تُثقل كاهلها لا ينفع معه أي دفاع؟ بل ستبقى تلك الصفة سُبَّةً تلاحقها، تتبعها كظلِّها مهما صنعَتْ، فالدار عامرة بالعيون الشَّرِهة والآكلين في الماعون وأصابعُهم في العيون. ألا يدري أن الطلاق يكسر خاطر البنت؟! لكني أعلم أنه كان عامدًا قاصدًا متقصِّدًا. لا فائدة، عليَّ أن أُوَفِّر المال اللازم لإعالة أسرتي.

من المحتمل جدًّا أنني قضيت وقتًا طويلًا وأنا أُلبِس الأفكار

بعضها ببعض كما أُلبِس الأردانَ بالثوب، فقد تقدمت الأيام حينذاك ولم تطرُق بابنا بارقة.

نزلتُ من الطابق العلوي صباح اليوم التالي فوجدت أمي بانتظاري، وأمامها إبريق الشاي والفطور، ألقيتُ عليها التحيَّة فكان ردُّها باهتًا حزينًا، قالت:

– من يُنصِف المرأة؟ ومن ينظر إليها نظرة تُرضي الله ورسوله؟ ما هذه الشناعة التي تصرَّف بها؟ كيف يتجرأ على فعل هذا؟

– والله لو اعتذرَ ألف مرة فلن أغفر له، أوْهَمْتُمُونا برُبُوبيَّة الزوج وقد حَرَمَنَا من كل شيء، وسخافة حمايته للعائلة من الخوف والذُّلِّ والموت والألم والحاجة، انظري.. أين تلك الرعاية وهو يتعامل بتلك الفظاظة والقسوة مع الموقف؟ يا إلهي! لقد رضعنا الوهم منذ نعومة أظفارنا، وها هي عين الحقيقة جاحظة أمامي. هل تعتقدين يا أمي أننا ناقصات عقل ودين، وأن علينا الخضوع الأعمى إلى سلطة الرجل المُطْلَقة حتى لو كان مُذنبًا؟

– الدين والشرع والقانون بجانبه!

كانت أمي تسمعني ولا تعرف كيف تردُّ على أسئلتي إلا ببعض إشارات التبرُّم التي تصدر منها. أين أنتِ يا

(مادلين شابسال) [*] لتعرفي الحقيقة في أزقَّتنا المجعَّدَة؟ فقد ضاع العمر هباءً في الحَمْل والغسل والكنس والطبخ والاهتمام بالآخرين، وألَّا تَزِيغَ عينكِ عن نفسكِ، اِلبَسِي ما يجعلك تبدين متواضعة خانعة ذليلة للأفكار القذرة حتى إن مزقَّتْكِ، لأنها هي الحِرْزُ الذي يجعلك بأمان، الزواج هو الملاذ الآمن لك لا غيرُه، ليس غير الرجل ظلًّا وسترًا للمرأة، مهما يكن، فظلُّ رجل ولا ظلُّ حائط، أَوْهمونا بأن الولادة سعادة تفوق سعادة الرجل، وهل القطط التي تلدُ أيضًا بأفضل منا؟ أقنعونا بأن مَن تلبس طاقيَّة الجدال وتروح وتأتي لتبحث عن هُوِيَّتها ما هي إلا منحرفةٌ عن طبيعة المرأة، لأنه نشاط يقتصر على الذكور فقط! وينبُتُ خطأً في كِيان الأنثى، ويجب أن يُسْتأصل كما يُسْتأصل البَظْر، فقد أبدع جماعتنا في ابتكارات أنظمة جديدة وأقنعة فاخرة لأحزِمَة العِفَّة في عصرنا، وعندما تهرب البنت يقولون ما يقولون عنها!

يأخذني الضجيج في تراشق الأفكار الممتدة بين أنين الأطفال وبين أفاعي الأعذار في مقبرة الأحلام، فما زلت أتذكَّر تعاليم أمي التي حفرتها في قاع روحي وتفنَّنت في صنع الخوف من المجهول لأرتميَ رمادًا وأكون خلف صليب القهر والخوف من العار، علَّمونا أن كل شيء فينا عيبٌ، صوتنا، جسدنا، نظراتنا، ضحكاتنا عيب، عيب أن تتجاذبي الحديث

* كاتبة وصحافية وروائية وناشطة فرنسية، وعضو لجنة الحقوقيين النسائية.

مع أخيك، والعار كل العار في المزاح، فمن تطاولت مع وَلِيِّها تعمل ما تشتهي ويسهُلُ عليها أن تتطاول مع الآخرين! كنت أشعر بين دهاليز تلك الدروس أن أمي لم تحبني يومًا، لأنها تُفضِّل الولد على البنت، وتتصوَّر أنه سيعوِّضها عن الإحباط والخيبات في حياتها، رغم أن دم البنات يتدفق من بين الثقوب في خِفْيَة ومرارة، من دون أن تنطق، ولا أدري كيف يبارك الناس جثثنا الهامدة في ليلة الدخلة. فهل أبقى صامتة بعد كل هذا؟

لم تمنحنِّي الأيام سوى ضرباتٍ مؤلمةٍ بمِرفقها، صرخات مكتومة مغلَّفة بمناديل رافقت بكاءً لا نفع منه، تُطْبِقُ على حكاياتي الأغرب من الأساطير، جسدي الذي أصبح صندوقًا خشبيًّا عاطلًا بحاجة إلى طلاء؛ ضغطت عليه أظفار الأيام، خربشته، لكني استجمعتُ كل بؤسي وانتفضتُ واقفة، لم أكن أملك سوى ربط أعصابي بألواحِ الإصرار كي لا أقَعَ في بئر لا نهاية لها، ولسوف يأتي الوقت الذي سيُشاغَل فمُ أزهرت فيه لغةُ الجراح، وستولد ليالٍ خالية من صمت طافت فيه أفلاك مضجرة.

كان موضوع الطَّلاق يقرع الطبول بلا هوادة، رغم حركتي الواثقة الرزينة، وأنا أشاهد بَتْلاتِ حديقتي تذبُلُ من خلل الثرثرات وكثرة الكلام، الكلام البذيء الذي عَبَّدَ شارعًا متعرجًا في داخلي، أتأمل المشهد، قصر تزيِّنه الغيوم وإبريقٌ مملوء بحجارة هشَّمت عظامي ولعبي الصغيرة، كانت أسوأ أيامي

على الإطلاق، فترة رهيبة إذ وصل إلى أذني أسوأ ما سمعت، فزوجة الأخ (سليمة) المنزلقة على سجادتها تلعن ثِماري واليوم الأسود الذي جئتُ فيه، تخطِّط للسيطرة بلا رحمة، لم يمرَّ يوم من دون أن تفقأ عيوننا وهي تأكل خبزنا، لم يمرَّ يوم بلا إشكالٍ كبير أو صغير لتفتعل المشاجرة والعراك، وكل يوم يرتجف قلبي عندما أتذكَّر أخي ومعاناته منها، خاصة بعد اعتقالاته المتكرِّرة قبل الأخيرة، وكيف ضاع بسببها وبسبب تخبُّطها وتحكُّمها في مصيره، حينما أراد السفر ومنعته.

كانت كحلم مفزع لي ولأولادي وأمي، كانت مخلوقًا نافرًا لا يرغب في عِشرة الناس، فأقول في نفسي «كثيرةُ الإيمان تلك، بحاجة إلى ممرِّضات لتكشط شغافها الذي لا ينظف ولا بألف صابونة». كنا نقابل شراستها وأسلوبها القميء بجميل كلامنا، نتحايل على أنفسنا كي نتجرَّع زفرتها التي تُزكم الأنوف، فلم يصبنا منها غير رائحة عطنةٍ تُزَمُّ لها الشفاه.

كانت أمي، المرأة التي تلتَذُّ في تعبي بإمعان، وهي تعمل على تكديس الأشغال أمامي من المطبخ إلى الحمَّام والحديقة والكَيِّ وترتيب الغرف وتهويتها... وهي تغطُّ في سُبات الكسل والنوم وتترك كل شيء.

في إحدى المرَّات، كنت مشغولة بتنظيف وتشذيب الحديقة، سمعت صوت وليد يصرخ، حينما ذهبت رأيت الكَنَّة واقفةً تأمُرُهُ ليلعق البيض المكسور عن أرضية المطبخ

وهو ممزوج بالأوساخ، ودموعه السخيَّة وغُصَّته المخنوقة تعلن الإنصياع؛ صرختُ في وجهها ودفعتها بعيدًا عن الطفل، وأنَّبتُها على ذلك الموقف وتوعَّدتُها إن أعادت الكَرَّة، أخبرت أمي بالأمر:

- ماذا تتوقعين؟ هل تفرش لك الأرض وردًا؟ هكذا هي البنت، حياتها قبل الزواج عند أهلها شكلٌ، وبعد الزواج شكلٌ ثانٍ، وعندما تعود مطلَّقةً تعود خادمة لا أكثر، لذا كان عليك أن تتحملي زوجك مهما فعل. ظِلُّ رجل ولا ظِلُّ حائط، تعلَّمنا أن المرأة لا تخرج من بيتها إلَّا إلى القبر. بنتي، الرجال قَوَّامون، وأنتِ عُدت ومعكِ ما شاء الله!

قالت ذلك بكل ثقة، كَثِقَتِها بوجودها فوق الأرض، وهي لا تفرِّق بين الظالم والمظلوم، تريد حماية (سليمة) مِنَّا، بدلًا من ردعها، حينها تيقنتُ أن هذه الأم الطيبة ضاع عليها الخيط والعصفور، وفقدت كل شعور بالأمومة نحوي، فهي في وادٍ ونحن في آخر.

ضحكتُ في سِرِّي عندما استعادت ذاكرتي كلامها عن «ظلِّ الرجل»، فلا أعرف مِن أي مخبأ في الأرض ظهر هذا الظلُّ، وأيُّ شيخ معجَب بظُرفه وملاحته وإسرافه على نفسه قال ذلك وأقرَّه، ولم يحفل بما اشتجرت عليه النساء من حِقد إلى يومنا! وأغلب نساؤنا بائسات، أخفَوا عنهن تلك الإشارات الملعونة كي تنام في جيب الرجل.

أسدلتُ على نفسي ستائر الرحمن الرحيم، دمٌ حارٌّ يتدفق إلى دماغي، مع شعائر الدمع المتناثر على غربة روحي، لم أكن لأسامح أمي لكن لا أَحْمِلُ نفسي على كرهها، في نفس الوقت لا أقدر على لومها، فهي ككل الأمهات النائمات في مجاهل الماضي، تعتقد أن المرأة عورة، شيطانًا رجيمًا وكائنًا منحطًّا، تُوَرَّثُ ولا ترِثُ، وهي ليست إلا متاعٌ في المنزل ليس لها أي حقوق لكن عليها واجبات كثيرة، لم تكن أمي تحب البنات يومًا، وهو ليس بجديد عليَّ، كانت تردد «إن ظُفْر الولد بألفِ بنت»، أعرف ذلك وأتجاهله، وأقول إن لها يومًا تصحو فيه من غفلتها، ولكن ما دام غراب البَيْنِ ينعق أمامها وتسمع نعيقه فهي تخرق قوانين الأمومة العصماء، كنت أشتاق إلى يدها ذات الخاتم ذي الشَّذْرِ وهي تداعب شعري، وصوتها الدافئ ينساب إلى داخلي بلا إذن، لكنَّ صوتها الآن غريب مُوحش يثير في نفسي حزنًا غامضًا يكويني، فأقع أسيرة النشيج على وسادة مَلَّتْ ماء عيوني.

في خضمِّ هذا القار نسيتُ كل شيء، كل اهتماماتي إلا الأولاد، وصوت روحي المكدودة حين ينساب على الوقت. تشظَّت روحي وأصبحَتْ أشلاء ولن تعود كما السابق، تناسيتُ العطور والحرير والفراش الوثير والرغبات، نسيت أشياء كثيرة، لكني لم أنسَ أيامي المعفَّرة ودموعي الساخنة والصور التي لن تغيب لمحة عن خاطري، خاصة تلك الفترة الحساسة.

كان صوتها المُدافع عن (سليمة) يؤلمني، فأشعر بوخزة بعين قلبي، لعدم موازنتها في المعاملة بيننا، فكثيرًا ما أمرتني أن أذهب لتوصيلها أو مرافقتها إلى حيث تريد حتى لو كان إلى مدينة أخرى، ثم أعود وحدي. كانت تخاف عليها من الهَوَا، رغم قبح ملامحها الشيطانة، تُدَلِّلها وتتطلَّع إلى رضاها، وعند عودتي للبيت أجد الأطفال يركضون نحوي وهم في الشارع، كانت تحبسهم وتقفل أبواب العالَم عليهم، وعند احتجاجهم تطلقهم في الشارع ومِن ثَمَّ تغلق الباب. أحتضنُهُم حينها وأخفِّف عنهم وأُراضيهم ببعض التبريرات، فيَنسَوْنَ ما بدر من جدتهم، كان بلائي كبيرًا وفادحًا، آهِ لو كان أبي هنا! لما تجرَّأ أحد على إذلالي، وكل مرة لا أصل إلى أيِّ حلّ.

ظاهري متماسك، وباطني يقف على حافة الجنون، أضع رأسي بين ركبتَيَّ وأغرق في رمال القهر والمعاناة ككل مرة، وفي أحيان كثيرة أترك الطعام لأيام، ولم يبال أحد:

- لا تحزني هذه سُنَّة الحياة!

تقول أمي وهي تدافع عن كَنَّتِها، ثم تواصل:

- هكذا هي حكمة الله، حاكم ومحكوم، سيد وخادم، غني وفقير، الدنيا هكذا...

- هل ترضين أن أكون خادمةً في بيت أبي؟ هل أنا خادمة لكم؟

- لا. لكنك يجب أن تعملي على راحتنا ما دُمتِ هنا.

أجل، فقد سلبتِنَا راحتنا، هل تريدين قلع أرضية الدار معك لترضَيْ؟ كفى، إقامتكم طالت؛ عليك أن تعتمدي على نفسك، ألا يكفي هذه الفترة التي قضيتِها هنا؟

– أمي أنا بنتكِ! كيف تتحدثين معي هكذا؟!

– وإن يكُن.. ماذا يعني؟ حِملك ثقيل، إذا تريدين البقاء هنا أرسِلي الأطفال إلى أبيهم. وأنا قلت لك إن البنت قبل الزواج شكل وبعده شكل آخَر.

أهزُّ رأسي بالإيجاب، لا لموافقتها ولكن كي لا يطول الصداع، والحرج والخجل يأخذان مني الطاقة كلها، رغم أن كلامها لم يجد له قبولًا في نفسي، وتتنهد وهي تكيل المديح لكَنَّتِها:

– إنها بنت حلال، طيِّبة صائمة مُصلية، إياكِ أن تُغضبيها! تَرَا إنتِ وأولادك خرقتموها.

فأرد عن نفسي تهمةً لم أفعلها:

– أنا لم أضايقها في شيء إطلاقًا. أنت ترين ما تفعل؟ هل يعجبكِ أذيتها وتعنيفها وتنمرها على الأولاد؟

ثم أفاجئها بسؤال:

– أمي، هل المُطلَّقات عار على أهلهنَّ ومكروهات إلى هذا الحدِّ؟

– لا. ولكن عندنا عيب، أَلَم أقُل لك ألف مرة؟ نحن تعلمنا

أن المرأة عندما تذهب إلى بيت الزوجية لا تخرج منه إلَّا إلى القبر!

تنهَّدتُ، ومسَّدتُ على شعرها وعدلتُ جديلتها، اقتربتُ منها لأُشعِرها بحاجتي إليها، وهي تواصل كلامها غير الرحيم، لم تأبه بي، فحنقتُ من عدم تقديرها لموقفي:

- أمي، هل الطلاق سبَّةٌ وعار؟ ماذا تقولين أنتِ؟ وهل هو ذنبي؟ أليس هو من طلقني غيابيًّا وأنت تعلمين كيف ولماذا؟ ما ذنبي؟

- لا ليس سُبَّة، ولكن كان عليكِ أن تحتملي أكثر، وماذا يعني إن تزوَّج بأخرى؟ (قابل) وهل احترقت مراكب البصرة؟ الرجل له الحقُّ في المَثنَى والثُلاثِ والرُّباعِ.
(قالتها وهي تعد على أصابعها أمامي).

- أراك نسيتِ أنه طلقني غيابيًّا! غيابيًّا، ألا تسمعين؟ وكان مُصرًّا على تصديق الورقة أمام رفض القاضي. ولم أعرف سببًا إلا حين سمعت بزواجه، كان سبب طلاقي أنتِ، أجل، أنتِ يا أمي. ثم إنه أراد أن يتزوج، لأن القانون لا يسمح له بالزواج إلَّا بموافقة الزوجة الأولى، وهذا غير ممكن، لذا.. وللسهولة اتَّخذَ الطريق الأسهل، هل فهمتِ؟ طلقني غيابيًّا مِن دون علمي، ما ذنبي أنا إذن؟ وما ذنب أولادي؟ من الذي يجب أن يعاقَب نحن أم هو؟ هل تعاقبينني على شيء لا علاقة لي به ولم أقترفه؟!

كانت تصمت أمام انهياري، أصبحتُ لا أحتمل أفكارها التي تؤرقني، لا أحتمل تأنيبها المتواصل للأولاد وهم في غاية الصمت من ضجيج العِراك! الخوف والرعب والقلق من المشاجرات التي حصلت أمامهم بلا رحمة، وقد غابت عنهم الطمأنينة.

كانت المصائب أكبر مني، حتى أصبحَتْ ثقبًا أكبر من ثقب الأوزون، فالفرق كبير وشاسع بين ما تفكر فيه أمي وبين ما أنا عليه. كانت تتفوَّه بتلك الجُمَل والعبارات المهترئة، وتستنبط منها الأحكام، وتبني عليها حلولها غير المجدية، عبارات مضحكة مبكية، وحلول مسرحية كوميدية، تصلح أن تكون تمثيلية أو فيلمًا عربيًّا أو هِنديًّا تِجاريًّا، تصلح علاجًا لمُشكِلات النساء في الشرق الأوسط، وعَقَّارًا لجميع أنواع الكآبة والعنوسة والضجر. أسخر منها في سِرِّي، إذ بمجرد اطِّلاع المطلقات على بعضها، سوف يَعُدْنَ بدون مُشكِلة إلى أزواجهِنَّ، ويعيشون في ثبات ونبات ويُخَلِّفون صِبيانًا وبناتٍ، وعليها ستقِلُّ نسبة الطَّلاق المهُولة لدينا.

في تلك الأيام، أخذتُ أبتلع ما تقوله الوالدة، لأتحاشى الصِّدام والإيغال في عمق مشكلة لا طائلَ منها سوى الصداع، تجاهلت كثيرًا من أُطروحاتها، ولم أعد أحصر تفكيري فيها، أو أقف عندها، فكلها (يكّ حساب) (*)، كبَّرتُ عقلي بسبب أن

* نفس الشيء

«جِيبهَا مِنَّا، تحُطْهَا مِنَّا هي هكذا». ولم أفكر إلَّا في مستقبلنا المجهول، رغم هَبَّات التهديد والوعيد من قِبَلِ سَليمَة، في حاضر مَقيتٍ يزداد بشاعةً كلَّ حين.

كانت أمي توصي بنا
الترابَ
كانت تخيطُ ذاكرتنا
خلفَ الأبوابِ
تشدُّنَا إلى جذورِ
شجرةٍ متآكلةٍ
كانت تقولُ:
«هكذا هو قُداس الفِردَوْسِ
لا تَتَلاشَيْ في الريحِ
لا تدعي قلبك يزيغُ»
ولم يَزَلْ في يدي
خيطُ الخلقِ.

هذه هي الحياة؛ من يدخُلُها مفقودٌ والخارجُ منها مولودٌ. جمعت أولادي، تطلَّعوا إليَّ بعيون كَسِيرة، رَبَتُّ على رؤوسهم وقلبي تحت حوافر حصان هائج، يُطلِق رماحه على عيونهم، أين أبوهم الذي يقوم على رعايتهم ويسعى لإطعامهم،

ويُسَرِّي عن أرواحهم صوتَ الحزنِ بالأغاني؟ أين ذلك المستريح على أريكة القِوَامة؟ فهل في الصورة بعض ضوء لأرسم لهم صورًا من البهجة الكاذبة لقلوبهم الصغيرة؟ رأسي كاد ينفجر للحظة، تَرَجْرَجَتِ المَرَائِي وانقلبَتْ، تعكس صورة شمس حزينة، يُعرِضُون عنها، ثم يتطلَّعون بطرفة عين.

كان عليّ أن أُعَصِّبَ رأسي، وأحتضن الجَمر المُتهدِّل علينا بذراعين من حديد، وبرفق شديد كي لا تؤذي النارُ ثيابَ الصغار، إلى أن يأذن الله بالطيب، بِبَرَد أبيض يُثلِج الصدور، ولكي أنجو من الذعر، اقتنيتُ مَكِنَةً للخِياطة، وبعض (الكتالوجات) ونماذج للتفصيل، وقِطَعًا من الطباشير الذي يستعمله الخيَّاطون في تفصيل الثياب، مجموعة من الإبَر مختلفة الأحجام وخيوط ملونة، وجرت العادة أن أشتري جميع لوازم الخِياطة ومن بعدها الحِيَاكة من «سوق الشورجة» أو «سوق الثلاثاء» وأحيانًا من مَحَالِّ «شارع النهر»، لتمُدَّ رحمةُ الله علينا ذراعَها ونستظِلَّ بظلِّها تحت قُبَّته الزرقاء، وتشتغل مَكِنَةُ الخِياطة وتنطلق بخفة، كَزَغْرَدَةٍ مجلجِلَةٍ، تتردَّد في أرجاء المنزل، فتتطلَّع إليها عيون النساء، وليَتِمَّ أمرُ الله بخير، واعتادت النساء ألا يَدفَعْنَ بِنُسُجِهِنَّ إلى غَيري، ففي ذلك كلفةٌ باهظةٌ فالخِياطة أسرع وأقلُّ تكلفةً مِن يدي، ولا حيلة لي غير العمل.

كنت أُلازم مَكِنَةَ الخِياطة ليلَ نهار، وأصبحَ بابُ دارنا يُطرَق في صحوٍ ومنام. وبعد أن أنتهي، ينشأ فكري صعودًا فوق

النخيل مرةً ويهبط إلى باطن الأرض أخرى مع دوران عجلة المَكِنَةِ، وقد قضى الله أمرًا كان مفعولًا، صار الأمر يُؤلمني ويُخيفني فالفاجعة لي وحدي، ولا أكاد في الواقع أُصدِّق ما أنا عليه، صرتُ كبضاعةٍ بائِرَةٍ، وقد أجد نفسي عجوزًا بلا رُوحٍ يومًا ما، كنت أشعر بأن سكِّينًا قَطَعَ عنق أسرتي الصغيرة، ورَمَاهُ في نهرٍ آسِنٍ، هل هو مِهمَاز شيطان دائمٍ يقبعُ خلف سُور البيت وخلف جدران الحياة التافهة؟ كنت أتساءل دائمًا، تُرى هل سيُولد من ريحان حديقتي يومٌ يَمْتَشِقُ الوردَ ويغلب الجفافَ؟ هل أتمكَّن من ترويض سوء الطالع وانتصر عليه؟ أنا التي أحرقَتْ نفسها بثِقَاب الأمس وكَشَّر لها وجهُ التاريخ الأصفر؟ وهل سيُولَدُ صُبَيحٌ آخرُ يضيء العَتَمَةَ خلفي وأمامي، ويطفئ سعير القبح والكراهية؟ هل ستجري الأنهار وتستقرُّ السفن كما نشتهي؟ وهل يَلدُ بدرُ التَّمام معجِزاتٍ؟ ربما.

فالحياة هكذا رحلة لا نعرف كيف ستكون نهايتها، ولا نستطيع العودة منها إلى الوراء، وهي تدفعنا مُرغمين نحو الأمام، لذا لزامٌ علينا أن نُسَيِّرها بكثير من الصبر، ومزيج من السخرية والتعقُّل، وهذا الخِيار سيكون طريقي الوحيد لأكملها، فما أمامنا وما حولنا جدران عمياء، صماء، نشعر بينها أننا وحيدون ومُطارَدون حتى نتمنى لو لم نُولَدْ، رغم أن الأحداث تتلاشى كما تستمرُّ الحياة وتتلاشى، وكل ما يتبقى ذكريات محبوسة في قاع الذاكرة، أشغل نفسي عنها،

أُشاغلها، لكنها تدور في رأسي، فأتذكَّرُها جيدًا، إنني أتذكَّرها، كانت حياةَ مُحارِبَةٍ من أجل البقاء، صراعًا يشترك فيه الجميع، حياة يمزِّقُ أجواءَهَا الموتُ واللَّا معنى حين تتشظَّى وتمتلئ بالثقوب.

أدور حول نفسي، وتدور الأعوام فوق سقفي، كأن الحياة مَلَّتْنِي، آهِ كم هي خفيفة تلك الكلمات التي أكتبها الآن على الورق! وحين أتأمَّلُها أجدها لا تضاهي ثِقَلَ تاريخٍ سقيمٍ عشتُ فيه الموت ألف مرَّة ومرَّة، وداهمتني سيولُ المصائب، وقصص الشغف، الرغبات البعيدة المؤجَّلَة إلى ظلال غير مُسَمَّاة، الإحباط الذي يسعى نحوي حثيثًا، في مدن بلا أسماء، كلها صادَفْتُها عبر تَجوالي وشعوري المسكون بالأسئلة الكبيرة عن ماهِيَّة الحياة، عن اللَّا رِضا، وقد جعلتَنِي أتوقُ إلى روح الارتقاء، رغم لغة التقشُّف ومساحات الأَفْضِيَة الضيِّقة، لكني قطعتها بصبرٍ عملاقٍ مَنَحَنِي نفسي مرة أخرى، وُلدَتْ أسماء جديدة، جعلتني راهبةً لأرى وردة في أعماق الليل، أُصلِّي لأمنح نفسي وقتًا مخفَّفًا بابتسامة أبديَّة راضية قانعة، بوجه هادئ.

كنت عند كل إغماضة عين يهرب الزمن مني، لكني أعود وأنبثق كلَّ يوم في كل ضوء، أُجَمِّل مِرآتي بالمكياج لأخفيَ طعنات الضِّفاف والهالات عن وجْهِ القلق، ففي كل صرخة تنبَلِجُ نارُ روحي تحت لُهاث الدروب، وعندما تضرب الدماء قاع رأسي وحوافر أرجُلي، أتَّجه نحو طفولتي الغافية بعرائش

العنب والتين والزيتون، وقد غابت عني إلى الأبد.

حيرَّتني العَلاقة الصِّدَامية بيني وبين أمي، شيء يشبه لوحة سريالية سوداء، كنت كلما أغوص في أعماقها تنغرز أقدامي في صمغ نِيَّاتِها وقراراتها غير المُنصِفة، كانت كلماتها تصعقني بلا انقطاع، فَيَنخَرُ الصمتُ أسنان شموعي، ويبقى انتظاري الموشومُ بالأمانيِّ، فاصطدامي معها يعني زاوية نهايتي المعلومة، والطريق الآن محفوف بالمستنقعات والأخطار. ربما في أحد الأيام يكون لنا حديث، وقد كان هذا.. حين جاءتني في أحد الأيام لطلب مغفرتي وصَفْحِي متوسِّلَةً ببكائها الذي يقطِّع نياط القلب وهي تنحني لتقبيل يدي.

حشَرَتْنَا مع الأثاث في غرفة لا تتجاوز أضلاعها أربعة أمتار، تعايَشنا مع الأشياء في تلك الغرفة الصغيرة، كان كل شيء أكبر من عمري، فاجِعَتِي، قلقُ الصغار، المتطلَّبات التي أنهكت صدري، الحَيرَة الدائمة التي استقرَّت في تضاريسي. كنت أتمنى أن تصعد أمي وترى، فيُغسَل قلبُها بشواطئ حنانِها الذي لا يُبصر الطريق، لكنها لم تفكر يومًا في أن تمنحنا مكانًا آخر من البيت الواسع.

كان الحصار العام يسرَح ويمرَح، ويملأ أواني الأطفال بالتراب، وقد عُلِّقُوا بخطاطيف الموت والهلاك، الحصار الخاص الذي حرمني من تجاوز عتبة الغرفة، لكني بفضل الله تمكنتُ من العودة إلى العمل لأحتَمِيَ من لسعات الفاقَةِ

والحصار، فقد اتَّصل بي أحد الموظفين مِمَّن علم بظروفي ومَهَّدَ لِي طريق العودة.

كانت رحلة الذهاب إلى العمل شاقَّة جدًّا، كنت أستيقظ باكرًا لإعداد الفطور، ثم تهيئة الأولاد لاصطحابهم معي إلى الحضانة والآخَرُ إلى الرَّوضة، ثم أعود للعمل، وقبل أن تنتهي ساعات الدوام، أذهب في أثناء الظهيرة لِأَتَسَلَّمَهم من أماكنهم كي أعيدهم للمنزل، ومن ثَمَّ أعود مرة أخرى للعمل، كان المدير طاعنًا في السِّنِّ، كبيرًا في المقام، متعاطفًا مع صفحات أيامي المنبعجة، كان يستقبلني عند وصولي بوجهه الممتلئ بالعافية وببعض عبارات المجاملة، ويهوِّنُ علَيَّ، ومرَّات أخرى يردِّد بصوت مرتفع:

– ما هكذا تُؤخذُ الأمور يا سِتُّ، أن تأخذي الأولاد وتَدُوري بهم واحدٌ إلى الروضة، والآخر إلى الحضانة، وبعدها تعودين، ثُمَّ تُعِيدِينَهُما للبيت وترجعين، كيف؟ إن بقِيتِ هكذا سَيُكسَر عودُك قبل الأوان. ورعايتهم تحتاج منك إلى وقت طويل، اِرمِيهِم إلى أبيهم وانتهى الأمر!

أهز رأسي رافضةً تصريحاته الرنَّانة:

– لا، أستاذ. أنا لا أُجيد فراقهم، هم بحاجة إلى رعايتي في هذه المرحلة، وأنا بحاجة إليهم أيضًا...

– أجل، صحيح. إنك رائعة باهتمامك بهم، لكن الحِمل أكبر منك بكثير، أرسليهم إلى أهلهم ليهتَمُّوا بأمورهم، غدًا تزيد

احتياجاتهم وتُثقِل كاهِلَكِ!

ولم يكن هذا رأيَه وحده، بل كان رأي أغلب العاملين معي وكل من يعرفني، كانوا مندهشين لرفضي. على كل حال، كنت أشكر اهتمامهم بي ولطفهم العظيم في مساعدتي بتقديم بعض العون عند الضرورة، ومنهم تلك الموظفة ريهام، التي راحت تقدم لي النصائح حول رعاية الأطفال والعناية بهم:

– من المفيد أن يسمع الأطفال الموسيقا، أنا واثقة بأن ذلك يؤثر عليهم إيجابيًّا، يجب أن يستمع الطفل إلى الموسيقا في طفولته الأولى.

أضحك في سِرِّي، أيُّ موسيقى تلك التي تتحدثين عنها يا ريهام وأنت لا تعرفين حقيقة عِيشتنا؟ يكفينا النشازُ الذي نسمعه كلَّ يوم.

– أجل، أنا أحب الموسيقا جدًّا.

أردُّ عليها مماشاةً للحديث، وأقفاصُ الحزن تقفل قلبي بأقفالها الثقيلة.

ويبدو أن شَغَبَ سَليمَة كان يلاحقني، ففي أحد الأيام، انتهزَتْ فرصة عدم وجودي في البيت فعملَتْ على طرد وليد، صغيري المسكين، رمَتْه إلى الشارع وأغلقت الباب، وحين وصلتُ وجدتُه مُمدَّدًا على جنبه، يُطلق صرخات عالية ويمدُّ وجهه تحت عقب الباب ليُنجده أحد. حين رأيته جُنَّ جنوني، هرولتُ نحوه، حملتُهُ وأجلستُهُ على ركبتي، ورحت أتحسَّس

جسده الصغير وهو متربُ الخدَّين، صراخه لا يهدأ، كان المارَّة ينظرون ناحيتنا، طرقتُ الباب بقوة، وبعد فترة ليست قصيرة فتحه آدم ابني البِكْر، ومن خلفه كانت أمي تنظر بغضب:

- ما سبب هذه التصرفات الحمقاء؟ لماذا وليد في الشارع والشمس تُذَوِّب رأس الحمار؟ لماذا؟ مَن فعل به ذلك؟

قاطعتني الوالدة بعصبيَّة:

- على رِسْلِكِ.. على رِسلِك. ماذا حدث له؟ هل وقع عن السطح؟ نحن أخرجناه للشارع لينتظرك.

- حرامٌ عليك ما تفعلونَه به، أمي! حرام، كان يمكن أن يُصاب بضربة شمس أو يتعرض لمكروه أو خَطْف.. أي شيء.

أشار وليد بيده الصغيرة إلى جدَّته، ثم أعاد يده إلى خدِّه، إشارةً منه إلى أنها ضربَتْهُ كثيرًا ورَمَتْ به إلى الطريق. عرفتُ بعد حين أنَّ ذلك كان بتحريض من الكَنَّة الملعونة، كان هذا الحادث بعد ظهر اليوم الأول لذهابي إلى العمل.

كنت أعتقد لفترة طويلة أنها ستعتذر عمَّا بدر منها، لكنها لم تتحدَّث عن الموضوع في ذلك الوقت، فأصبحت الأمور بالغة الصعوبة بالنسبة إليَّ، وربما كان ما يزيدها صعوبةً حماقات الكَنَّة التي تكرَّرت مرَّات ومرَّات عديدة، لكني كنت أشغل الأولاد ببعض اللعب والهدايا والقصص التي تخلط بين الواقع والخيال، ثم نخلد إلى الصمت برهة:

- إنها سيئة جدًّا، لقد رأيتُها عندما جَرَّتْ (وليدًا) وضربتْهُ

وكيف رمتْهُ إلى الشارع.

قال آدم، ثم أردف باكيًا:

– وبالنسبة إليَّ لم أتمكَّن من ردعِها لأنها تنهرُني أيضًا، وحَقُّكِ ماما.. لولا أنتِ لكنت أوجعتها ضربًا...

– لا لا يا ولدي! إيَّاك أن تفعل هذا! كل شيء سيكون على ما يرام، حبيبي.

– صدِّقيني ماما، إنها تمنعنا حتى من شرب الماء والنزول من فوق، وتمنعنا من اللعب مع ابنها، وجدتي توافقها، وفي بعض الأحيان حينما أضع وليدًا في الصندوق الكرتون كي أُشاغله في الحديقة، يصَرُخْنَ في وجهي ويأمُرنَنِي بالصعود إلى الغرفة، ويُهدِّدْنَني بالضرب أنا وإخوتي إن لم أفعل.

– هوِّن عليك يا حبيبي، سينتهي كل شيء عمَّا قريب بإذن الله.

ثم أحتضنُهم محاوِلَةً تهدئتَهم، ولكي لا يَرَوا دموعي، أسمع صوت آدم وهو في أحضاني يلفُّ يديه حول إخوَته متوسِّلًا:

– متى نخرج من هنا يا أمي؟ متى؟ كلَّ مرة تقولين «سيكون الأمر على ما يرام»، ولا شيء يحصل.

هكذا كانت الحال، في تلك المرحلة وأنا أتذكَّر شذرات منها قبل أن تُحرقها الذاكرة، وقبل أن يرتحل جسدي ويغدو في طَيِّ النسيان، وقد اختلطَتْ فيه حوادث كثيرة، وطمستها

حكايات وحوادث أخرى مَحَتْ آثارما سبقها، ظَلَّت مخبَّأةً في صندوقِ رأسي، تنتظرني لأُزيح عنها تراب الليالي وأقدِّمها ذات يوم، لامعةً ناصعةً لا كذب فيها ولا لَبْس.

كنت أنا وآدم نتسامر في قعر الليل، ما إن ينام إخوته، حتى نتشاكى بعضنا لبعض كأيِّ اثنين من الأَحِبَّة والأصدقاء، نتذاكرُ حول أفضل الحلول الناجعة، رغم أنه لم يبلغ الحُلُمَ بعدُ. لقد كان مصعُوقًا من تصرفات جدَّتِه المباشرة وغير المباشرة، وهي تسكُب علينا سَيْل كلماتها الساخنة والغريبة، ومُذْ رأى مناظر الضَّيْم وصُوَرَ القهر المتلاحقة لَبِسَ حُلَّةَ الوَقَار والاتِّزان، وقد شابَ رأسُهُ واحترقَ، لأنه واكب كل الأحداث التي تقيَّأت أمامَه بكل بشاعة.

كنت قد طويت نفسي داخل قبو أحزاني الشَّوكية، فالطريق لم يزَلْ مُترعًا بالدخان المحتشد على أبوابنا، والرجاء خريف يهيج الإحساس، أروع أيام في الشباب قضيتها، السماء صافية، والأطيار صادحةٌ هادِلَةٌ هاتفةٌ، عجيب كيف يخفي هذا الكون الألم والقسوة أو الحزن والخوف أو الموت! مع ذلك.. كنت أحاول ألَّا تُكْسَر المِرآة بداخلي، كي لا تُغْرَزَ شظاياي في عيون الأطفال، كان عليَّ أن أُعيدَ تشكيل المجهول عديمِ اللون، وأن أكسر حاجز الخوف، فهم لم يتوقَّعوا كيف سأكون عندما أنتفض، وكما قيل «احذروا الحليم إذا غضب».

أريد أن أعيد ترتيب الأوضاع كما كانت، لا يمكن أن أستمر بهذا الشكل من السلبيَّة، وعلى الرغم من هَيَجَان المُشكِلات المندلعة كل حين، كنت أحفر طريق أولادي بمعاوِلَ شَتَّى، أنحتُ بِإبرة صخرةَ زماننا الصعب، كنت دائمًا ما أتضرع إلى الله، بنظراتي المُتَسَمِّرَة عليه وأصابعي المعقودة نحوَه، ليمنح قلبي القوَّة والثبات، أغرق في ملكوته الذي تمَلَّكَنِي كما تملَّك كل الأسماء، أدعوه أن يُظَلِّلَني بِظِلِّه، فأنا لم أطلب لهوًا أو نوادرَ لأجُوس خلالها، ولم ألتمِس أعاجيب القصص، ولم أبحث عن أقاصيص الحب والغرام، بل اكتفيتُ بقناعةٍ بما لديَّ.

كنت أعاني الضياع والاغتراب، رأسي كاد يتحطَّم من الأقنعة، فمن يَسمعُني حينما أتحدَّث إلى العقول بِغَير صهيلٍ أو تهاويلَ أو تخريفٍ، أو اختراقٍ لكل حواجز المنطق والذكاء والوقار الكاذب، بعيون غير منافقة أو كاذبة أو أنانية جبانة عمياء، ففي كل تاريخ الأنوثة لن يُسْمح أن يعلُوَ أو يُسمَعَ بكل حرية ومباهاة وكبرياء، فوق المنبر، إلا صوت الذكر، أو المنافق أو الدجَّال الكاذب أو الأبله، كائنٌ بكل الاِنحِطَاط الرُّوحي، تلك التي لها رَثَاثة اللذَّات.

لم تكن له عَلاقة محاكَمَةٍ أو معاتَبَةٍ أو محاوَرَةٍ بين لسانه وضميره، بين لسانه وعينه، بين قدرته أو إرادته أو نِيَّتِه في مواجهة كينونته أو أي شيء اِقْتَرفَهُ في حياته، وكيف لا يعمل الآخرون على إنقاذنا، أو حتى مداعبة آذانِنا كذِبًا لاحتمال

المعوِّقات المستهترة بالمفاجآت، وهم يفخرون بالإيمان والتقوى الذي يتفجَّر من آبار نفوسهم المؤمنة وأراوحهم وصلواتهم الهاتفة بالشكر والتمجيد؟ إلى متى يستفرغون علينا كذبهم، إنهم لا يستطيعون أن يَرَوْا جمال الإله إلَّا في دَمَامته وظُلمه وعقابه، ولعلِّي فطنت إلى الريح الزلقة، والنفوس المستذئِبة وهي تحلِّق حولي بأظفارها الوحشية، كنتُ أشعر بأني أسمُو فوق الحطام حين ذاك، حين أنصهرُ في ملكوت الباري وأمتزج معه في تَمَاهٍ عجيب، وهو يُحسن الإصغاء، فتبتعدُ عني أذرع الريح المرعبة والضحكات الصفراء، فأنا صاحبة القرار ولن أرضى بهذا الوضع المهين.

جلس إنكيدو أمام البَغِيِّ
وراح كلاهما يداعبُ الآخر
اِستمعَ إلى كلماتها،
أصغى إلى حديثها
ونصيحةُ المرأة
وقعت من قلبه موضع الرضا والقَبُول
أَخَذَتْهُ من يده كأنَّه طفل صغير
فأخذَتْهُ النَّشوة والبهجة.

(اللوحة الثانية – ملحمة كلكامش)

انتبهتُ إلى نشيجِ وليد وقد حَلُم بتفاهات الآخرين بسبب ما تحمَّله اليوم تحت ضراوة الشمس، حتى أصيب بضربة شمس، جعلته يرزَح تحت وابل الحُمَّى ومفارقات الكوابيس، في عيون الليل المقفلة. استمرَّت معه عدة أيام حتى ركدَتْ في دمه، فتوهَّج جسده الصغير وجبهته، كان يرعبني حين يهذي لساعات طويلة، فأحتضنه ليطمئن، وكان يشير إلى السقف ويردِّد:

- ماما.. ديد بابا.. كاكي لا...

كان يقصد بـ«كاكي» سليمة، إذ كان يناديها بكاكي، ويقصد الخالة.

- نعم سيأتي يا حبيبي، سأخبره وسيأتي.

يختبئ تحت جِنْحِي خائفًا، مشيرًا إلى السقف تارَةً وإلى الشباك تارَة أخرى، أطوِّقه وأحمله وأطوف به بين الباب والنافذة، وقد تقوَّس ظهر فمي بالدعاء ويبسَت كَفَّاي على الكمادات، أتقافز وحيدة، بكل صراخي المدفون، وخوفي المريع من أن يصيبه شيء، حتى ينبلج طوق الفجر عن صباح لا أستطيع أن أفتح عيني فيه، كنت أستغرب من نفسي، كيف أحتمل كل هذا التعب والصداع والتحطيم النفسي والجسدي؟! لا أحد يدري ما يجري خلف الأبواب المغلقة، لا أحد يسأل عنَّا، لا صحوة حنين تصافح قلوبنا من الآخرين، لا أيديَ تمتدُّ إلينا، أنا والسماء والطارق فقط، ومُذ ذاك الوقت

لم يترك الارتعاشُ يديَّ من فرط ما حرَّكَتْها أثقال الحياة، وشدَّتها برباط زمن مسوَدٍّ.

ألقي نفسي في حضن النهار من جديد، أتجمل بعطري الأخَّاذ، أراعي كمية من المساحيق والمكياج على وجهي المطفأ لتلافي زبد الأسئلة وارتفاع زفرات مَن حولي، بعد أن أغتسل لأكشط جِلد الليلة الفائتة، ثم ألعن زمن القشور، كنت أُخفي كل شيء عن البشر، لأبدو امرأةً صعبة الفهم غامضة، لم أكن أحب أن يعرف أحد بشأن طلاقي، أمَّا مع أولادي فكنت كائنًا آخر، فلم أكُن معهم يومًا جافة، أو أنهالُ بالصراخ والأوامر والتذمُّر، لم أكن متمرِّدة، خاصَّةً بعد تجربة السجن، تعلمتُ ألَّا أُبحر ضد التيار، كنت موجةً دافئة، أدعَكُ مسامات الصبح ليسقط الندى على جسد الأطفال.

كان بين الموظفين موظف في الأربعين من العمر، وقد أطلق عليه الموظفون اسم «شخلول»، كان يحاول نزع جلده بين حين وآخر، يحاول أن يحشر نفسه داخل صوته المترنِّم الدقيق النبرة، محاولًا أن يكسب محبَّة المدير بالذات لأغراض في نفسه، كان هذا الكائن كلما يراني يستقبلني بابتسامة عريضة:

- ماذا يجري لو قلتِ لي مرة واحدة «حمدًا لله على سلامتكَ»؟

أقاطعه بحدة، وأهزأ من لُطفه الفائض على الحاجة،

ومُيوعَة حديثه الفتَّاك:

- لماذا؟ هل كنت مريضًا أو على سفر؟

- لماذا تتجاهلينني كلما أحاول الاقتراب منك؟

أصرخ به، متجنِّبة إيَّاه:

- ابتعد! إيَّاك أن تتحدَّث معي بتلك الطريقة!

فيجترُّ خيبته حين يجد أنْ لا فائدة مني.

كان هذا الشخلول المخادع، «دون جوان» الشركة كما يحسب نفسه، معروف بغدره، ولم ينسَ الموظفون مؤاخذاته وابتزازه لمن لا يعرفه، وجهه العريض الأحمر، أسلوبه البارد، يملك القدرة على إخراس الألسن وكسب الجولات، كان يُغري حتى الشيطان بكلامه الناعم، ثم يتعوَّذ منه.

اختلف كل شيء في الشركة عند تَسَنُّمه منصب إدارة الشركة، بسبب إحالة المدير السابق إلى التقاعد، كان يقترب مني كلما وجدني وحدي. أرتعش، ثم أنهض لمغادرة المكان:

- لم لا تذهب؟

(أبادره قبل أن يتفوَّه بشيء).

- في ماذا تفكرين؟

أتجاهله.. فيبتعد.

في أحد الأيام جاءني تبليغ من المحكمة، وقد تَسَلَّمَه فهو المدير. بعد أن وقَّع على خطاب التسلُّم، أَرسَلَ في طلبي، ذهبت متثاقلة، فور دخولي نهض عن كرسيِّه ليغلق الباب بلطف، كأنه يخشى أن أصفع وجهه:

– ماذا تفعل؟ ماذا تريد؟

– اِنتظري، سأخبركِ.

ذهب ليأتي بظرف أسمر كان مفتوحًا فوق مجموعة من أوراق المكتب الأخرى، وأخرج منه ورقة ثم لوَّح بها أمامي، قرَّبها من وجهي، ابتعدتُ إلى الخلف متسائلة:

– ما هذا؟

– لماذا لم تخبريني؟

قال وعيونه تكاد تَخرج من محاجرها. انفرجت أساريرُه بابتسامة عريضة تعكس شعاعًا من الفرح:

– أتَدرينَ؟ لو كنتِ قد أخبرتِنِي من زمن لرأيتِ كيف سأكون لك سندًا وعونًا...

قاطعتُه:

– ماذا حصل؟ أخبرني. ما الذي تريد قوله؟

– لماذا لم تخبريني بأنك مطلقة، ها؟ أتخافين؟ أقسم لك إنني سأُشعل لك العمر مرتين، مرة لك ومرة لأولادكِ!

قاطعتُه مرة أخرى:

– وما الضرورة لأخبارك بأشياء شخصية؟ ثمَّ أخبرني، كيف عرفت؟ وما تلك الورقة؟

– إنها موعد لحضور جلسة في المحكمة من طليقك؟

– بأيِّ حقٍّ تفتح المغلَّف؟

– أنا المدير، ويجب أن أعرف كل شاردة وواردة عن الموظفين.

– أجل، والآن عرفتَ؟

قلت بصوت خفيض، وأنا ألعن الساعة التي رأيته فيها. استدرت للخروج، وقف أمامي مُسندًا ظهره إلى الباب، تحدَّث بصوت هامس وأنا صابرة على مضض:

– لا أريد أن يعلم أحد بذلك، أقصد كل من في الشركة، أجل أنا أخاف عليكِ، أخاف عليكِ جدًّا.

أطرقت رأسي غير مصدقة أيَّ كلمة مما قال:

– ممكن تفتح الباب؟ لديَّ شغل.

– أها. طبعًا.. طبعًا. تفضلي، ولكن لا تنسَي وصيَتي.

آه يا شخلول! لن أنسى هذا اليوم ما حييتُ، وقد راحت الأيام، وما راحت سماجة حكاياتك المكشوفة، وكلماتك المبطَّنة التي ترميها كطعم تتغذى عليها طرائدك، ومحاولاتك البائسة، أوهامك التي لا تنتهي.

الآن وأنا أكتب ما ينهمر عليَّ من الذكريات؛ أُقارن بين حنقي في الزمن القديم وبين الآن، وأتساءل عن ذلك الخوف والشكِّ الذي كان ينتابني من كل الناس، حتى طَفَرَت الدنيا من عيني. كرهت كل شيء، أحسست أن كل الأشياء مغشوشة، غير صادقة، لا معنى فيها ولا حقيقة، كرهت طيبتي وبراءتي في زمن بليد خالٍ من الخير والأُلفة، وبقيت عصيَّة على الفهم لآخَرِين إلى هذه الساعة.

كان الطريق المؤدي إلى العمل، مُلبدًا بالحصى والحجارة، يفتقر إلى الأشجار، السَّبَخَة تمتد أمامي على الجانبين، عجزنا عن إصلاحها بسبب رِشَا وفساد المسؤولين، لكن خطواتي منحتني الإصرار وهي تُبدِّد الألم من حولي، وتبحث عن فصول ربيعية دائمة الخضرة. قررت أن أفتح نوافذ التفاؤل بدون خوف وتردُّد، بدون قلق، فقد وقعت الفأس في الرأس، وليس هناك خلاص من واقع فُرِضَ عليَّ بالإكراه، أصبحت أُردِّد بداخلي أن كل الأشياء إلى زوال، ولا دائمَ إلا الله.

أنا حُرَّة، وتبقى القضية مسألة وقت، فالتغيُّر لا بُدَّ منه، كان هذياني وكلامي مع نفسي مستمرًّا، حتى لكأني أتحدَّث مع شخص معلوم غير خفي، ما الذي جرى؟ الجميع اِنْفَضَّ من حولي، خوفًا من أن أسألهم شيئًا، وقد يطول تراشق النقاش أمام عيوني المفتوحة حتى في أثناء النوم، وأسمعُ صوته يعلو ويحتَدُّ حينًا، ويهدأ أحيانًا أخرى. لا أعرف إن كنت أتحدَّى الحياة اِفْتِتانًا أم عقابًا، كان لزامًا عليَّ أن أتحدَّى الباطل، ألم

يكن الباطل زَهُوقًا؟ عليَّ أن أفقأ عيون الأكاذيب والادِّعاءات التي يطلقها بعض المقرَّبين، وقد تورَّمت الجفون تحت وابل السنين المنكوبة، ولم يبقَ لي سوى مائدة فقيرة إلَّا مِن جَمَال وجوه أطفالي. اعتمدت سُلَّمَ نفسي في كل شيء، ونُصبَ عيني «اللي ما له جبير يخلِّي عِمامته ويستشير»، وأنا حُرَّة في ما أختار.

كنت أتعذَّب لأجل أولادي، رغم زخرفتي لأَسِرَّتِهم وأغراضهم بما ملكت يميني، وفَجري غارق في البعيد المكفهر، غير المعلوم. ومع ذلك، كنت أسعى للبحث عن حلول قريبة تبلُّ شواطئها قلبي، قبل أن تكتنف الصحراء رأسي بصرخاتها الشاحبة، عسى أن ترسو سفني الغارقة بعيدًا عن دفَّتَيْ اليأس والقلق والتعقل والرتابة المملة، وعَلِّي أكتشف اختراعًا يهزُّ أرواحنا الصُّلبة، لتبتسم.

كانت الإقامة في البيت الكبير جحيمًا شاسعًا لا أفق له، إلا أني كنت أملأ الجدران بأسماء العناية الإلهية، لتُخفِّف عنا اللهيب. ذبلت الحديقة ببطء بشراسة المآسي بعد وفاة أبي، ووصل منسوب الجفاف فيها إلى حَدِّ بياض الأرض بالملح الذي تكوَّم على شكل تِلال صغيرة، حتى اندثرَتْ فيها الفواصل الناعمة والجداول الصغيرة، وطافت أعشاب طُفَيلية احتلَّت أغلب مساحة الأرض، وقد زَجَّتها فداحة القهر في رحلة وَعِرةٍ بأرض شائكة، في أنفاق العالم الأرمل.

كنت كل يوم أسير في الشارع المؤدِّي إلى رياض الأطفال، لإيصال حازم ووليد إلى أماكنهما، وقد نزلنا من العربة في بداية فترة الصباح، وقد هيَّأتُ لهما علب الطعام والبسكويت في حقائب صغيرة، كان هناك عدد غير قليل من السيارات والأشخاص الذين يواصلون السير في اتجاهات مختلفة، وكنت مشغولة مع الأولاد حين سمعت صوتًا جعلَنَا نتَّجه بأبصارنا إلى جانب الرصيف، توقفتْ سيارة مرسيدس كانت تسير بمحاذاتنا، نزلَتْ منها سيدة تسير بقفزات واسعة نحونا وابتسامة عريضة على وجهها، لم أكن أعرفها، وبدون أي تردُّد وجَّهت المرأة كلامها إلى حازم.

حازم مشهور بجَمَاله الأخَّاذ وشَعره الفاحم المسدَل على رقبته وغُرَّته اللامعة الضاحكة، هادئ الطبع جدًّا، حتى إن المرء لَيَنسى وجوده، حين أنظر إليه أنسى حياتي اليابسة والشوك والعَاقول، وأشبع من رؤية وجهه المستدير الرقيق، فيذهب تعبي، قالت:

– ما أسعدني بكَ، حبيبي! كم أنت جميل ورقيق!

أجلت بنظري في ما حولي، فشاهدتُ رجلًا مهذَّب الهندام يقبع في السيارة بانتظارها، كان يلبس سترة صيفية خفيفة، وقد بَدَا أكثر ترحيبًا بابتسامته الواضحة على وجهه المترهِّلِ الذي يُذكِّر المرء بخدود نوع من الكلاب، كان إلى جانبه ولد صغير في سِنِّ حازم، واصلَتْ السيدة كلامها بصوت مرتفع

وهي تنحني أمام حازم، ثم توجَّهت إليَّ بعبارات المجاملة:

– ما شاء الله.. كم هو جميل! كم هو هادئ! إنه مع ابني في نفس الصف ونفس الرحلة، هل تسمحين لنا برفقته يوميًّا؟

وواصلَتْ: إن ابنك.. ليس فقط جميلًا وهادئًا، أيضًا ذكي والجميع يحكي عن ذكائه، لذا أحببتُ أن يكون ملازمًا لِابني!

نظرت إليها بذهول، تراجع حازم إلى الخلف متملِّصًا من يديها حين مَسَّتْ أصابعها خدَّه بلمسة حنونة وخاطفة:

– إنه رائع حقًّا. ربي يحفظه ويحرسه.

بقيتُ صامتة بضع لحظات، مستغربةً ما يُحصل، ثم ردَدْتُ عليها وحازم يختبئ خلف ظهري:

– شكرًا لك.. مِن ذَوقكِ.

– يعني لم تردي على طلبي! (قالت وهي تهزُّ رأسها).

– أيَّ طلب، عفوًا؟

– لقد طلبتُ إلى المديرة أن تبلغك، أقول لكِ بصراحة أكثر...

– أجل. تفضلي!

– أنا عرفت أنك مطلقة، وأن حالتك المادية بائسة ولكِ من الأولاد غيره، ونحن لنا إمكانيَّات واسعة، لذا أحببتُ أن أساعدك بِشراءِ هذا الطفل الجميل الوديع...

قاطعتُها وصرختُ في وجهها وطردْتُها، ثم تراجعتُ بقبضتي المشدودة على يد أطفالي، وقلتُ لها بغضب عارم:

– ماذا؟ ماذا تقولين؟ هل أنت مجنونة؟

لم تصعقني الكلمة بل هدَّت كِياني، كأن عقارب الساعة خرجت عن مسارها وتوقف الزمن. اِنسلخَتْ فروة رأسي، لم أشعر كيف أصبح حذائي بيدي وأنا أصفعها على وجهها به، لعنتُ أبَاهم الذي استطالت لذَّاته ولم يُدرك أن المرأة التي أغْوَته فاسدة لاهِيةٌ بالرجال، استسلم لها فجرَّدته من ضميره، ولم يخشَ علينا نواشِبَ الخطر، وأنا رهنُ دَهرٍ مذموم يصبُّ زَيته الحارَّ على رأسي، رهنُ مخالبِ مُرابين يقتنصون الطَّرائد، كان صراخي حادًّا، انتفضَتْ شهامتي المخبوءة بنفسي، أخذتُ ألعنها علنًا، وأتابع حركاتها وسكناتها الخائفة حتى جعلْتُ المرأة تندم على الساعة التي رأتني فيها، لم يَدُرْ في خَلَدها أن كبريائي وزهوي لم يكونا إلَّا بهم، طردتُها:

– أقول لكِ اُغربي! كيف تُسوِّل لك نفسك أن تسأليني بيعَ ابني أمامي، ألَا تخجلين؟ من قال لك بأني بائسة أيتها الغبية؟! اُغربي عن وجهي هيَّا، وإن رأيتك مرة أخرى ستنالين ما لا يعجبك، هي هم عايزة أبيع أطفالي! لعنة الله عليكِ وعلى أمثالك يا حقيرة.

المرأة لم تُظهر ضجرًا أو مَلَلًا، توسلَّتْ مرةً أخرى ولم ينفع معها الكلام الجارح، جاء زوجها تاركًا سيارته، محاوَلَةً منه

لتهدئة الموقف، فبادرتُهُ:

- ألَا تخجل؟ أنت من طلب زوجتك؟ لازم انت باعتك أمك في السابق، هيَّا! إن رأيتكما ثانية أمامي، أو حصل مكروه لابني فسوف ترَون العجب، يلَّا مِنَّا، ناس طفيليُّون ضَيِّقُو العقول رفعوا الحياءَ عن جِباههم!

وقبل أن يتفوهَّا بكلمة أخرى، التقطتُ بعض الحجارة لأرميهما بها كما تُنَشُّ الكلاب الضالة، أسرعتُ الخُطى راكضة مع صغاري باتجاه الروضة، دخلت مسرعة أسأل عن المديرة، المعلمات اللواتي كُنَّ يتجمَّعنَ عند باب الإدارة استغرَبْنَ غضبي، دخلتُ على الفور وشآبيب الغضب تتدفَّق من رأسي كأنها ألسنة بركان جامح، صواعق رعدية، وشرارُ الشِّدة يغشى عيوني، اقتحمتُ غرفة المديرة، أمسكتُ بقميصها، وجهي قريب من وجهها، جعلت أذنيها تصطبغ اِحمرارًا:

- هل أنت مديرة أم تاجرة بشر تتاجرين بالأطفال؟ أتريدين بيع ابني يا نذلة؟ كيف تسمحين لنفسك أن تقولي لتلك المجنونة إن حياتي وحياة أولادي بائسة؟ كيف تجرؤين أن تتحدَّثي عني وعن عائلتي؟ من سمح لك؟! واللهِ اليومَ أفضحك في «التربية» والوزارة وفي كل الدنيا لأنك تحاولين سرقة أبنائنا للمتاجرة بهم، ونحن مطمئنُّون نأتمنك عليهم، أيُّ عرف هذا الذي تتعاملين به مع الأطفال؟!

قاطعتني مرعوبة من كلامي ويدها تضغط على يدي تريد الإفلات من قبضتي:

– لا شكَّ أن هناك سوء تفاهم!

– لا سوء تفاهم ولا بطيخ. إنك أردت بيع ابني، لولا المشيئة الإلهية. كم قبضتِ؟ قولي! كيف تجرؤين؟ سأفضحك. لن أرتاح إلَّا بفضحك وفصلك من الإدارة. وسوف أعمل على إقالتك لأنك ستعيدين الكَرَّة في روضة أخرى، تستغلون براءة الأطفال وتعملون ما تشاؤون، وأنتم على أساس المدرسة الثانية للطفل!

كان يومًا مشهودًا، كدتُ أجَنُّ من هول الصدمة آنذاك، حين وجدت نفسي في سَورة من الغليان والغضب، حاولَتْ أن تقترب مني مرة أخرى لتهدئتي، ابتعدتُ عنها، أمرَت العاملة بكأس ماء. وقالت متوسِّلة:

– أطمئنك، سيدتي. أقسم بالله نحن نحب ابنك أكثر مما تتصوَّرين، ونخاف عليه، فهو أجمل وأذكى طالب عندنا، كيف تتصوَّرين أننا سنؤذيه؟

– ما معنى تصرُّفكِ إذن؟ قولي، ما معنى ما طلبَتْهُ المرأة المخبولة؟ والله لن أُبقيكِ هنا...

خرجتُ مسرعة مع الأولاد إلى الشارع، لم أشعر بحالي، وقد اصطخب جنون الأمومة على أُمِّ رأسي، يا ناسُ القطة لم تتخلَّ عن أطفالها! أقسم إن قدسيَّتها لدى الفراعنة جاءت

من هنا...

سِرتُ مبتعدة عن البناية، لأبكي بصوت عالٍ، الأفكار تزأر كالوحش الكاسر أمامي، تسخر من قوتي، وما فعلت الأيام بحالي، نظرتُ بقلق إلى الطفلين وهما يحثان الخُطَى ليلحَقا بي واجِمَيْن. يا رب، من أين آتي بأبي ليأخذ حقي مِمَّن ظلمني وظلم صغاري؟ يا رب، أين أجد الأمان؟ الجميع يسعى خلفي، الدموع أغشت عيوني، شلالٌ يتساقط رغمًا عني. انحنيت لأطمئن عليهم، ما بال الجميع يتكالبون لنزع أقراطي يا رب؟

مسحت على رأسيهما، وهما ينظران إليَّ بغرابة وتساؤل صامت.

مشيتُ وأنا شِبه غائبةٍ عن الوعي، أفكِّر في ما جرى، شعرت أني عارية في خضمِّ هذا العالم المتذاكي، المخادع، وكل لحظة أتطلَّع إلى وجوه أطفالي الأبرياء، لأعرف مزاجهم، أُطمئِنُهم وأطمئِنُّ عليهم، أدركت أننا نعيش بين أناس مثقوبة العقول، كَسِيحةِ البصيرة، يتخبَّطون في تلك النَّتَانة المتدلية الأطراف، وهي تتدلَّى مثل نار تُنذرني كل وقت، تذبح أيامي بسكين صدِئٍ، كان كل يوم يمرُّ عليَّ يحمل ثقل سنوات من اللُّغات النَّشَاز، مئات الأرطال من المُشكِلات التي لا تنتهي، ولكن كيف سنعيش في عالم مقلوع الأضراس، وصراع الدنانير وتجار البشر وسماسرة الأخلاق يحيطون بنا بكل شكل؟ لكني أعرف نفسي، وسأقف أمام كل من يحاول

أن يعمل عملًا شائنًا يضرُّ بعائلتي، وسيأتي يوم تنحني لنا الجموع.

في ذلك اليوم عدتُ إلى الشركة لطلب إجازة، لم يعد باستطاعتي إكمال الدوام، دخلت وأنا قابضةٌ بيد من حديد على أيدي فلذاتي، رآني «الشخلول»، امتعضَ بأحرف غليظة، كان وجهي متعدد الألوان، وكنت في وضع لا يعبأ حتى بمواجهة الموت، ولم أجفل عند ملاقاته، وهو يومئ بحركات متسائلة، هازئًا كأنَّ سهمًا أصابه فأَصَمَّه. عند مشاهدتي برفقة الأولاد، كنت مستعدة آنذاك أن أطوِّح نفسي في النار لأجلهم أو أدُقَّ عنق هذا التافه المِهذار، فلا يرهبني رفضه، اِمتلأَ بشهيق اهتزَّ له صدره، ثم قال بطرف عين على سبيل المزاح والتَّفَكُّه:

– ماذا؟ ما شاء الله! هل اليوم أصبحنا رياض أطفال؟

– عفوًا.. رفقًا بنا، اليوم أنا مريضة؛ أرجو أن تمنحني إجازة.

حينها ساد الجميع صمت رهيب، قامت الموظَّفات مسرعاتٍ نحوي، بعد وُجوم، وهنَّ يُلقين نظراتهنَّ حينًا إلينا وحينًا إلى الأفق من النافذة، وقفنَ بجانبي يُغمغِمن بأدعية ليطمئنوا، قلت:

– هذه هي حالتي منذ يومين، لا أقوى على الحراك.

ارتبكنَ حائراتٍ، وتولَّاهُنَّ شيء من الأسى، ثم شيَّعنَنِي إلى الباب وهنَّ يهمِسنَ بكلمات الأسف للتسرِيَة عني، ويعتذِرنَ

عن عدم إمكانية مرافقتي.

كان اليوم رَعيشًا، تحت رماده نار خلَّفتها بداخلي تلك المرأة السَّوْءِ التي أرادت إطفاء بهجتي، بقيتُ رهن الهواجس، مُستَريبة، لا يهنَأ لي بال، كيف أَطمئنُّ على أبنائي وذاتي، وكيف سأسير إلى الختام.

أنشأتُ أغيِّر ملابسهم بعد دخولنا البيت المشؤوم، وبعد أن مررنا أمام نظرات أمي التي كانت جالسة في الصالون، وهي تنظُرُنا بطرف عين بدون اهتمام، لم أهتم للأمر، واصلتُ المسير ثم صعدنا السلم وأنا أحتويهم بين ذراعيَّ، حللت أرديتهم، وأبدلت لهم ثيابهم الخاصة بالبيت واللعب، جهزت بعض الفاكهة وجئت بلُعَبِهم التي يحبونها، تناولت ردائي الذي كنت أحبه بلونه الأخضر المبهج وشرائطه الملونة من المشجب، وأنا حانقة على مشهد اليوم الذي أطبق على صدري، نزلت إلى المطبخ لإعداد بعض القهوة ليهدأ ضجيج فؤادي، خرجتُ إلى باحة البيت الخارجية لأجمع بعض البيض من (عِشَّة) الدجاج، ومن دون أن أشعر خُسِفت بيَ الأرض، سقطتُ كُلِّي داخل فتحة المصارف القذرة وهي فاغرةً فَاهَا، وفيها الماء أسود كالمِداد وقد استحال الآسِنُ الراكد إلى مستنقع من الطحالب والحشرات، شعرت أن قلبي أصبح أسفل أقدامي، لم أكن أعلم أنها قد انهارت قبل حينٍ وقد وُضع عليها حصير من القصب، ولم ينبِّهني أو يخبرني أحد، فمشيتُ عليها بلا عِلم، تدلَّى جسمي داخل

الفتحة الواسعة، تعلَّقت بكُوعي بالكاد، واتكأتُ على حافة المخزن المهشَّمة، وأرجلي تطوَّحت في فضائه الفسيح المليء بالحشرات والقاذورات وجيش الفئران التي اتَّخذته ثكنة لمَأواها، حسِبتُ أن تلك ساعتي، ها هي قد حانت، تحاملت على نفسي أحملها وأرتفع بها كي أنقذ حالي، لم أتمكَّن، ناديتُ بصوت تحشرج من الفزع، مَن سينقذني الآن؟! فأنا في أقصى زاوية من البيت، ولم يعد لي رجاء في إنقاذي من الموت، معقول؟ أهكذا تكون خاتمتي؟ حاشا لله! اِرتدَّ طرْفي إليَّ، وأنا في ذلك الدفاع المتلاطم في الماء الآسن الراكد، صرخت:

– آدم! آدم الحقني! ماما.. آدم.. الحقني...

ناديت مرة أخرى.. وثالثة.. ورابعة بلا جدوى: آدم.. ماما.. أين أنت؟! الحقني.. ابتلعتني البالوعة آدم...

أخيرًا، طرق سمعي وطءُ أقدام آدم، شاهدني معلقة وعيوني جاحظة من موت مؤكد، فمدَّ يده الصغيرة نحوي:

– ماما ماما...

– تعال بسرعة أرجوك! أسرع!

بادرني:

– ماما.. كيف حصل ذلك؟

– هات يدك لا وقت للحديث الآن.

مدَّ آدم يده ليسحبني بكل ما أُوتيَ من قوة، فأنا لا محالة في وضع لا يُرجَى، أَطَلَّ عليَّ، ونظرت إليه في صمت واستسلام، وما لبثنا أن تعانقنا ونحن نضج بنحيب جماعي، لم أكن أظن أنني سأنجو.

جلس الأولاد يتبادلون النظر مع آدم يحاولون فهم ما حدث، يُدوِّرون أبصارهم بيني وبينه، مُتململِين متضايقين، ولم ينتهوا بعدُ من أكل فاكهتهم، حقًّا إنه لفصلٌ بارد، لن يخطر على بال، وربما ما حصل كان حكمةً إلهية لأنسى ما حدث اليوم، كما جرح زُوربا إصبعه لينسى فقيده، كان يومًا ترك في نفسي جرحًا بالغًا لن أنساه، جلست أفكر في هذا الحدث المفجع الذي جرى لي اليوم ولم أنسَ ما حدث للصغيرَيْن في الصباح.

لم يثنيني هذا الموقف عن عزمي في الذهاب إلى الوزارة لتقديم شكوى ضد مديرة الروضة، ففي اليوم التالي قدمت شكوى إلى مديرية التربية، قصصتُ فيها نبأ الحادث كما هو، وشرحتُ الأمر للمدير العام، وقلت له: «لعلك مدركٌ فداحة الأمر» فاعتذر عند سماع قصتي المفجعة، ولم أكتُمْه خوفي وقد شاهد اضطراب أعصابي، وكان الوقت مناسبًا جدًّا لي، إذ رافقَ دخولي وصول مجموعة من مفتِّشي الوزارة، وظَلَّ الرجل صامتًا لشدة دهشته لا يعرف ماذا يقول، حتى إنه بَدَا موزَّعًا بين ضيوفه ومشكلتي، وفي الحال سحب ورقة من مكتبه ليوجِّه بها أمر ببدء التحقيق مع مديرة الروضة، ما

جعل المفتِّشين يأمرون بتقديم كل ملفات مديري المدارس والرياض للاطلاع عليها، لوضع الشخص المناسب في المكان المناسب، ووضع خطط لاختيار الأفضل منهم.

(٤)

تقطَّعت خيوط الثقة بيني وبين أغلب الناس، بسبب ما حصل، وقد استعضت عنها بخيوط الحرص المتينة والشكِّ والحذر والتمحيص، فكل كلمة أسمعها، أو موقف أراه، أبحث عنه وعن أسبابه للحيطة والحذر من كل شيء. أصبحت أزُقُّ أولادي الحرص والحذر زَقًّا، مع الدروس اليومية التي يحفظونها، تحت ضوء الفانوس الشاحب، كانت لي حساباتي المختلفة التي أمارسها عن طريق القصص والحوارات، مع استمرار متابعتي التي أثقلتها أوجاع المسمَّيات والخسارات الجمَّة، حتى أنبتَتْ عالمًا معاقًا من حولنا، يموت من جرائه خصبُ اللغة وترتجف الملامح، ومرت فترة ليست هيِّنة، تغلَّب فيها شعورٌ على الأولاد بالخوف من الخروج.

تلك العوالم التي كشفَتْها تضاريس محنتي، وهي تؤسِّس في خفي الغيب ذوات عاهرة، تجوب أقدامها شوارع الأعمار وتصنع الأقدار، يومًا بعد يوم، وتفتَّحت عيناي على أشياء لم أكُن أراها أو أسمع عنها سابقًا، حتى سمعت آهات الناس الذين لا يعلمون مِن دنياهم غير الوهم، والعبودية العمياء، تتخطَّى فوق الأجساد، في زمن لا وجود لنا فيه، شاهدت أناسًا شاردي القلب، ينوءُون بالأرزاء، وقد قطعتهم سياط

البلايا وألقتُهم في خضمِّ الشقاء، وموج العالم المتكالب، عالٍ، هازئ لا يبالي بأحد، حتى تلاشى عزمهم وراح في إغمائِه المستديم.

فوق اِلتفافِ اللا جدوى
وشتلات الصور الباهتة
اعتدت أن أصفع سطح
النهر الراكد
بقصبِ الكلمات
أتشبَّث بحبلِ الصمتِ
على أيامي الآيِلَةِ للانشطار
فالوقتُ ذو اتجاهٍ واحد
في برودةِ العبور.

كانت أيام الحصار تعصف ببقايا الرجاء، وقد أصبح له في كل مكان ضريح، ونشيج قدسي مدلَهِمُّ الديباجة، هامت أحزان طويلة الأمد، هامت وسئمت جهل الهياكل الآدمية ومنتهى المصير، أطبق علينا الحصار فَكَّيْه، ولملم بكفيه بقايا الأمانيِّ، كأن الناس سكارى وما هُم بسكارى، عيونهم راقصة في محاريب النجوى، يتوسلون أن يزول شُحُّ الليالي، ويطوفون يرتجون القطوف، كل ذلك رأيته وسمعته،

فنسيت وجعي وسبب قدومي لهذا المكان القتيل، فقد اجتمع المرابون ومافيات التجارة والمال، ليَسعَدُوا ويغنُّوا ويرقصوا ويتشاوروا في ما ينبغي أن يفعلوه ويقدِّموه للناس في هذه المواجهة، عندما التقت القيادةُ القادةَ العسكريين والسياسيين والشعراء والكُتاب، تعانقوا، بالقبلات والأجساد، لِيَهَبُوا أحرَّ اللعنات للجسد العراقي الخارج عن كل اللغات، فعواطفه وأحاسيسه وأفعاله ليس لها تفسير، خاصة النساء، فليس هناك من يفسرها أو يتعامل بها أو يفهمها بأي لغة.

تكلموا طويلًا، ثم انتقلوا إلى القضايا الحادَّة الخطيرة، القيادة قالت بارتجاف ومودة مملؤة بالصدق:

- أيها الناس، إن لدينا نحن القيادة استنتاجًا أخطر من الحصار، لذا نشارككم الخوف والارتجاف، أن إسرائيل الغادرة تريد احتلال البلاد، احتلال الأرض، لتُخرج الكواكب من مسارها، تريد إغلاق منابع النهرين، وأن يأخذوا الشعب؛ -كلَّ الشعب؛ ليكون أسرى ورِقاقًا، بل تحتلُّ كل المراقد المقدَّسة: كربلاء والنجف، وتسرق المصاحف والحديث، لنصبح بلا قرآن أو أحاديث، ثم تشرب النفط الذي هو كل التاريخ.

وعند كل تحذير من هذه التحذيرات يرد الناس كلهم، يكرِّرون نفس الرد بكل ثقة:

- لا لا.. لا تنزعج أيها القائد، كلنا فداء لك أيها الرئيس،

فأمجادنا تحكي...

يقاطعهم متصاعدًا في ضجره واستنكاره وإعجابه بنفسه، بل وفي سخريته واشمئزازه من الجاهلين بأمجاد المعارك والصولات:

– لقد قلنا لكم إن أمامنا عدوًّا مبينًا، أنتم لا تقرؤون التاريخ ولا تعرفون اللغات، لكنكم تعرفون أمجادنا وانتصاراتنا التي صنعناها بالدم، وأن العمل والبناء لا يَتِمَّان إلا عندما تؤمنون بالقيم العليا والمبادئ السامية، وأن الإبداع سيتوقف عندما يضعف الإيمان في النفوس، وأن شعبنا العظيم يستحق منا أن نخدمه بعيوننا. ها هي سنوات الحصار المنصرمة لا أشد قسوة منها، وهذا العام هو الأكثر قسوة، ذلك هو العام السادس من الحصار الخاسئ الشرير مع كل صعوباته.

وكما هو دَيدِنُ العراقيين أصحاب الجوهر الأصيل، فقد حققوا انتصارات في ميدان فعل الإرادة الواعية الصُّلبة بصورة مؤثرة وحيوية رغم الصعوبات، وما زالت تَذكُر له مواقفه لكي تعمِّق هذا المعنى له وفيه، ساحاتُ القتال في سيناء والجولان وفي أرض فلسطين المحتلة في جينين وكَفْر قاسم ونابلس، وطُولْكَرْم، ومحور الهوَّارة/قلقيلية، و«راموكوفتش» وموقع روتنبرغ في مستعمرة كيشر على نهر الأردن، ومرتفعات قرية «كوكب الهَوَا» غربي كيشر وقرية «المجامع» ومستعمرة «كولف» وقرية «زرعين» و«راس العين»، ومستعمرة

«كَفْر يونا» وكاخون والطيرة. وكان له دائمًا شرف مساندة أشقائه أو ضمن قوى التحسب مثلما كان تواجده على أرض الأردن الشقيق ليصد احتمالات العدوان الصهيوني عندما ضعفت جبهة الأردن إثر عدوان ١٩٦٧م، وبقي جيش العروبة هناك قرابة ثلاث سنوات ولم يعد إلى معسكراته داخل قُطر العراق إلَّا بعد «أحداث أيلول» التي حصلت في الأردن.

خرج آلاف المدنيين من الرجال والنساء في مسيرات في شوارع بغداد تأييدًا للرئيس في تحدِّيه للحصار، آهٍ كم يجب أن نحزن ونتأثر! إن كل أمجاد التاريخ لا تساوي أمجاد تاريخنا في الحصار، ارتاعت السماء من مشاعر الهوان والحَيرَة والانكسار ممَّن سمع عن الحصار، لأنه لم يسمع عن الحصار ومجده.

إننا نسترحمكم أيها القادة الكرام، نستجديكم، نصلِّي لكم، نمدُّ أيدينا وآمالنا إليكم أيها القادة الرحماء، جودوا علينا، تصدَّقوا على الشعب المسكين وعلينا بشيء من هذا المجد، علِّمونا، هَبُوا لنا شيئًا منه، أليس الكرم كله كرمًا عربيًّا؟ ألستُم تعلِّمُون أبناءكم أن العالم لم يتعلم شيئًا من الكرم إلا من العرب؟ فسِّروا لنا أيها القادة، نحن سكان الأرض، ومثلنا حظنا البائس المنبوذ، محتاجون إلى أن يكون لنا خبز ولو قليل، ليزيد من كفَّة المجد، علمونا، هَبُوا لنا شيئًا منه، عبَّدْتُم طريقنا إلى الخراب، أرهبتمونا وذَلَلْتمونا، بل سحقتمونا بحديثكم عن المجد والصيام من أجله.

أتذكَّر حيرتي ونحن في ظلام الفناء الدامس الذي حطم أرواحنا، أتذكَّر إلحاحه المفرط تلميحًا وتصريحًا «عليك بالإنجاب، لنكون أسرة وأنا رب أسرة»، ربٌّ لا يعلم ما قرَّره الرحيل والاستسلام للشهوات. «عليكِ بالإنجاب فالأولاد والمال زينة الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾»، وها هو يضيع، يغيب عن السرة من غير أي احترام.

ساد صمت، أصبح الجوُّ خانقًا، اتَّجهتُ إلى غرفة النوم للبحث عن محفظة النقود التي لم أعثر عليها، اتَّجهت منفعلة نحو ظلام الممر حتى غبنا فيه، عالمي يرتجُّ ويُنذر بانهيار مروِّع. «هكذا تحطّمني يا أحمد؟!» أحدث نفسي، بُعثرت رؤانا، تحطَّمت أركان نفسي. حين لم أجد في خزانتي أو في محفظتي نقودًا لشراء عود ثقاب، بدا صدري كمغارة تغلق بابها على بركان على وشك الإفلات، فماذا أنا فاعلة بمبلغ لا يبلُّ ريقًا أتسلَّمُه نهاية كل شهر، ويبدأ بانتهائه انتحابُ الأهداب، كأنَّ صورة المشهد والموقف واضحة أمامي الآن، أتذكَّرها بحذافيرها وتفاصيلها الأليمة، ما حييت.

كان الظلام دامسًا، الأولاد يقفون إلى جانبي مُمسكين بذيل ثوبي، التصقوا بي، في حَيرَة الصمت الأزرق الذي غلَّف المكان، أسرعت إلى المطبخ لأبحث عن عود ثقاب فلم أجد، خُيِّل إليَّ أنه في غير مكان، طلبتُ إلى آدم أن يسرع إلى المحل القريب، وفيما أنا أواصل كلامي، استطعت أن أراه وهو

ساكن في مكانه بلا حراك، حين أحاط بوجهي سؤاله الذي بَدَا بائسًا، سألني أن أمنحه ثمن عود الثقاب، فقلت بصوت دفين وخجل عارم، بأني لا أملك قرشًا واحدًا، أخبرته أن يأخذ بـ«المؤجَّل»، كانت لحظة قاتلة بالنسبة إليَّ، لقد هان كل شيء إلا المجد، لقد هان كل شيء وصغر أمام حديثكم عن المجد أيها السادة، هل هو أُلوهيَّة من نوع جديد؟ أيها القادة فسِّروا لنا أحاديثكم عن المجد هذا ليفرض علينا تصورات أخرى، لحظة وجدت نفسي فيها مكسورة بأشياء صغيرة، كبيرة في حاجتها، كسرتني القشَّة وأجهضت قواي، شعرت أن وزني مهزوم محروم جائع أبدًا، وبأن روحي خرجت من بين يدي المطبقتين.

لحظات مرَّت لم أرفع رأسي، كان عليَّ أن أبذل جهدًا آخر، وأن أجد عملاً إلى جانب وظيفتي، لمعت تلك الفكرة في رأسي عَلِّي أتجنب عَتَمَة السؤال، وتنقشع عباءة الحاجة من سقف بيتي، لم يكن حينها أحد سوانا في المنزل ليساعد في الإضاءة، بعد لحظة سكون، انكمشَ آدم وقد كساه اليأس، واضح إنني لن أهدأ بعد هذه الليلة العابسة، لا فائدة من الكلام، ارتبكَ آدم ليُثبِت نفسه في أي شيء يقوله، جمع قواه وقال قبل أن يتَّجه إلى خارج المنزل:

– هل وصلنا إلى هذه الدرجة يا أمي؟ عليَّ أن أتصرَّف.

– ماذا تعني؟

– لو سمحت، ماما، لاحقًا سأخبركِ.

– لماذا يا حبيبي تقول هذا؟ كفاني وقوفك إلى جانبي. إني أريدك أن تهيئ نفسك للدراسة في أكبر الجامعات، كيف ستحقِّق هذا؟ لا تشغل بالك؛ أنا موجودة.

التفَتَ نحوي، وقد انتفضَتْ في عيونه نظرة الحزم والحسم، نظرة التهيُّؤ لشيء ما، تابعتُ حواري الداخلي: «طبعًا هو لن يستأذنني، فهل يودُّ أن يصفع الأيام التي انهالت على وجوهنا؟ لكن كيف؟».

أنعشَتْ قلبي فكرة أن أذهب إلى السوق في اليوم التالي وأقتني المواد الأوليَّة لتجهيز بعض الأعمال اليدوية، أخرجت بعض الأشياء لبيعها في اليوم الثاني، على أن أحصل على ثمنها الذي سيساعدني في هذا الشأن. بِعتُ بعض الأثاث بسعر لا يكاد يصل إلى ربع ثمنه الأصلي.

ثم سافرت إلى كربلاء، تلك المدينة المقدَّسة التي تعجُّ بالتجارة والتجار، دخلتُ السوق الكبيرة التي تكوَّم على جانبيها الباعة، نسوة كثيرات وفتيان وأطفال من كل الأعمار بملابسهم الممزقة البالية، وقد ملأ وجوههم المُخاط والرمد والقاذورات، وفاحت منهم رائحة عطنة، كانوا يتقافزون ويتصايحون وهم يسدُّون بِلُعَبهم طريق المارَّة، كنت أتابع هذا الضجيج من أعماق نفسي خلال الزحام الذي يسدُّ عيون الشمس، أتساءل.. كيف لهؤلاء الصِّبية أن يكونوا بهذا

الصفاء النفسي والفكري وصهيلُهم العاجز عن الهناء الضائع المهجور أبدًا يطاول عنان ملائكة السماء؟!

لقد تبيَّن أن كل ما يقوله الساسة وما يفعلونه، كان بعيدًا عن صياغة حياة هؤلاء الصِّبية، فما فائدة كل الأفكار والنبوءات والتعاليم التي لا تحقق تاريخ هؤلاء؟ شممت رائحة العطور الزيتية وهي تثقب الرئة وتزكم الأُنوف، سالت دموعي لشدتها، كأنها تريد أن تقول لي «لا تنسَيْني»، كانت تَشْدهني وتُشْهِدني، أجذب طرف عباءتي لأمسح دموعي، ثم أحاول رفعها وتسويتها من جديد كي لا تنزلق، العباءة التي سبَّبت لي محنة كبيرة، حتى جعلتني أخيط مقدمتها من الأعلى إلى الأسفل لأتخلَّص من مشاكساتها.

كنت أحتفظ بتلك الصور التي تركت بصمتها على جبهة قلبي، وشكَّلت ألبوم ذكرياتي النائمة في صفحات نفسي، فقد كان يصيبني الدوار والغثيان حينذاك، وأشعر أن السماء تدور فوق هامتي، خاصة عندما ترتفع تهاليل الزوَّار، وتطيش منتشرةً في الجو اللاهث وهي تسابق مكبِّرات الصوت في قُوَّتها، فتزداد ظلمة روحي وتختفي عن عيني نجمة أملي الوحيدة التي أتَشَبَّث بها، و(يَامِنُ) يشدُّ رأسي المصدوع، لقد ضاعت وماتت بلا ثمن كل تعاليم المفكرين والمرشدين على أبواب التيه الواسع الفاصل بينهم وبين الإنسان.

أحثُّ الخطى لأجمع ما اقتنيتُ من أشياء لعملي الجديد، لأعود إلى مدينتي قبل أن تسدل أستار الظلام، أجلس بجانب النافذة، الحزن يَمخرُ عُباب روحي وذاتي، ويملأ دِلاء الشوارع، أفكر في الأهل والإخوة، لماذا انفضُّوا مسرعين بعد أن كانوا سابقًا لا يودون فراقي؟ لكني عرفت وحسب، إنهم أصوات فقط، إنهم يقولون شيئًا ولا يعنون فعله، رغم أنهم يتضرَّعون ويتوسَّلون في صلاتهم ليهبط عليهم الكمال، بعيدًا عن موهبة الشهامة والنخوة والسخاء والعطاء والرحمة، قد تتحرك الكبرياء، لكن بفظاظة ووقاحة تهزم أمامها كل قباحات العالم، وتكشف عن كل الادعاءات والصراخ، في الشِّعر وفوق المنابر وفي أفواه القادة.

تلمستُ كيس الأغراض الذي التصق بصدري، تعالت بعض الأصوات عندما تعثَّرت العربة، فدفنت شهقاتي، كأني أخشى أن يراها أحد، أضع رأسي عند زجاج النافذة وأرمي عيوني على الأرض القاحلة، وقد حفظتُ أعداد حجارتها وعرفت قياسها الذي عبَّدتُهُ بمجيئي، الطريق الذي تمدَّد على وجهي طيلة هذه السنين. آهِ يا نخوة الأهل كم أنت ضخمة! جبارة وقهارة، فوق عرش يتغذى على الضياع والإهمال. كنت أعود مسرعة لأجهز العشاء للجميع، رغم تراب السفر، وبعدها أتهيَّأ لعمل زخرفاتي المبلَّلة بالدموع والأسف، كنت أحملها وأحتضنها كأنها طفل صغير بين يديَّ اللتين لا مثيل لهما حين أصبحَتَا قوارب وجسورًا، لن أنكر ولن أنسى أنها

أعانتني بإيقاف حركة الكون المفجوع رغم قِلَّتِها على ثَلْمِ بعضِ أسنان الحاجة الكافرة، صدَقَ من قال «نواةٌ تسنُدُ الزِّير».

كنت أعود متعبة، وقد لسعتني حرارة الشمس، وغزاني رعب الطريق الموحش، أذهب وأعود مسرعة بدون تفكير في أخذ قسط من الراحة، أو حتى التوقف لحظة لشراء قنينة ماء أروي ظمئي، كنت أعود لأسابق الوقت عَلِّي أُنجز بعض الأعمال، لن أنسى شفاهي المبللة بالعرق وأنا أنسج وأسُفُّ الحُصُر من القصب، أو أطوي ما نسجته يداي من الليف، كنت أُخمدُ صوت المَكِنَة ببعض الأغطية لأواصل إكمال خِياطة الملابس للناس في بطن الليل، لن أنسى جسدي المحموم ولسعة الألم بأطراف أصابعي، وهي كمنقاش نار تقتلع أحشائي، حين لا أكترث بها وأواصل إصراري على الاستمرار في تجهيز وحياكة (البلوفرات) الصوفية إضافة للأعمال الأخرى.

– أمي ألَا ترتاحين قليلًا؟

يجيئني صوت آدم مغمومًا، متقطّعًا، وأنا أضغط برجلي على دواسة المَكِنَة.

– أنا متعبة حبيبي، لكنَّ عليَّ إكمال الطلبيَّة، اِذهب أنت وحين أكملها سآتي، ليتك تساعدني على توصيلها إلى أصحابها غدًا.

– لا يا أمي. سأبقى بجانبك لأساعدك إن احتجتِ إلى شيء.

لوَّحت له بذراعي أن يبتعد، ووجهي منكَبٌّ على ما بين أصابعي، وهو يواصل كلامه:

– ليس مهمًّا أن تكمليها اليوم، أكيدٌ الناس تقدر ظروفك، أكمليها بعد أن ترتاحي يا أمي، أرجوك!

يقترب مني ليُقبل رأسي قبل أن يذهب.

كنت كلما تنتهي المؤونة، أسافر لأشتري منها، وفي هذه المرة اصطحبتُ حازمًا وكانت المرة الأولى والأخيرة بالنسبة إليه، لم يكن حازم قد تجاوز السابعة حينها، براءته الفادحة، هدوؤه الجَمُّ، حُسن مظهره، شعره الفاحم المسدَل على كتفيه، تجعل يومي باسمًا رغم ألمي، اصطفيتُهُ ليكون رفيق دربٍ يخفِّف مِن توتُّري.

حين وصلنا، توقفت لبرهة، لإعادة تثبيت العباءة، عيون حازم تطوف مذهولة في كل الأرجاء ينظر إلى الإعلانات الضوئية، الأعلام الملونة، المَحَالِّ المليئة بالحلوى ولُعب الأطفال، أسراب الناس والأطفال والنساء والشباب الذي لا يُحصى، فلاحون وعُمَّال وكَسَبَة، من كل الأعمار، سِرنا باتجاه المراقد، وبعد الطَّواف المعطَّر بنفحات الأئمَّة، جلسنا نتأمَّل القناديل والإنارة الساطعة والمَرَائِي العاكسة والإعلانات الضوئية الملونة تتألق كبريق نجوم على صفحات أحزاننا، أضحكني الصغير، حين انقطع نَفَسُهُ انبهارًا بالمكان، غاص

في حَيرته وأمانيِّهِ، تحسَّس أصابعه، ثم مدَّ يده بتلقائية إلى خدِّه، كأنه يتيقَّن من وجوده، مبهورًا بحركة الناس، والمَرَائِي والألوان.

كان المكان دوَّامة بحر، سُحُب دموع يجترُّها الكون تعبيرًا عن بعض الأحزان، تنطفئ فيها شموس العالم وتتساقط المجرَّات، ليتحوَّل كل شيء إلى مأتم، يتلقَّى الإمام عزاء الحزانَى بهم ولهم، تنهال الأسئلة تحاصر الشموس، تحاصر النجوم، تقول لها «أخبري المجرَّات، والشموس الأخرى، نحن محاصَرون بالفاجعة أيَّتها الأرض الكونية». هل يعرف الأب غير العربي فاجعة أي شيء يُقال عن الأبناء؟ أمَّا العربي فقد رأى وقرَّر عدم الحديث، ويظلُّ الآباء يمارسون ذنوبهم وألاعيبهم بلا أي وَقَار أو تقوى أو شهامة أو توبة، وكذا يَضرسُ الأبناءُ من حصرم الآباء من دون أن يستطيعوا حساب النتائج.

خرجنا، فكَّرتُ أن آخذه إلى دورة المياه القريبة قبل الدخول إلى السوق الكبيرة، كان المكان ضيقًا جدًّا، لا يسع الأعداد الهائلة من النساء والأطفال، المكان قذر، الرائحة تزكم الأُنوف ويتصاعد بخارها مع الأنفاس. بعد أن غسلتُ وجهه ويديه وضعتُ عباءتي ومحفظتي في حضنه لأغسل وجهي، وما هي إلا ثوانٍ، حتى ألقى حازم بجسده بين أحضاني وهو ينتفض، وأنا أحاول تهدئته، سألته ما الذي أرعبه، ما الذي أخافه، انفجر بالبكاء وانفجر معه بركان داخلِي أيقظ قلبي الموجوع حين قال إن امرأةً أخذت منه المحفظة، التفتُّ باحثةً عنها

فورًا، ذابت في الزحام، صرختُ، وسألتُ، فأصبحتُ فرجة ابلاش، كانت صدمتي لا تُوصف، صُدِمت، لم أصدق ما تراه عيني، فهل يمكن للمرء أن يسرق وهو في حضرة الأئمة والأماكن المقدَّسة؟! كنت أستغرب حين أسمع داخل الضريح التحذير من السرقة والحثَّ على الاهتمام بالحقائب، أيمكن ذلك؟ طيب، هل جاء السارق للبركة أم للسرقة؟ وهل يوجد أحوج إلى التوبة من هؤلاء؟

رِزْتُ النساء الواقفات من أخامص أقدامهن إلى قمم رؤوسهن، نظرت إليهن بإمعان، للوقوف على أيِّ حركة شاذَّة قد تفيدني، وحين رأيت ردود الأفعال السلبية، لم أصدق عيني، بكيتُ حتى كدت أنكفئ على وجهي، بكى معي حازم، أجل بكى، لأن الدنيا لعبة في يدِ ذوي العقول البليدة، ثم تعلِن الزعامات المصابة بالغرور بأسلوب ودِيٍّ صادق، خطابيٍّ منبريٍّ، توبَتَها وبراءتها!

عليَّ أن أهدأ من كل ما كان، كان حازم قد لاحظ اضطرابي تحت وطأة الموقف، فغضَّ بصره وأطرق ثوانيَ، رفع رأسه ليقول إنه يريد العودة، والحقيقة أنني كنت قد عقدت العزم على العودة إلى البيت، قبل نظرات الصغير، فلا طائل من بقائنا هنا بعدما سُرقت أموالنا، وقد ضاع الخيط والعصفور.

كنت مثل القطة العنيدة، بمحاولاتي لعبور أسنان الموت، فتارَةً مكبوتة بصرامة التقشف، وتارَةً مستسلمةٌ للأفكار

السوداوية التي قرعت بداخلي أجراس الانتحار، لقد مِتُّ عدة مرَّات، كل سنة أموت بعدد أيامها، ومرة يلُوح لي مصباح ناري، يكوي جبهتي وأقدامي، ثم أعود بِلومي على الحذاء لا على الأقدام.

كان وجهي بلا ملامح، تلتهمه الحَيرَة وحالات التعب، لا يروقنِي سماع النكات، لا أخوض في أحاديث ونقاشات النساء، ونتيجة هذه المرحلة الطويلة، تملَّكَتني طباع جديدة من الصرامة والوجوم، لم يبقَ أحد إلَّا اِستغرب حالتي، قرعتُ أبواب الثلاثين من عمري، رغم الزينة والتبرُّج الناعم، صرت أتأرجح بين الأقدار مغلقةً القلب، على غرار أيِّ جثة بلهاء، أمارس الكلام المُمَسْرَح، بوجه هائم بين الضحكات، كنت أضع يدي على ندوبي وأُصغي، أقيس ثمن أمومتي الباهظة، أمومتي التي ألهمتني الرماد، وأحضان الآهات، منتظرةً القطاف، كي تلمع أوراق فسائِلي الصغيرة، كنت أتسابق مع الوقت، في شَقِّ سواقي الأملاح ونحْتِ الصخر، تحت ضوء النجوم الخافت، بانتظار أن تنمو بتلاتي بألوان خالدة، لأحلم أني أمشي بينها مزهوَّة، وفي أثناء نومي، يُخَيَّلُ إلَيَّ أن وحشًا مخبَّأً في الظلام، ممددٌ على طول سقف الغرفة، آنذاك أنهض لأنساب بين طيَّات الأغطية، بعد أن أتحقَّق من أقدامهم العارية، كأنها تقول لي «كفانا مشيًا يا أمي»...أنظرُ إلى وجوههم الباسمة لحلم فضي، ما يزال يداعبهم، فتقطر حبَّات الحليب على الشفاه، أضمهم مثلما عبَّاد الشمس

يضمُّ قلبه، حينما يغزو الظلامُ الحديقة.

كثيرًا ما يُطلق وليد صرخات، ثم يستيقظ مفزوعًا في جوف الليل، وكثيرًا ما تراوده الكوابيس، وتُطبق بأصابعها على صدره، فأُهرَع إليه بخوف عارم، وهو يصرخ عاليًا، أُجلسه في حِضني وهو ينظر ناحية الباب، كان لم يتجاوز الرابعة، أُمسك يده، وهو ينظر بخواء إلى وجوه إخوته من حوله، أحيانًا يسعفنا آدم، إذ ينحني على أذنه ليقول بعض كلمات تثير ضحكاته، ويَعِدُهُ بأنه سيشتري له في الصباح بعض الحلوى، وقد فاجأه في أحد الأيام بِسَلَّة تنام فيها قطة صغيرة.

أُغمضُ عينَ الوهم
عن قلقٍ يرتشفُ الأكاذيب
أسيرُ على ما تبقى
مِن خذلانٍ مرتجف
ووعيدِ الطريق
خوفٌ وضجيجٌ
يسمعُ صفيرَ الصباح
بِلا مبالاةٍ
يقرعُ كؤوسَه لمن يأتي.

في تلك الأيام سمعتُ عن حاجة بعض المكاتب أو الأطباء إلى موظفين من كِلا الجنسين، أردتُ أن أجرِّب حظي في ذلك

المساء، بعد أن ضاعت نقودي في ذلك اليوم الأسود. ذهبت بعد ظهر أحد الأيام، ولأنني لم تكن لي رغبة شديدة في أن أعمل في مثل تلك الأماكن، وجدت نفسي أسير على مهل بلا عجلة، صعدت إلى مكتب أحد القضاة، وفيما أحاول إلقاء التحية، شاهدت كثيرًا من الشباب وهم يتصايحون للمزاح، توقفوا عن الضوضاء حينما شاهدوني، وقفت بجانب الباب وأنا أراقب ما يحدث، كان رجلٌ يقف أمامي وسط الغرفة، بيده صحن من الحمُّص، راح ينحني مشيرًا إليَّ بالدخول، كنت أقف على أطراف أعصابي وأحاول السيطرة على صوت الرفض بداخلي، وهو يمنعني من التقدم، مدَّ يده ليشقَّ طريقي بين دهشة الوجوه، لأقتربَ من منضدة في نهاية الغرفة:

- تفضلي أيتها الجميلة.

(قال الرجل الآخر بعد أن ترك المنضدة).

- لا! عفوًا أستاذ؟

(قلتُ متسائِلةً).

- أنتِ الآن مسؤولة المكتب. اطلبي ما تريدين فقد فُزْتِ بموافقتنا جميعًا.

- كيف وأنتم لا تعرفون حتى اسمي؟ غريب!

- لا يهم، سنتعرف لاحقًا.

ساورني الشك، وملأ القلق أركان تفكيري، قلت، وابتسامة ضجرة على وجهي:

- بِإذنِكم.

بعد عدة خطوات قفزتُ نحو الباب، أطلقتُ ساقيَّ للريح أسابق السلالم، أُهرول، الاستياء يعلو وجهي ويملأ صدري، وقبل أن أصل إلى السلم سمعتُ صراخهم وهم يلومون بعضهم بعضًا على استفزازي، بنظراتهم الوقحة، وقد أثار هذا التصرُّف الحارس الذي كان واقفًا حينها عند الباب، حين رأى ردَّة فعلي المفاجئة، وهو يصفق بقوة قائلًا:

أحسنتِ فعلًا يا ابنتي، مَن مِثلك لا تعمل هنا. اذهبي ولا تعودي إلى هنا مرة ثانية. ليحفظكِ الرَّب.

كنت أسير على غير هُدًى، دقات قلبي تفلت مني، تحدِّق إلى عظامي، تسحبني معها إلى هُوَّةٍ سوداء في حوار مباشر، يا إلهي! ماذا لو وقعتُ فريسة بين أيديهم؟ متى تشعر الذكورة بأقصى درجات الخجل؟ لكنها لا تستطيع، وتقبَل أن تكون غير مرئية. متى يفَكُّ الحصار عن المحتاجين إلى الإنقاذ، أين أجد عملًا ينقذني؟

صدري ما زال لا يستطيع أن يصدق ما حدث، وهو يسمع صهيلَ قناني حليب فارغة. أتمتم مع نفسي «الحزن قد تطرَّف في أيامي، يا إلهي كم أحتاج من الحلم لأصبر على ما حولي؟ لأدفع عني ثِقل الحياة الشرسة، الحياة التي تريد جرَّ ضفائري

بخيط حرير تقضمني بأنيابها الطويلة. لو لم يمت أبي لكانت الحال غير الحال، لقد تكاثف حبل الليل على رقبتي، وتسرَّبت الأسماء التي يسكنها الخبث إلى عالمي كحلزونة ماكرة».

عدت إلى البيت أَشْبَهَ بمن فقدت صوتها، شاكرة الله على نجاتي، لم أُقْدِم على مكاشفة أحد بالأمر، رغم حاجتي إلى ذلك، كان آدم الوحيد يتلبَّس دور الأم والصدر الوفير وسط هذا الشحوب ليواسيني بأني سأجتاز المحنة، في حينها لم يفاجئني وجود أختي التي صرت أعتاد تجاهلها المتراكم، لكني ذُعرت لما عرفت نِيَّتها إعلانَ دسيسة جديدة:

- يتحتَّم عليك في القادم من الأيام دفع إيجار شهري مقابل وجودك هنا.

وصل إليَّ صوتها وهي تقف بجانب السلم في الطابق السفلي، ثم عادت لتقول:

- ألم تسمعيني؟ فرصتك الوحيدة أن تبقي هنا بأجر. كفى، لست أحسب أننا قصَّرنا معكم في يوم من الأيام، والبيت الذي تقطنين يحتاج إلى رَحب المعيشة...

سكتُّ، فاستطردت:

- لديك الآن عمل ما شاء الله، خِياطة وحِياكة وأجوريومية، علاوة على الوظيفة، فعَلامَ لا تدفعين حقَّ السكن؟

اِشتعلَ ذهني وبردت أقدامي مما قالته، لم يكن يخطر على بالي في يوم ما أن أدفع أجرًا لبيت أبي، البيت الذي وُلدت وترعرعت فيه. يا رب ما الذي يجري؟ أيمكن أن يضيع عِقد الأُخوَّة بسبب الأطماع والجشع والكُره؟ وهي تعلم الحَيف والظلم الذي لحق بي، أَوَلَيست هي السبب في عودتي لطليقي ليزداد ثقلي؟ أليس بإمكانها أن تفهم ظروفي؟ ولكن كيف وأنا لم أفصح عما يجري لي؟ كَوْني أعلم أن الشكوى مذلَّة وامتهان، وقد يعتبرونها تسوُّلًا وسؤالًا، أجبتُها:

– من عليه دفع الإيجار لو كنت تتذكرين، هو أنت؛ أنت السبب في كل ما حدث، هيا أنكري! ألست أنت من أوقعتني في هذه المحنة ؟ أجيبي!

– لم يقع في يدي شيء، لقد أردت إرجاع المياه إلى مجاريها لكنكِ لن تتحملي، وقد طال مكوثك هنا. حرام عليك!

– إن كان هناك حرام فعليك وِزره، ولكن أتمنى أن تفعلي شيئًا نبيلاً لا خبثًا مُبطَّنًا بأغراض دميمة، لقد أوقعتِني في الحصار ولم تنقذيني، لن أغفر لكِ، ولن أنسى ذلك، اِنتظري عذابك الرهيب من الإله، لا تتصوَّري أن صلاتك وعُمْراتك تشفع لك، أنت تستحقين ما أوقعتِني فيه، تمنيتُ أن تكوني أُختًا حقيقية تنتقم لكرامتي، لا أن تقودني إلى الفاجعة. لكن لا بأس، لنا رب اسمه الكريم.

داهمني الحَيْفُ فَلُذتُ بصمتي، فقد تعمَّدَتْ أن تُقلق

راحتي حين قالت:

– لا أرد عليكِ، يجدر بك أن تفتِّشِي عن مكان آخر. وكفى.

كانت محاولاتي لمعاتبة الذات الإنسانية فيها، التي تكاد تكون مبتدئة، أو الأُولى في معاتبة النفس والتاريخ بكل هذا الجَهر والرؤية، عتابَ انطفاء النفس البشرية، لكنه لا يرتفع إلى محاكمتها، بل لعلَّه إشارة إلى الخطأ البشع لقسوة الذنب والتقصير، والتدليل بضعفها وتفاهتها. إذن من الذي يستحق أن يعاقَب بأشد أنواع النقد أنا أم الأب أم المجتمع أم التقاليد؟

أمعقولٌ أن يكون الكون بكل هذه «النيرفانا» والقبح؟ ماذا يجب عليَّ أن أقول؟ حقيقةٌ إنَّ التصوُّر أرحم من الواقع، أحاطتني الحَيرَة من جديد، لا أدري ما الإجراء الواجب اِتِّبَاعه إزاءَ هذا الإلحاح، شرد ذهني، تمنيت حضور الغائب.. لَكَان تولَّى معضلة وجودي، آهِ متى يشفى الإنسان من أمراض الغرور والتباهي والسخف؟ متى يشفى من جنون الحديث والتفريغ بالصوت، وهو لا يملك حتى احتمال شفاء نفسه؟! ماذا لو أنزِلَتْ عليَّ سلة من الدنانير من حيث لا أدري، سأكون حينها فوق الأقمار والنجوم، بل أكون في موقع المفاخرة والإعجاب بي. كيف سأتصرَّف؟ هل لها حقٌّ امتلاك مصيري وارتهانه بإرادتها؟ هل هي «ميدوسا» الفانية التي سعت إلى الانتقام من بنات جنسها، أم هي «لاميا» القرن الحادي والعشرين، تلك المرأة التي تلبس نصفها الآخر بالأفعى؟

كنت أعرف أن زياراتها لن تمرَّ بسلام، لكني توقّعت منها أشياءَ أخرى، أقل تأثيرًا، من قَبيل إبداء الرأي في ترتيب الأثاث، أو إبداء النُّصح في شيء ما، أو إعادة لوحة كنت قد غيَّرت مكانها، أو الاهتمام بحديقة المنزل التي هاجمها التصحُّر، وكنت سأرضى بما ستقول، بل كنت سأجتهد في تنفيذه، لكن الذي حدث كان أعلى من توقُّعاتي، فالجدة تتأفَّف وتنظر إلى الأعلى لتعبِّر عن ضيقها الشديد بنا، وكنت ألحظُ ذلك، ولم يكن أحمد ليرضى بذلك لو كان موجودًا في هذا المنزل المشؤوم ذي الطابقين والحديقة المدوَّرة الكبيرة.

كنت مأخوذة بين حركة لا واعية حين امتدت ذراعي لتحيط بوليد، وبين صرير أسنان تئِزُّ بالغضب أكثرَ وأكثرَ، فحين تجيء صروف الحياة تأتي محتشدة، طوال أشهر أنا المسؤولة عن شؤون البيت، وترتيب أنماط راحتهم، خادمة، ومربية في نفس الوقت، لم يخطر على بالي البَتَّة أن أتعرَّض لإِشْدَاه المفاجآت، أو أن يصادفني الخذلان من حيث لا أحتسب، اِستبدَّ بي فزع من خطر غامض يترصَّد لحظاتي الماثلة، وبقيَ ندائي حبيس فمي، كيف تجرؤ شريكة الدم أن تواجهني بعينين تَنِزَّان خبثًا وحقدًا؟ وهي تأمرنا بمغادرة المنزل، هل عليَّ الامتثال لأمرها؟ لماذا تتجاهل السبب وتظلمني؟ فأنا لا أحتمل نزقها المتراكم حول أنفها. يخرق أذني بكاء وليد، ربما هو نداء الفجيعة التي تترصَّدني.

كنت أعرف أن تلك الأيام لن تمرَّ بسلام، كنت أهرب من

مداهمات الشدائد، حين يزمُّ الدهر شفتيه أصعد إلى غرفتي، أستوي على كرسيِّ الفقير، يدايَ تتشبثان بالمساند، عيوني مسمَّرة في مسامات سقف الغرفة التي أوثقتْنِي بصحراء أيام لم أتكلَّم البَتَّة فيها، كان يداهمني شعور حاد بالوهن في أقدامي، حين أفكر في حتمية التعايش مع الظرف هنا، التَّوْق الذي يشدني إلى معرفة ما يدور، إذ لا خيار لي في استنزاف كل صبري، حتى أصبحتُ كعرائس القماش التي كانت تنسجها جدتي لنا، وتهزُّها انتظارًا لردِّها حينما كانت تقول لها «يا لعبة الصبرِ، آنة صبر وأنت صبر، ياهو الي بينا يصطبر». كرهت المساء المُسيَّج بحدود الكرب المغروز في جلدي، رغم مقاومتي، أبذل جهدي لأعلو فوق عجلات التنهيد بين طحالب الدنيا، الدنيا التي نتفت شكل إنسانيَّتها، رأيت الموت في عدة أشكال، يغيِّر لون وجهه في كل مرة، ويحاصر العدالة مطفأة العينين.

الحلم المدوَّر الذي كان يراودني كل يوم، بنفس الأحداث، ما زال يتكرر، وقد تكون حياتي برمَّتها مرهونة به، وإلا فلماذا يتكرَّر خارج إرادتي؟ وربما تكون احتياجاتي المعذَّبة تعرف ما ينتظرني، فيتنازعني صراع الأسئلة، أسمع حكايات شتَّى عن تحقيق الأحلام، أترَجَّل عن أفكاري بدون كلمة، أكتفي بِحَثِّ الخُطى تجاه مدخل جديد، لم يخطر على بالي أن أطلق ساقيَّ للركض بعيدًا، فمجرد الفكرة تُحيلها إلى رعب وضياع، عدا كوني أجهل ما يدور في هذا العالم المتربِّص قيد اللحظات.

وحالما أنزل أشاهد آثار عيونهن الفضولية تَنْبَثُّ في الأرجاء وتتعلَّق في وجهي، فها هي الملامح تُكشَف لي، تحت سماء البيت الملبَّدة، تجتاحني رِعدة قشعريرة، وقد سابقتني أختي توخِّيًا لحمايتهن، إذ لا مكان لأيِّ حديث يمكن أن يصدر مني.

عيناي تطوفان المكان، الأرائك الوثيرة نظراتي التي تتشبَّث بوجه أمي كأنها لا تعرفني، مدَّت أختي يدها لملاعبة وليد، فلامست خدَّه الصغير، لحظتها كانت تحمل تحيَّة مغلَّفة:

– ها.. ماذا قرَّرتِ؟

(قالت وهي تُحدِّق إليَّ وتسبر أغواري).

– ماذا؟ ماذا تقصدين؟

تحاشَيْتها، وقد استرعاني وجود صور لأبي وأخي مثبَّتة على الجدار خلفها، لو كان أبي هنا! تلك الـ«لو» التي لا يمكن إدراكها، خفق قلبي جزِعًا!

– هل اتَّخذتم قرارًا بأبعادي.. عن الجنة؟

قلتُ ساخرة.

فيما تشاغلتْ أمي بمطالعة القرآن وهي تقرأ سورة «يس»، لكني واجهتُها بعُمق عينيها، فاستبدَّ بها حرج لا مثيل له:

– نحن لا نريد إحراجكِ ولا إيذاءكِ.

ثم استطردَتْ:

– ولا نظلِمُكِ.

تحاشيتُ المواجهة، فقد توهَّمتُ حين وضعت نفسي تحت رعاية العنزات الكسولات، مع أني في كل مرة يحاول لساني الانزلاق من فمي، وبفضل تلك «النيرفانا» والهدوء الإلهي الذي تَمَظْهر داخل ذاتي، كنت أسكت، وقد منحني سَكينة طردت أشباح الهم والضجر حولي في زمن حرَّكَ ذراعيه مودِّعًا مرافئي الأولى، ونهارًا مفروشًا بعشب مضاء بالحناء والرازقي، حين كان أبي.

صرت أسير وحدي درب الحياة المقفر الطويل، أخفض بصري إلى ما بين قدميَّ، في دروب الحَيرَة والتوزُّع، عيوني تتراكض تستنجدان العون بدون قصد، أقْتَعِدُ أطراف المقاعد، أسير جنب الحائط، كل شيء لا يعني لي قيمة إزاء الجهل الكُلِّي الذي يحوم حولي، ويعجز عن إدراك قيمتي.

كنت متيقِّنة من فرصة العودة للعمل الوظيفي، لكن السلوكيَّات والمطاردة المفروضة والتوقيع لدى دوائر الأمن الذين لا ينسون أنني من عائلة شيوعية، رغم تعرضي للسجن للأسباب نفسها لكنهم لن يكتفوا أو يكفُّوا؛ منعتني من ذلك، وكثيرًا ما أتفاوض مع نفسي، وأعقد المقارنات لأضاهي فيها المرتَّب الشهري مع الأجر الذي أكسبه من الحياكة والنسيج، لم تكن تغريني العودة إلى الوظيفة، فالراتب لا يكاد يكفي، إذ باقي الشهر كان يُكمَل بالكاد بـ«البيض الكاذب» و«الطحين الأسود»، وساعات العمل الطويلة بعيدًا عن الأولاد، تُبعدني عن التَّوق إلى تحقيق صيغة حياة جديدة، إضافة إلى الأُلفة

الصامتة بعيدًا عن عيون الآخرين.

كنت في سبيل العبور إلى الضفَّة الأخرى أغافل مشاعري بارتعاشة قلبي وقلقٍ نافدِ الصبر، كان عليَّ أن أبادر بفعل شيء ما، فاستسلامي لتيار أفكاري المتلاطمة كان يدوِّخني، ونحن نعيش حياة مغلقة وسط أناس عَبَّد الجوع فيهم طُرُقًا مرعبة تحت وطأة الحصار.

كانت السُّلطة آنذاك تنظر إلى الناس بشكل مريب، تنطوي على فكرة احتمالية الغدر، في جوٍّ من الإحساس بعداوة الآخرين، فقد تخلخل الجهاز الأمني بعد انتفاضة التسعينيات، وقد كان النظام يعتمد على عنصرين في ضمان هذا الجهاز: الخوف والمال. أما الخوف فقد تضعضع بعد الانتفاضة، وتقلَّصت رواتب الأجهزة الأمنيَّة إلى حدٍّ كبير بعد الحصار، كان أعلى راتب يحصل عليه ضابط كبير في الجيش، عشرة آلاف دينار، أي ما يعادل عشرين دولارًا، وهو مبلغ تافه أمام المخاطرة بالحياة دفاعًا عن النظام، فانتشرت الرشوة والسرقات والجرائم اليومية، وفي مثل هذه الأجواء، لا يمكن أن يتحسَّن المستوى المعيشي أو الأمني، بشكل يستطيع أن يضفي عليه القوة التي تُمكِّنه من مقاومة ذلك السيل الجارف من التردِّي وعدم الاندفاع مع التيار، كان صراع الأسعار والحصار ومداهمة الوقت في حركة غير مألوفة جعلتني أفقد الشعور بالأمان والاطمئنان للمكان، بتُّ غير قادرة على إنجاز وعدي إزاء أولادي وتوفير ما يكفي، كان آدم

قد تحوَّل من صبي صغير إلى شريك محنة، الابن البكر الذي كبرت أسنانه بين اليأس والرجاء:

– أمي، سأخرج غدًا إلى السوق مع الباعة، العمل ليس عيبًا. ثم إنك تعبت.

عبَّر آدم بجرأة وشجاعة عمَّا جال في خاطره. فبادرته:

– أنت لست ملزَمًا يا ولدي، حذار أن تترك المدرسة!

لم يردَّ مباشرة. لاذ بالصمت، ثم أردف:

– كنت أريد مصارحتكِ من زمنٍ، و...

– لا أُخفي عليكَ يا حبيبي فأنا بحاجة إلى ذلك، لكن دراستك أهم، عليك ألَّا تفقد الأمل.

– أمي، أريد أن أساعد في جانبٍ على الأقل.

– ساعدني في الاهتمام بدروسك وتفوُّقك، وتعليم إخوَتك قدر المستطاع.

كان رجائي أقرب إلى توجيه الأوامر، بعد أيام، أعاد عليَّ فكرة أن يجرِّب الموضوع، وراح رفضي ينهزم أمام إصراره، أحسستُ أنه كالمغلوب على أمره، أخذته بين ذراعي وهمست في أذنه ملاطِفَةً:

– ستتدبَّر الأمر عندما أشيخ.

امتَقَعَ وجهه حزنًا، معارضًا ما قلت:

– هل لديكِ حلٌّ آخر؟

كان يومنا مسْرَحًا لمعاناتنا التي نعيشها أنا وهو، إدراكه الحقيقة مبكِّرًا، بلاهة الحياة وخواؤها، ضيق الغرفة، رغم الأُلفة مع المكان الذي اعتادوه، الهدوء الذي كاد يكون بلا نهاية، بسبب التسليم بالأمر الواقع، كل ذلك جعله مشدودًا من قلبه لساعات عمل حزينة، علَّمَتْهُ الصبر والأمانيَّ والرجاء، الإحباط والقنوط، كلها حالات عابرة، كل شيء في الدنيا يكاد يكون رسالة، تارَة للفرح، وتارَة للحزن والجزع، وكلما اقتربت ساعة الفجر، تسارعت نبضات قلبي معه.

يوم قرَّر الخروج للعمل، كان لهَفِي عليه يمزِّقني، وهو يخرج لأول مرة إلى عمل لا يعرف عنه أي شيء، وسط مكابدات النهار، بين المُرابين وبائعي السوق السوداء، أحاول استبعاد القلق من ذهني، أشغل نفسي في إعداد الفطور، رغم أني أشعر باستسلام عاجز، قلت له في سري: ها أنت يا ولدي تدفع ثمن أشياء لم يكن لك ذنب فيها.

أتذكَّر ذلك اليوم الأول الذي جاءني فيه مُمزَّق القميص، مضبَّب الشفاه، يابس الريق، منقبض الملامح، وهو يكتفي بابتسامة حانية وسط زوبعة بكائي، وأنا في جنون اليقين، حانت منه نظرة ناحيتي، وعيناه تفيضان بالدموع. لم يسبق لي أن رأيته هكذا، مدَّ لي يده بقليلِ النقود التي حصل عليها قائلًا:

– أمي، أرجوك لا تحرميني فرصة المشاركة بما أقدر عليه، ثِقِي، لن أترك دراستي.

وفي خلال ثلاثة أيام امتلأت أقدامه بالفقاقيع، وجسده بالطفح الجلدي، جَرَّاء بيع الخضراوات مع السُّوقة، ولم يكن قادرًا على مغادرة الفراش.

أنَّبت نفسي ولُمتها لأني وافقته، ولا أعرف كيف وافقته، قد أكون في لحظة ضعف محكومة بزمن متوقف، محاولةً التوصل معه إلى تسوية تُفضي إلى حلِّ العجز الحاصل في الميزانية، أقسمتُ إني لن أسمح بأذيَّته مرة أخرى ولو برضاه، وإني سأجنِّد كل مسافات العمر له ولإخوته مهما حصل، وسأخرج للبحث عن عمل في أقصى الدنيا، وأحلك الظروف، ولن أتركه يعود لهذا العمل ثانية.

لم تغادر الدموع عيوني مذ ذلك الحين، ولم تغادر مخيلته تلك الأيام الكالحة، فنغمة صوته المجروح تتراوح باقيةً معي في كل وقت، كان خطأً فادحًا لا مبرر له، لم تكُن أكثرَ من أمنيَّة في نفسه يشوبُها الألم في سبيل الخلاص من المحنة ريثما يرنُّ جرس الانفراج، ولم تَلُح بارقة أمل في الأفق، من حواسِّ الأب الذي احتشد بإصغائه صاغرًا إلى حياته الجديدة.

ليس لإنكيدو أبٌ ولا أمٌّ
شَعرُ رأسه الطليقُ لم يُحلَق قَطُّ
في البَرِّيَّة وُلِدَ
فلم يُرَبِّه أحد

امتلأت عيناه بالدموع
شعر بالأسى، فأطلق زفرةً أليمة
امتلأت عينا إنكيدو بالدموع
شعر بالأسى، راح يعاني.

(ملحمة كلكامش... العمود الرابع)

تكحَّلتُ بالدموع، التقطتُ العباءة التي تصغي إلى ترانيم ذاكرتي المتوجعة، سرت بين طحالب النهار المفروش بالحشرات، برغباتي التي تفسَّخت في هيجان الضجيج وصراخ الحاجة وقد أخفيتُها كحبَّات رمل مضاءة في زوايا الزمن.

أطلقت عنان خطواتي المتسارعة بمحاذاة الظِّلِّ في جهات الأرض الأربعة، ابتغاء رحلة عمل أخرى، بدأتُ قبل أن يزهر قرص الشمس، أريد فضاءً غير مُتعفِّن، فقد أصبحتُ عندما يتملكني اليأس، أُنشِد للحوريات بحنجرة مُتوثِّبة تسكنها أبجدية الروح البلورية، أريد أناشيد قوية تسكن لَيلِي وتطرد الضياع وضراوة الأسنان المستذئِبة، أختفي بعباءتي، أُغطي وجهي عن صحراء خليعة يتقاسمها أبناء آوَى، ثم أعود بقصص ثلجية الصوت لسكان الغرفة الحارَّة، كنت أتذكَّر تلك الأيام التي تلمع تحت إبِطَيْها عيون الجِراء، أجامل الظِّلَّ بتجاعيد عجوز حالكة الجناح، وهي تكتب «كان يا ما كان»،

كنت أعتقد أن بعدَ سنوات الشباب والسجن، سأجد الأحوال قد تبدَّلت، ولكن الناس داخل سجنهم الكبير رسائل عُمرٍ تؤكد الانتظار في زمن يعيش بمعزل عن الآخرين، كان يوم سفري بعد الفجر بقليل، قبل استيقاظ الكلمات، لن أعود بدون شيء يذكر.

فاضت الشمس وشعور القلق يأكلني، الإحساس بالظلم، لماذا يا أبي؟ كنت في العادة أحدِّث أبي عند الصباح، لم يُنبِئْني بزيارة مرتقبة في حلم مفاجئ لأستشيره، لماذا؟ لماذا تخليت عني يا أبي؟ عندما وصلت كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحًا، أحكمت لفَّة عباءتي، طُفت بأرجاء سوق الصاغة.. «لماذا تركتني يا أخي؟»، تجاوزت مَحَالَّ عديدة، وعبرت أخرى، أتلفَّت بين أرجاء الطريق غير المُعبَّد، الضجيج ينغرز في رأسي، «لو أنهما يظهران أمامي!».

يجب أن أسرع ولا يفوت الوقت، فاجأني أحدهم بعيون وقحة قاسية كان يقف بمحاذاة محله، انتَفَضَ كُلِّي، أحسست بنفسي قد أحتَبِس داخل صدري، وجدتُني أغوص في آلاف الأصوات حولي، كأنها تنطلق بلغة أخرى لا يفهمها إلَّا أهلها، وكأن ظهري اِنحنى بألف سنة، كأني صندوق عظيم يكتظُّ بالحسابات والمفارقات، بمُسَوَّدات البيع والشراء، الربح والخسارة، برسائل لم أرسلها بعدُ، بأوراق الدعاوى والمحاكم والنفقة والمؤجل والطلاق التعسفي الذي لم أنفذه، بالمستندات والوثائق المدرسية وفواتير الكهرباء والماء،

قصاصات الومضات التي تطفو على سطح لساني فأقذفها على الورق وأحتفظ بها، مع خصلات شَعري البُنِّي ملفوفة في قسائم عتيقة تطمر أرقامًا ممسوحة، وأوزارًا أخفَّ من وابل رأسي الحزين، كأني هَرَم يُطاول السماء بِعَظَمَته أو قبوٌ هائلٌ يحوي من الأرواح ما لا تَسعُه سماء المدينة، أصبحت كسراديب تبغضها الليالي المقمرة والنُّهُر المشمسة، الأرض تحتِي كمدافن تزحفُ فيها ديدان الجثامين المتراكمة، أناضل دومًا عن الأرواح العزيزة، أصبحَتْ أزَاهيري ذاويةً في حجرة تعجُّ بعفُونة الكُره، حتى أبلَتْ أكوام فساتيني المنتظرة، تساقطت لوحات العمر التي أحب وأصبحت رسوماتي باهتة، غرفتي الفقيرة التي لا تحوي قنانيَ ثمينة للعطر سوى أريج قنينة عطر قديمة، فلا شيء يعدِّل اِعوجاج تلك النُّهُر الكسيحة، حين ينمو الضجر فوق سقف غرفتي وتمتد جذوره تحت عقب الباب الثقيل، حين يهاجمني البرد في أعوام الشتاء وحيدةً ويتَّخذ أبعاده الأبدية، لا وجود لكِ الآن أيتها النقية النابضة، لستِ سوى حجر صوَّان تُسيِّجُهُ طحالب غامضة وزغب متعفِّن على فيافي الروح معلَّقٍ بالضباب، كالحدائق المعلقة العتيقة لا يبالي بها أحد، لا يعبأ بها عابر على خرائط الوقت الزنيم، لا أغاني تحت شموس غاربة، آهٍ! وما فائدة ذلك الآن؟!

تجاوزت فُرجة باب أحد المَحَال، تنبَّه صاحب المحل لوجودي، انفرج حاجباه عن ترحيب هادئ:

- تفضلي!

- مرحبًا.

- أهلًا.. تفضلي.

تقدمتُ خطوة، فتحتُ حقيبتي ثم أخرجتُ منها حقيبة الذهب الصغيرة، وضعتُها أمامه على (الفاترينة) الزجاجية التي تحوي أنواعًا من المصوغات و(المخشلات) (*) الذهبية، نظر إليها، قلَّبها ثم أعادها إلى الحقيبة وعاد بنظره إليَّ مُسرعًا، مددتُ يدي لالتقاطها، فداهمني بسؤاله:

- لماذا؟

- توقَّعتُ أنك لا تشتري!

- بلى، أشتري. ولكن عليَّ أن أزنها لأنني آخذها بسعر السوق اليوم.

- طيب.

••••

تخلَّى عني أبي، ونظرًا لإدماني عليه كنت أستشيره طوال الوقت، أتخيَّله معي في كل حين، في كل مأزق، في البدء

* هامش المؤلف

لم أكن أعرف الطريق، ولكن بتكرار مجيئي، لم أعد أخطِئ المكان، فقد عرفته خطوةً خطوةً، حتى الكلمات البذيئة التي خُطَّت على الجدران أصبحت نقطة دالَّةً على المكان، بل عرفت عدد المَحَال وعدد المزاريب حين ينزف مطر الشتاء، أتذكَّر كل تلك الأيام التي حفرتْ فيها أقدامي الطريق من البيت إلى سوق تلك الضاحية الصغيرة وهي تحتضن شعاع قناديل الأئمة.

كنت أمشي مغمضة العينين لأحلم، فقد عرفت خطواتي طريقها عبر التراب، لكن القلق لم يبارحني، كان رفيقي في كل مرة، الخوف من أن يلمحني أحد، كنت كل مرة عند عودتي ببعض النقود، أصنع الفرح جاهدةً، لأزَيِّن أيامنا القاسيات، كانت مجرد مرحلة غادرتُ فيها ليالي القيظ إلى قليلٍ من تضرُّعات الليالي الربيعية في لحظات معدودة، ولن أنسَ ذلك اليوم حين فاجأني أخي وهو يقف خلف الباب وقد أخفى شيئًا خلفه، حين فتحت الباب لأخرج رأيتُه في وجهي، جَفَلتُ وتصاعدت أنفاسي حين عقد حاجبيه وقال غاضبًا:

- إلى أين؟

صَمَتُّ.

- أسبوع، أسبوعان، ثلاثة، وأنا أراقبك. إلى أين تذهبينَ من الصباح حتى الظهيرة؟ أريد أن أفهم!

سَحَبَ الحقيبة من يدي:

– وماذا في تلك الحقيبة؟

فتح الحقيبة فوجد منديلًا فيه قليل من الذهب، وبصوت عالٍ غاضب:

– ما هذا؟ فهِّميني؟ أريد أن أفهم؟

قاطعتُهُ:

– على رِسلِك يا أخي، سأُطلعك على الأمر. أنا بين فترة وأخرى أذهب إلى سوق الذهب لأشتري وأبيع في مدينة أخرى، لأعيش بما أكسبه من الفرق ثم أعود.

إنها «نيرفانا» القِوَامة، لا بأس. لم يَشْفِ جوابي غليلَه، فقد تراءى لي سُمٌّ سليمة بين كلماته اللاذعة وقد أدخلَتْ في ذهنه ما يُبلبل عقله، فقال:

– أيُعقل هذا؟ ألا تخافين على نفسك من أهوال الطريق والناس؟ ماذا سيقول الناس لو عرفوا بذلك؟

– آه يا أخي! ماذا أفعل؟ إنه قدري، فلا غَرْوَ أن الذين يعيشون حياةً أخرى لا يحفلُون بأحد ولا يُقِيمون وزنًا للآخرين ولا يشعرون بهم حتى لو كانوا أبناءهم.

– كم مرةٍ قلت لك أن ترمي الأولاد إلى أبيهم؟ لكنك لا تسمعين.

قاطعتُهُ بحدة:

– لا. لن يكون هذا. الخير أقبلَ، وقد حباهم الله برقَّة

الإحساس ولُطف الشعور، وقد خلق لهم العين المنهومة والأنف الذي يطلب غاية العلم والطِّيب، ومَن خَلاهم من أمثالهم يعيشون في جهل مُطبِق ولا يشعرون بما حولهم.

قاطعني اقترب مني:

- أنا أخاف عليكِ...

وقد وضع يده على رأسي ثم قرَّب رأسي من كتفه، وبلَّلت دموعه عباءتي:

- اذهبي الآن وحاولي ألَّا تتأخري.

ثم زفَرَ:

- لكنه شيء مُتعِب ويأخذ من وقتك وجهدك.

ثم مسح بكفه على رأسي وأطرق أرضًا، حينها أحسستُ أن قلبه هو الذي يتحدث، ومن محاسن المصادفات أنني سمعته بعد عودتي في حديث له مع سَليمَة الكافرة يقول:

- حرامٌ عليك، تظلمينها، كُفِّي اتهاماتك عنها فهي...

ثم غاب الصوت عني!

- ولماذا لا يعمل ابنها؟

- إنه صغير ولا يفقه شيئًا! الله كريم، حين يكبر ويشتدُّ عوده. المهم أن تغلقي فمك وتبتعدي عن اختراع الأكاذيب.

فاتت عدة أيام، كنت حينها مريضة، وحين رأتني الوالدة تمتمَتْ بشيء لم أفهمه:

- ألم تقولي إنك مريضة؟ أراك بخير لست بمريضة!

- الآن أشعر بأنني أفضل...

- إذن متى تَفِينَ بوعدك، ما دمت لست مريضة؟

- أيَّ وعد؟

كانت أمي تصر على تحقيق حُلم سَليمَة لتشفي نارها التي طالما أكلت قلبها بسبب وجودي أنا والأولاد في البيت الكبير، ذلك البيت ذي الرَّوْض الآنف والشجر المختلف، ناضِرِ المرج، طيرُه يشدو مترنِّمًا على الأغصان، وهو من الداخل مع الأسف كان موبوءًا كريهًا لا يُطاق، لا يهبُّ في جنباته الهواء إلا تعفَّن، فتزهق الأرواح، مكفهرٌّ، لا يخطفُ في أرجائه بريقٌ من ضياء، أو هكذا أراه. فكانت تشتدَّ أكاذيبها فتخلط الحليب بالدماء لتلعب بأفكار والدتي وأخي، كنت كما في كل مرة أقطع حبل كذبها وخبثها وأمنع إبَرَها المسمومة التي تغرزها في آذانهم:

- آهِ يا أمي! لماذا تنطلي عليك ألاعيب هذه المخلوقة؟ كيف تصدقينها؟ كفاك دلالًا لها...

- «لَا يُمَّه!» كيف لا أُدللها وقد تركَهَا أخوك الشهيد لدينا أمانة؟!

فأحتضنُها، وأدسُّ وجهي في صدرها الحنون عَلَّها تشعر بمرارتي، أستعذب رائحتها الذَّكية التي تملأ رأسي، ثم أتركها لأنزوي في مخدعي، كنت أشعر بقلب أمي الذي يتحرَّك تِجاهي كلَّ حين، تُحصي تنهُّداتي، فتُشفق عليَّ من بعيد خوفًا من المجهول.

لم تزل أمي
بعد أربعينَ عامًا
تملأُ بحيراتِ الفَقْدِ
بدمعِ الخيباتِ
لم تزل واثقةً
بأنَّ سفينتي ستبقى طويلًا
تُبحر في النحيب
وتمضَغُ صَمغَ الغيابِ
لم تزل تنتظرُ
عودة الغدِ
ذاتَ وقت.

(٥)

تلك اللحظاتُ التي لا تُنسى، تلك السنوات العِجاف التي تعود إلى سطح الذاكرة كلَّ حين، تلك الأيام المسكينة التي تَبَنَّاها صبري، طِيبتي العارية من شفاه العصير، العنف الذي مارسَتْهُ العيون الوقحة تِجاهنا، كلُّ ذلك جمعْتُهُ في صندوق روحي الوحيدة، غطَّيتُهُ بشعري ذاتَ مَدٍّ، كتمثالِ نارٍ أدُلُّ العالم المتخبط عليه كلما ترتجف روحي من فزع الغد، نضجَتِ الفوضى ولسَعَتْ سيقانَ الصغار العارية التي تستحق الحياة لا الفزع، كنت أحظى بومضة سعادة كلما أحتضنُهم بعد يوم مرير، أنتزع طمأنينتي من النحيب، رحِمَ الله تولستوي حينما قال: «ليست هناك سعادة في الحياة، بل ومضاتٌ لها ثَمَنُها، عِشْ من أجلها فقط». مِن حَتْمٍ لا بُدَّ منه، كنت أستعيد هذا القولِ مرَّات عديدة، وآخذُ بنصيحته لأُدرك السَّعادة ولو لحظات.

لم أجد نفسي تتَّسق مع الوضع الناشئ في البيت بشكل خاص، ضِقتُ بالمطاردة على العموم، رغباتي الحقيقيَّة كنت أراها بعيدةً بُعدَ السماء عن الأرض، رأيت نفسي صغيرةً أمام المشكلات العملاقة، فأدركت أن الجحيم قد تسلَّل إلى حجرتنا الصغيرة التي شهدت أتعس الحكايات، أين مِنِّي تلك

الجميلة ذات الشعر الكستنائي؟ همستُ في نفسي «لا بُدَّ من حل»، اندلعَتْ في باطني ثورة مُتعطِّشة للحرية والتمرُّد على العنف، أقسمتُ أن أُنفذ قراري، خبأتُهُ في صدري بكل ما فيه من خوف وحزن.

كانت الفكرة قد لازمتني عدَّةَ أشهر، تغيَّرَت الأجواء من حولي بصورة سريعة، تغيَّرت المعاملة، دخلتُ دنيا الإرهاب حين وقَعْنَا في أحضان أُمٍّ لا تُفارق الزجر والتعنيف، حتى خلقتُ بينَ جوانحي امرأةً جديدةً، صمَّمتُ على الاحتفاظ بكرامتي مهما كلفَّني من عناء، آثرتُ مغادرة الوطن، وهو ملاذي الأول والأخير، الخيار الصعب الذي وجدت ذهني محصورًا فيه وقتَهَا، حملتُهُ كرجاء جديد، لم أجِدْ بُدًّا في النهاية من أن أنفذ قراري رغم قَسَاوة التجرِبة وضرر التنقُّل مع أسرتي، حينها كانت قد تشكَّلَت المعارضة العراقية لجماعة الخارج من اليسار والعلمانيين وبعض الأحزاب الدينية المعارِضة، فقد كانت عُزلتي في البلد تضاهي ؛إن لم تكن أكثر من وحدة العُزلة في بلاد الغُربة، عُزلتي التي لم أختَرها طواعية فَاقَمَتْ شعوري بالغُربة بسبب تفوُّق شراسة الأيام علينا، لا يفوت يوم بسلام مِن دون معركة.

قرَّرتُ مغادرة لا الحي فقط، بل البلاد كلها لنبدأ من جديد. ما أزال أتذكَّر ما جرى في تلك الساعات تمامًا، وكيف أنساه وما تلاه كان أدعَى إلى ذِكره آخرَ الحياة؟! امرأة صغيرة البدن، ناهزت بداية الأربعين، تحلم بالصفاء والسلام. أدركني

التعب، ولم يدركني أحد، تَتْبعُني نداءات الموتِ لا الحبِّ، فقد نسِيَني الأهل والأصدقاء والجيران.

كانت فكرة الهجرة تطارد تفكيري، هِمْتُ على وجهي حاملةً طعنات الغدر بين جوانحي، أتلمَّس طريقًا حكيمًا، فلستُ أول ولا آخر من كابد الفقدَ والهجران. لا قدسيَّة للأمومة في مكان يرعى الكافور لا الأشجار، موت لا يُدركه كِبَرٌ ولا انحلال، يتخطَّى أمواج البشر بلا مبالاة، بل ليس لقراره تبديل، كان عَليَّ أن أتجاوز تلك الأوقات الصعبة، فلو لم تكن الحربُ التي اعترضَت الطُّرق بالسرادق وزلزلت الأرض بتشييع الجنائز، وخارت قُوَى رجال ذلك العهد الذين أصبحوا شيوخًا ضائعين.. لو كانت الحياة سهلة وبيننا ظَلَّ رجل حكيم بعيدًا عن الرغبات يلتزم القِوَامةَ ويتحمَّل مسؤوليتنا؛ لكنتُ على أتمِّ الاستعداد للاختبار. إنها محبَّة فلذاتي وقُرَّتي ولا شيء سواها، وقد صدق من قال «مَن ملك الحياة والإرادة، فقد مَلك كل شيء»، وأنا من ناحيتي سأُثبت أنه لا أهمية لشيء سوى الدفاع عن الأولاد، إنه واجبي المقدَّس، ربما نجلس على عشب يناجي أحلامنا في حضرة الجمال، تُرى هل سأنقذ سفينتي الغَرِقَة؟ داخَلَنِي خوفٌ، وهممتُ بالتوقُّف والتراجع، لكني قلتُ: «هيَّا اِتبَعوني».

قبل صلاة الفجر، كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا عندما قفزتُ عن سريري، جهَّزتُ الأولاد، كان سكون الليل يغطي البيت بعباءته الغامقة، قناعاتي تزداد توقُّدًا في ترك

البيت الذي هَرِمَ فيه أولادي، ولم يَبْدُ منهم أي اعتراض، أن نرحل جسدًا ورُوحًا، أن نتخلص من تلك الحجارة التي أغلقَتْ حنجرتي، قد كفاني إزهاقًا لقوايَ ووقتي، كفاني إهراقًا لدمي وأعصابي، كفاني انتظارًا لحلولٍ تأتيني جاهزةً من سِلال السماء.

أشرت إلى الأولاد «آنَ الأذان أن ننطلق»؛ ينبغي أن ننطلق، فالآن أشعر أننا نلبس الفجر والفجر يلبسنا، الآن عليَّ أن أعمل لأزرع الطريق زهرًا حالمًا لصغاري، ليَنمُوْا بهدوء ويلعبُوْا بسَكينة.

كان الوقت يجري مُسرعًا، رحنا نمشي في الشوارع الخالية، جميل هو المشي في الهدوء والنقاء بصحبة نسيم الفجر. بلغْنَا بَهْوَ محطة السيارات، كنت أحتضنهم في أثناء صعودنا الجماعي إلى الحافلة التي كانت تنتظرنا، والأطفال يتضاحكون كأنهم لمسُوا حريَّتهم وكسروا أسوار القفص، كأنهم عصافير انطلقت من قفصها إلى الفضاء الواسع، تجنبتُ القلق، فلا شيء يوحي بذلك، كان الجميع يغُطُّون في سُبات عميق عندما تحرَّكَت الحافلة، وقد حانت مني التفاتةٌ تجاه طريق البيت، ثم تناولنا الطريق العام، رُحت أسرح ببصري في متاهة الإضاءة على الجانبين، المَحَال المغلقة، الإعلانات الضوئية، الأمكنة مُسَرْبَلَةٌ في ظُلمةٍ أراها رقيقة. إننا نخرج من مدينة الموت والخريف، خُيِّلَ إليَّ أن أشباحًا تتحرَّك وتجوب المدينة، لعلهم من رجال الأمن، فتساءلت..

«ماذا يخبِّئ النهار لنا؟ أتُراني أُوْقع ضررًا على أُسرتي عندما أُقدم على ترك المنزل؟ أَتُحيط بهم محنة ما بما سيسبِّبُه فراقي لهم؟ أأكون قد أخطأت أم ما أقدمت عليه هو عين الصواب؟ ألم يطلبوا إليَّ مِرارًا أن أترك المنزل؟».

كانت أمي قد سمعتْ صوت المفتاح وهو يعالج قفل الباب الرئيسي للمنزل، لكنها لم تهمس ولم تنبِس ببِنت شَفَة، ولم يخطر على بالي طوال عمري أن أُواجَهَ بحالةٍ مماثلة، لم أتسبَّب في شيء يقوِّض طمأنينة الأُسرة، فهم المسؤولون عن كل ما كان وما سيكون، كان حَذَري فقط مِمَّا سينتج عن اختلال عَلاقتي بطليقي، فرُدُود أفعاله قد تُثير لنا زوبعةً ما بسبب اصطحابي الأولاد من دون موافقته. أحرِّك رأسي كأني أنفض غبار القلق والتفكير الشائك، عليَّ ألَّا أبالي، وها نحن نترك البيت كما أرادوا لتنظيم حياتهم بِغِيابنا.

تحرَّكَت الحافلة وراحت تجوب الصحراء، الصمت يلفُّ محيطها، يبدو أنْ لا نهايةَ للطريق. خَطَرَ عليَّ أن أتساءل عن الموضع الذي نحنُ فيه وأين وصلنا، فعندما استقلَّت بنا القافلة ظننتُ الأمرَ انتهى، رتَّبتُ جلوس الأولاد كُلٍّ على مقعده، فتحت علبة الفطور وأذِنت لهم بإيماءة من رأسي أن يستعجِلوا، كان عليَّ أن أختار ما يُمليه عليَّ واجبي للوصول إلى غايتي.

كنتُ قد جمعت أشياءهم المهمة، لعبهم القليلة، ملابسهم، في ثلاثِ حقائب صغيرة. لحظات رفعت فيها عيني إلى آدم، قلت له بابتسامة، مُمازِحَةً:

- صباح الخير!

وبابتسامته الخجولة غمغم:

- أشكركِ أمي، أتمنى ألَّا نعود إلى ذلك البيت المشؤوم.

- لا تشغل بالك حبيبي، اِستمتِع بالصباح والنسيم العليل. سوف يكون كل شيء على ما يرام.

بقَدْر ما كانت الفرحة العارمة تجتاح قلوب الصغار، كانت فرحتي حَذِرةً ممَّا يحتدم داخلي من صمت مريب وتساؤلات يعجز ذهني عن إيجاد إجابات لها، فكيف سيكون الغد، وما بعدَه؟ كان يخالجني حَدْسٌ أن هناك خللًا ما، حتى ظلَّ هذا الخلل متواريًا خلف طول الطريق ورتابته، الرحلة وساعاتها الطويلة باتجاه الحدود. لتجيء السيطرة والتفتيش والبحث عن مَحْرَم، بدأ الخلل يتجلَّى ليفعل فِعلَهُ حتى آلَ كل ما خطَّطتُ له إلى السقوط، فقد انبعَثَت من الأغوار البعيدة لوعةٌ احتلَّت ومضة الفرح الضئيلة، نحن بين مسافرين كلهم أغراب عنا، وحدنا والليل حادينا، خَامَرَني شعور كالح، لم أكن أعرف إن كان أصحاب مكاتب السفر يعرفون بتلك الموانع أم لا، ولكن.. ماذا يهمهم؟ فلم يلفِتُوا انتباهي إلى موضوع المَحْرَم، ولم يسبق لي أن سمعتُ به، وإلا كُنتُ تدبَّرت الأمر.

الزمن يمتدُّ بنا ساكنًا من حولنا، أشار إلينا السائق بوجوب النزول للتفتيش، نزل الجميع، لم أكن مستعدَّة فحقيبة الأطفال مفتوحة وقد تبعثرت الحلوى وملابس الصغير والحفَّاظات، حاولتُ جمعها بسرعة تأهُّبًا لما سيكون، عليَّ أن أكُفَّ عن إجهاد نفسي بالتفكير وإعادة الصور المقطَّعة، والكلمات البلهاء. دسَسْتُ حقيبة وليد بين الكراسي، تلفتُّ حولي ثانية.. الجميع نزل من الحافلة إلَّا أنا والصغار، أرضية الحافلة ضيقة جدًّا، لكن الرضا وحده ما يحتضن أجساد أطفالي الذين شعروا بالراحة لتلك الرحلة، فاسترخَوْا كلٌّ على مقعده، ليس بسبب التعب بل الإحساس بطعم الحرية والانفلات من «البيت المشؤوم» كما يسمِّيه آدم، صاح السائق:

- الجوازات، لُطفًا!

كم كان الليل حينها بطيئًا وثقيلًا، خاصةً عندما يمرُّ بمأزق لا يعرف كيف يخرج منه، حاولت أن أتذاكى قليلًا، فقلتُ:

- أين الضابط المسؤول؟

وقفتُ أنظر إلى الركَّاب بدهشة، والرعب يجتاح جمجمتي، غريب وعجيب! الأغلبية من الشباب في ريعان الصِّبا، صفات كافية لإثارة الأسئلة، لكنهم غير مُسلَّحين بل يَمشُون مبتسمين بتودُّد ولُطف، ومع ذلك كنت حائرة مرتعبة، أتوجَّس خِيفة، أنظر إليهم مبهوتةً، كنت أخشى استيقاظ

الأطفال، لذا فكَّرتُ أن أذهب إلى الضابط لأُعرِّفَهُ بنفسي وأشرح له الموقف. لم يسَعْني ذلك، عدتُ إلى السائق ليتدبَّر أمرنا بصيغة ما، لكن آهَتَهُ رنَّت في أرجاء المكان بـ«ما شاء الله!»؛ تدفَّق صوت الضابط المتهلِّل بالرعب بعد وُجوم، انتقلَ صدى صوته إلى أرجاء الصحراء التي تجاوبت بصداها المدوِّي، لم نَقْوَ على إسكاته وإقناعه، ولم يُجْدِ تَوَسُّل السائق إليه نفعًا من أجل مرورنا، فشعرتُ برائحة العفونة والدخان يتصاعد إلى أنفي، كنت قلقة مضطربة، كبرت الرغوَة بأسرع ممَّا أتوقَّع، رفع الضابط يده على السائق، مال السائق برأسه، فأشار إليه يأمره بإعادتي وأولادي إلى حيث جاء بنا لعدم اكتمال الأوراق، وإلَّا سيجبر الحافلة كلها على العودة.

كان الوضع مُتأزِّمًا داخل الحافلة، توجَّس الناس خِيفة من عدم إكمال الرحلة، فأغلب مَن في الحافلة هاربون من تعسُّف النظام، عائلاتٌ وكبارُ سِنٍّ وشباب ونساء وأطفال، كأنه نزوح جماعي باتجاه عَمَّان. في الوقت ذاته ساءَهُم أن أعود من دون مواصلة الرحلة ولكن ليس الأمر بيدهم، لذا كانت العيون معلَّقةً بنا والأفواه تتمتم، والوجوه تنظر إلينا متسائلةً كيف سأتصرَّف وحدي في هذا الليل العفن؛ الطريق وعِرةٌ ونحن وحدَنَا، والآخرون لا حول لهم ولا قوَّة في مدِّ يدِ العون لنا. دَنَا منِّي السائق بوجه صارم هامسًا:

– اسمُكِ في لائحة الممنوعين من السفر، سيدتي. لو كنتِ أخبرتِنِي بأمرِكِ!

لم أَرَبُدًّا من الامتثال للأمر، وأن أهيئ نفسي لكربٍ مقيم، هتفتُ في داخلي، صرختُ صرخة تغطّي كل الصحراء الغربية والشرقية، يا إلهي! أمعقولٌ أغرق في كل تلك المآسي من دون أن تمدَّ لنا سِلال العون؟! غرقتُ وَقْتَهَا في دموع كلِّ غيوم السماء، واقفة عند باب الحافلة مع الأولاد وقد غطَّى تراب الكرب والصحراء وجوهنا.

قال السائق متأسِّفًا:

– عليَّ أن أحجز لكم أمكنة في الحافلات العائدة إلى بغداد.

ها قد تحوَّل الحلم إلى كابوس، غمَرَنَا ليل فيه مُدْلَهِمٌّ أسوَدُ، وإذا بآدمَ يصرخ صرخة مفجوعة، فوقفتُ بين يديه مهزومة وقد علاني صدأ السنين:

– ماذا؟

– ماذا؟ أمي، لن أعود. لن أعود أقسم إنِّي سأقتل نفسي هنا. ماما، ما الذي يحصل؟!

احتضنتُ رأسه وبكيتُ معه، وبعد أن تحرَّكَت الحافلة تذكَّرْنا أننا لم نُنزِل الحقائب التي سافرَتْ مِن دوننا.

شاهدتُ الرؤوس تتقارب، والأعيُن تسترق النظر إلينا، والقلق تفشَّى في الجميع، ربَّاهُ كيف أُقنع أولادي بأني لم أقصد الإساءة إليهم؟ أردنا عبور نهر العذاب، لكننا ها قد عدنا للموت والفوضى والهذيان! عدنا إلى بيتٍ يخوض في ظُلُمات الليل، حلمنا الوهميُّ أوراقُ خريفٍ متساقطة في فصول تُحرق

اليمامات والأفكار، عدنا حيث الخوف يروِّض الأحياء.

ها هي لحظةُ زَمِّ الشفاه في الواقع المشنوق، عيوني التي استهلكَتْ كل دموعها انفجرَتْ، لا تعرف كيف تَخْلُصُ بثأرها من الأيام، وهي تنتظر الزورق المتوهِّج، عدنا حيث الألم كَعَيْنِ دودٍ يصنع سُلَّمًا لاقتلاع أورِدَتي، حيث الابتسامات المهدورة على خُدود الأرض، والعيون المنافقة، الأسئلة التي تنتقل بإيماءات الصغار من جُحر إلى جُحر، لقد لاحَت لي شمس الصباح سوداءَ تتساقط برمادها على عيوننا، وقد التهمَتْ آمالي ورقصات الأطفال الشاحبة، القفص الذي أصبح أضيق من السابق كان منفًى عدنا إليه بأرجلنا، ذلك المكان الذي عشنا فيه بلا شَفَقَة، الخناجر التي انتصبت أمامنا كأشباح في كوخٍ صامتٍ تتربَّص بنا كحمم الجحيم، عرفت حينها ما صراخُ الفجر حين حَطَّ اليأسُ عاريًا على ظلِّي، وما زلتُ لا أعرف شيئًا عن الناس، وهم يتأمَّلُونَنا ونحن نبكي تحت أسمائِنا المتعطِّشة لكلمة مواساة تضمِّد المناديل، كنت أحاول أن أخبِّئ المسامير تحت غطاء قلبي الضعيف، فَعَلَيَّ أن أملأ آذاني بالتراب والقطن كي لا يكتسح اللوم عظامي الهائمة، كنت أعلم أن الرحيل يُهَيِّئني لعبورٍ شاهقٍ، لتؤوب بُوصلَة الروح إلى ذاتي، وأنا أسير على جمر الوقت، ولكن.. كانت غُصَّةُ الندم على إفلات فرصةٍ قد تكون هي الأولى والأخيرة، قد لا تعود.

مَثَلْتُ أمام باب البيت كالقَدَر، وقد انقَضَّ زلزالٌ دامٍ على بصري، جرى شريط الواقع مسرعًا أمامي يسحب خلفه صورة أسرتي البريئة، جاهلةً ما سيكون، فقد قرَّرتُ الافتراق إلى الأبد، وها أنا أطرق الباب بِلَوْعة، كمن يطلب المغفرة، كان وَعيُ أمي يتَّسع فجأة ليستعيد بعض التفاصيل، كانت واقفة عند الباب عيناها تقدحان بالشرار، وداخلي يتأمَّل، عسى أن تخاطبني بكلمات لم أسمعها منها منذ أمدٍ بعيد، رغم أن اليوم يَغرق في جسد الأمس، قرأتُ في عينها سَوْرَة الغضب، أومَأَتْ برأسها مستفهمةً وهي تمسك طرف الباب بيدها، وهي إشارة إلى عدم السماح بالدخول، مُحمرَّةَ الوجه من فرط الانزعاج، وقد علَا الاحمرار أنفها المقوَّس الموشوم بِدُمَّلٍ كبير على جانبه، ثم ما لبثَ الاحمرار أن سرى إلى عينيها وجبينها، وهي تراقب أحفادها الذين بَنَوا قصورًا من رمال، قالت:

– ها! أهذه أنت؟ أراكَ عدتَ!

– انتَهَينا!

قلتُ بحركة تنمُّ عن نفادِ صبر، ونَحْسُ الكلام يبدأ طوفانه بحرف قطرة. قالت:

– لا أدري هل أُعزِّيك أم ألومُك! كان يجب أن تشغِّلي عقلك قبل ارتكاب تلك الحماقة...

– أسرتي هي ما يهمِّني، حتى لو كان الحلُّ هو الانتحار!

ضحكَتْ مِن كلامي ساخرةً وهي ترمقني بِشَزْرٍ، وأنا أتابعها

بذهول حتى انتهت إلى القول:

- نَهَلْتِ من ينبوع نِعمتنا وارتويتِ، لكنَّ البَطَرَ والضجر جعلك تتمردين على النعمة وهذا من أمارات الخيبة. لا يعنيني فراقكم ولم يعتَرِني الندم، ولكن أَسَفًا.. عدتُمْ.

- أنا التي لا تندم على فراقكم، ولم يفارقني الندم على مدى فترة بقائي، ولبست قناع الصبر. لكن يا للخسارة! أفلتت مني فرصة العمر!

طأطَأْتُ، كمن اقترف جريمة لا تغتفر، وتلك المرأة التي لم يحرِّك قلبها يومًا تجاهنا أيُّ مودَّة، تتحيَّن الفرص لتصبَّ نار غضبها علينا بلا سبب، دفعتُ الباب بيدي ففتَحَتْهُ هي على مضض، دخلنا في نفق الأسئلة المظلم حين أمطرَتْها علينا، أحكمتُ إقفال داخلي بالصمت، وأنا أُصيخ إلى أذان المغرب، كنا متعبين للغاية مغمومين حدَّ إقفال عيوننا، غادرَتِ الصحة وجوهنا المغبرة من تراب الطريق الطويل والتعب، الإنهاك والفشل، الإحساس بالموت وهو يقطِّع أمعاءنا، قلقي على أولادي أَخَذَ مني مأخذًا لا يُطاق، كان همِّي ثقيلًا لا تحتمله الجبال الرواسي.

ولولا المدير القديم لضاعت مني وظيفتي القديمة، فما لبث أن ألحقني بوظيفتي إذ لم يكُنْ بُدٌّ من العودة إلى الوظيفة، فحمدتُ الله على الرزق. ومحمد الرجل الطيب حثَّني على

التدبير، وجعل يتابعني من حين إلى آخر، استغرقني العمل والأولاد، وبَلَوْتُ الحياة بحُلوِها ومُرِّها، صبرت عليها حتى ذهب الرَّوْع مني ومن أبنائي، وهدأ ما بي، وعند وصولنا رُحنا أنا وآدم نتجاذب أطراف الحديث، ولم أكتم دهشتي حينما رأيت أن الحجرة قد خَلَتْ من باقي الأغراض التي تركتُها.

كانت عيناياَ من دون إدراك مني تُتابعان حركة المروحة المتثائبة في سقف الغرفة في مقرِّ الوظيفة القديم، الهواء مشبَّعٌ بِزَنَخ الأرواح المتعَبَة التي توحَّدت مع دخان السجائر الذي تجمَّع فوق الرؤوس، الإضاءة المنبعثة من الشبابيك تملأ الجدران العارية وتنفُذ حادةً إلى الزوايا، الموظفات من حولي يستغرقن في أحاديث جانبية، الناس والزبائن يأخذون جانبًا في انتظار إشارةٍ من الموظف لِتَمشِية المعاملات، الفسحة الصغيرة بدت كافية لجلوسي، وهي تعالج العمل الوظيفي اليومي كما لم أره من قبل، كانت نفسي عاجزةً رغمًا عني، كما لو أن قوة أنشبت في ظهري سياطًا من نار، أحاول لملمة نفسي بجهد، أتوجَّه إلى غرفة الاستراحة، الحزن الكامد، الراكد فِيَّ، الشاخص في عيوني.. لا شيء بالنسبة إلى الأخريات. «مِنُو إلَك يا قلبي المسكين.. جرحي اللي بغيري خَدْش».

كانت بي حاجة مُلحةٌ إلى شِكاية إحداهنَّ، فما زلتُ أسبح في بحر الماضي وقد غمرتني موجاته المخضَّبة بلون داكن، صدى الحزن يهرس روحي فألتزِم الصمت وأتلاشى، فعندما

تصنع الحياة ثيابنا وتخيطها كما تشاء، فلا بُدَّ لنا من أن نخشى مخاطرَ ترتفع بنا إلى لبس جلباب الموت، حين لا حيلة لنا إلا خواطر مجنونة كالانتحار، تندُّ عن حُرقة الروح وكُلفة الحياة الباهظة، لكن الحياء يَشْكُمُني، وشيء كالخوف، لقد اِلتصَقَ بذاكرتي إلى اليوم، منظر الكف العمياء وهي تهوي على خدِّ صغيري، فمن يساعدني ويواسيني منهُنَّ؟ خاصمت نفسي، خاصمت كل شيء، العالم وما حولي وأنا وحدي، ترقبني عيون الرثاء. لماذا أنا؟ لماذا أنا؟ هل رُهِنَتْ ذمتي للأقدار؟ هل أيادٍ غير مرئية تحرِّكني من مكاني لتحرقني، أَم قوة خارقة رمتني نحو أمي مرة أخرى؟ أخشى أن تَعْدِل أمي عن رأيها وتسلبنا طعم الراحة المؤقتة.

أشجارُ الخيبة تطولُ
في الفضاء
وأصابعُ الغدِ الخضراء
تغرق في مياهٍ آسِنَة
الأسئلة تغرس إثمَها النافر
في عينِ المغيب
الوقتُ مات
وماتَ
خيط الرجاء.

كانت عيني مُسَمَّرة على النافذة التي تتسرَّب منها خصلات الغبار والدخان، الوقت يمر مَلُولًا، حتى جاءني صوت المدير قائلًا بأن أمي على الهاتف، ذهبتُ بخطوات سريعة، قلبي يُقرِّعني بضربات تكاد تخترق جسدي وتخرج، حتى خُيِّل إليَّ أن المسافة القصيرة إلى باب الإدارة كأنها شارع طويل:

- نعم أمي.. خير؟!

- اِسمعي.. تعالَي فورًا؛ وجدنا لك بيتًا قديمًا. قبل ذلك اذهبي إلى السوق لشراء بعض الأغراض وتعالَي بسرعة، (بيتُ عمِّك) اليومَ هنا.

- أمي، بعد إكمال عملي! الآن لا يمكن. اِنتظري إلى ما بعد الظُّهر سآتي وسأوافيك بكل الاحتياجات...

قاطعتني:

- لا. أقول لك تعالَي الآن، هذه مشكلتكِ.

- أعرف، أمي. أنتِ طلبت وأنا سأنفذ، ولكن بعدَ...

قاطعتني، أغلقتِ الهاتف، فاستدرتُ وسحبتُ أذيال خطواتي بنفادِ صبر، الحَيرَة تتقاذفني، المدير يتَّكئ برأسه على ذراعه، سألتُهُ الإذن بالخروج وخرجتُ لا ألوي على شيء، وقفتُ عند رأس الشارع مستندةً إلى الحائط لآخذ نَفَسًا عميقًا، وبعد مشوار التسوُّق الطويل وصلت إلى البيت وألسِنَةُ الغيظِ أعلى من رأسي، دخلت واتَّجهت من فوري إلى المطبخ، قلبي يحاورني.. ماذا سأقول لها؟ هل أحاسبُها؟ كيف

ومثلي لا يحق لها ذلك؟! أعاتبها مثلًا؟ وما الفائدة؟ هل أنسى غيظِي وأواصل عملي في المطبخ لإعداد الطعام للضيوف؟ سمعتُ خطواتها خلفي، التفتُّ إليها لأتلقَّى سؤالها العاجل:

– ها.. ماذا هيأت للغداء؟ هيا بسرعة أعدِّي المائدة.

ارتَبَكَّ الجواب وتَحَوْصَلَ صوتي داخل حنجرتي من الغيظ، تجمَّد الكلام قبل أن يخرج متقطِّعًا:

– أنا... اشتريتُ... أمي... حاضر...

قاطعتْنِي:

– هيا أسرعي!

كانت ضريبة وجودنا في بيت العائلة باهظة جدًّا، كانت أمي تشترط عليَّ أن أنجز كل مهام البيت وتستعجِلُني والغيظُ ينهش قلبي ويمتزجُ بالخوف من المستقبل، كانت رنة الغضب قد طغَتْ على صوتي كأني أقول لها «ارحميني»، كنت أتطاول عليها في سِرِّي، وأدعو الله أن ينقذني منها ومن متطلَّباتِها التي لا تنتهي، والاستفزاز الذي يقفز من سابع أرض إلى سابع سماء. كانت تحاول أن تلهيني عن أطفالي بأي شكل وأتفرغ لها وللبيت، وكانت عندما تسمع مني كلمة «أطفالي» كانت تُجَنُّ وتقول:

– لماذا لم تتركيهم وترميهم إلى أبيهم، لو لَم تأتِي بهم إلى هنا لكان أفضل لكِ ولنا، أنتِ مجنونة!

– لو كنتُ خذلتُهُم وتركتُهُم كنتِ أنت أوَّل اللائمين.

فتصمُت.

كان عليَّ عندما تزور بعض الأقارب وتعود متعبةً أن أنتظرها إلى حين مجيئها لأُعدَّ لها الأكل والشاي، ومن ثَمَّ أكمل تنظيف الصحون وأهيئ لها الفراش، لترضى عنَّا. وهي متجاهلة كليًّا واجباتي تجاه الأولاد، كان عليَّ ألَّا أعترض أو أغضب منها بل عليَّ أن أعذرها، وأعتذر لها عن تقصيري. كنت لا آمَلُ في أي تغيير منها لوضعها في معاملتها لنا، ولا أشغل بالي وتفكيري بهذا الأمر الذي لا طائل من ورائه، كي لا تفجعني اللحظات، إلى أن يحصل أمر ما أو تأتي اللحظة الحاسمة.

••••

ها هو عُمر الطفولة يزداد امتدادًا ويحاول أن يفِرَّ خلف الأسوار العالية، ليتحرَّر فيها ويتنسَّم هواءً منعشًا، فقد بلغ آدم الخامسة عشرة وكان يلحُّ بغرابة بصوت متألم يشبه الجزع:

– أُقسم يا أمي رغم خوفي عليك وعلى إخوتي أني لم أعد أحتمل هذه القمامة! فستظل أيامنا كالأيام السابقة إن لم أفعل شيئًا، إلى متى نحتمل الهوان؟

– مِمَّ أنت منزعج يا بنَيَّ، حدِّثني عمَّا في قلبك، اِجلس معي إن ضاق صدرك، لنسهر نتحدث عن الحياة ونتسلَّى...

– أريد أن أسافرَ. لا أطيق العيش هنا.

أشفقتُ عليه وأحطته بذراعي، فأردف:

– أنا يا أمي أحب مُجَالستك ولا أشبع منك، ولن أرتاح بعيدًا عنك، لكن أصابني الضيق من هذا المكان، سوف أدرس وأعيش في قِسمٍ داخلي، أقسم لك إنني لا أطيق رؤيتك وإخوتي وأنتم في منتهى التعاسة. وافِقِي يا أمي، أرجوك يا أمي! لا تقلقي، فسوف أجيء إليكم بين حين وآخر، لن أذهب بعيدًا عنكم.

لكن آدم لم يُصْغِ إلى توسُّلاتي ولم يستمع إليَّ، لم يُجِبْ، أدار ظهره لي، ابتعدَ عنَّا بشموخٍ شاهقٍ عنيد، شموخ مِن دون عمود يسندُ أركانه، كرُوحي التي صارت من يومها مكسورةً، عمياءَ. رغم الكبرياء الفارغة، كان خوفي عليه يتزايد، ثم أتلفَّع بآيات الحفظ والهداية تحت ستار الليل، وأوجِّه وجهي نحو القِباب المضاءة بقناديل الرحمة لتخفِّف عن كاهلي مرارة الأيام، وتعب النهار الطويل.

كان كلُّ ما حولنا غير ملائم لما يبتغيه آدم، ففراق أبيه المفاجئ كسر لُبَّهُ، وفاةُ جدِّه الذي كان يحبه كأنه ابنه، المضايقات الكثيرة التي تعرضْتُ لها، الظروف التي جعلتني أعتمد عليه حين انْصَبَّتْ عليَّ لعنات الطرفين: أهلي والأيام،

وبدا كأنَّ دمي مهدور للجميع، كأني أرض استُبيحَت وقُطِّعت أشجارها وتحوَّل خرابها إلى موت أَثْقَلنَا كاهِلَه، فأشفقت عليه وقلقتُ، وكنت متيقِّنةً أنه لا يتورَّع عن تنفيذ ما يدور في رأسه، ولما أدركتُ أنه لن يكفَّ عن سعيه لانتزاع الموافقة مني، خشيتُ أن يتمزَّق، فتركتُهُ لقراره، وروحي تسعى خلفه.

ظللتُ أتابعه من بعيد، يوميًّا، أصدقاءه في المدرسة والجامعة، معارِفَه، مُدرِّساته ومُدَرِّسيه، من دون أن يعلم أو يشعر بذلك. كنت أشعر به في كل حين، شعرت به يوم سرقوه في القسم الداخلي، وتنمَّروا عليه، كان بكاؤه الصامت يُدِرُّ أثدائي، يلسعني في جوف قلبي، ومن الخير أنه ترك المكان. فرِحتُ به يوم التقيتُ مُدرِّسَتَه بدون أن أُعلِمَه، وأخبرتني أنه قد تفوَّق على زملائه. أشكر الله على فضله ونعمته، أسترسل في آيات الصبر وأدعو له بالنجاح والحفظ لأنه له ربٌّ كريم، فالوالد كان مخلوقًا تافهًا ونافرًا أصابنا منه رهَقٌ وحظٌّ منحوس.

خرج آدم من الجحر المظلم، ليُدلِّل على أنه نفض عنه غبار الظلم والانصياع والذل، وليطهِّر روحه بخَفقَة العَلَم ونسيم الحرية، فنزع من قلبه أشواكًا لَاكَتْ قلبه وعُجنَتْ في دمه، ليكون مؤهَّلًا لصياغة حلمه.

فحين يشاء الربُّ امتحانَ أحد من عبيده، يبتليه بما لا يخطر على بال، أقول «اللهم لا اعتراض على مشيئتك».

الغد الغامض الذي يتربص بنا، اجتياز الاختبار، الماضي الشاخص، مسؤولية ما حدث وما سوف يحدث، تلك المكابدات أشكوها لمن؟ ومن سيسمع ندائي؟ العمر ساعات قصيرة، محنتي التي امتدَّت كذراع لا متناهية تُخفي أحلامنا الفسيحة، وَحدَتي في صحراء شاسعة طافحة بالصمت، أتساءل.. هل سيدخل الربيع من بابنا الأبْلَهِ ذات يوم؟ الربيع الذي زرعه والدي ذات يوم أصبح ذابلًا على خدودي، الربيع الذي تنفَّس في بيتنا تحوَّل إلى أنقاض مدينة خالية، فهل سيعتدل رُبَّان الحياة في تعامله معنا ذاتَ شعاع؟ العصافير وحدها تسكب في عيني غُلالَة حُنُوٍّ، وتهمس في روحي نبرةَ شواطئَ ذهبيةٍ لتمحُو الزبد.. فهل سأقطف وردًا قرمزيًّا في نهاية مَطَافِي من ربيع يدي في أحد الأيام؟ هل سأنجح في الوصول إلى دروب مزهرة؟ هل أستطيع؟ وأنا زهرة برية ضائعة بين الحشائش والأدغال، أنا الذائبة في نهر الطيبات الكبير، هل أعود وأنمو على الضفاف مرة أخرى؟

إنني بحاجة إلى فانوس علاء الدين لأطْرُقه بانفعال فتسقُط مرافئ التعاسة، والحاجة واليأس، لا أتمنى غير كوخ صغير من لَبِنٍ وطين، ثِيمتُه الأثيرة طفولةٌ لا ترمُقُها عيون الحاجة الفاغرة، خبز وملح ونسيان كثير، لا يهمني أن تتغير ملامحي أو أفقد أجراس النزهات الصاخبة بإفراط، يهمني أن تبقى الحياة دافئة لصغاري، وسأغفر لكل أَمْسِيَةِ الماضي الملعون من أجل حِضنٍ حنون، من أجل لحظاتهم الصادقة،

بريق الشفاه، ألا يسيروا على جمر الكلمات اللاذعة أو يعبروا جسر الخيانات الصاعقة. كنت كثيرًا ما أُملي على أسماعهم مفردات بسيطة تكون سلاحًا لهم في أُوَارِ الحياة الهائج، فأقول لهم «لتكن آذانكم من حجر وطين، فلا يخدعنَّكم بريق الأسماء الهشِّ، والنقوش الفارغة، حلِّقُوا في سماء جامحة بلذَّة لا يُشَقُّ لها غبار، عبِّدُوا مدينتكم من ترسبات الملح وزكائب التراب الشاهقة، فقد عمَّدْتُكم بأغاني الصباح لتنجوَ أصباحُ حياتكم».

••••

كنتُ لا أُطيق وقت الغروب؛ الآهات تتلقَّفني وتدوِّي في أرجائي، وتُرسل صداها يتردَّد في جوانبي، فكلما تغيب الشمس يبدو الكون ضئيلًا هزيلًا، يهرول في أسمال بالية، يتكلَّم.. الابتذال والبلاهة في كلامه. وقد جاشت في صدري عواطف نائمة لكنها صاخبة، لم تَزُغْ عيناي عنها رغم الشَّيب الذي خَطَّ رأسها، ولا عن ذلك الحدث الذي هزَّ روحي وجسدي، رغم أن آخر لقاء بيني وبينها كان منذ عشرات السنين، حين تحوَّل مشواري إلى مواقف من الحَيرَة والتساؤل، تُرى لماذا هذا الحقد والتَّجَنِّي؟

كان صوت أمي المُلِحُّ بتجهيز الفطور ودعوة سَليمَة وأبنائها

وكلماتُها القاسية تخرق قلوبنا، ومعاونتها في تنظيفهم، كنس البيت وترتيبه وغسل الصحون، ثم تغيير الشراشف وتبخير الغرف، ثم عليَّ أن أقدِّم الشكر والحمد والدعاء لأهل البيت!

كيف لي أن أنسى تلك الأيام والأعوام؟ كيف؟ من سيذكر تلك الأيام إن لم أتذكَّرها؟ والحياة فيض من الذكريات يجري إلى مصبِّ النسيان، وليس سوى الموت حقيقةً راسخةً، فعندما تقرفص المرأة على طَشْتِ الغسيل تعرفُ منازل الحقيقة في عصر الذهول، تحرِّك يداها الماء وتسترق عيناها النظر إلى الأبناء، لقد ضاع عهد اللَّهو على سطح الدار في المغربيَّة، يوم كنت أركز على شغف النجوم واستدارة القمر.. أعود إلى الأرض.. ويطول عليَّ الليل ويشقى، ويستبدُّ بي السهر والتفكير. تتجاذبني المشاعر المتضاربة، لم يفارقني القلق المرتعش، أنتفض من لسعات الأفاعي وأعلم أن الخبث لن يهدأ، فأستعدُّ له هذه المرة، الأسئلة تدقُّ على رأسي بمطارقِ حديد، العقارب تسحق صبري بِسُمِّها الرَّاعف تحت جلدي، فلا أجد مَن أتوجَّه إليه ليخفِّف عني، عيناي تذوبان في دموع ساخنة وصامتة، أتلفَّت كل اللحظات أراقب، عَلَّ أحدًا يأتي من شق الأرض ليحقق أمانيَّ.

لم أكن أصدق لولا عيني، تابعتها منذ لحظة نزول وليد إلى الحديقة ليلعب ويتْبَعَ ظِلَّ الحَجْلة، توقف قليلًا ريثما تمر (سَليمَةُ) وهي تخطو من باب غرفتها حتى وصلَتْ إليه، نظرَتْ إليه نظرة غامضة، فامتلأ خوفًا، انطلق يعدو، كنت

شاهدةً على سرعته، كنت أتابعه لأني أخاف عليه من الجري السريع. فانتظَرَتْ حتى يكون قريبًا منها، حينها وضعَت نصل السكين المجمور على رقبته وضغطت بقبضة يدها عليه، حتى تخور قواه فيخمد؛ صرخ، فرفر كالعصفور يثبُ من مكان إلى مكان بين يديها تحت ألم السكين يَحرق جلده التَّرِف، فَغَرَ عيونه المتوسِّلة متوسِّمًا إشفاقًا منها عليه، ولا أدري أيَّ روح تحمل تلك المأبونة! جئت مسرعة، انقضضتُ عليها لأخلِّص وليدًا من يدها، ابني يصرخ! خافت مني عندما رأتني، هربَت، لم تكن متوقِّعة رؤيتي لها؛ نِلتُ منها.

حملته بين ذراعيَّ وما يزال يصرخ مرعوبًا والليل المعتم يلتهم عيوننا الحزينة، اِحتَضَنْتُه وأشفقتُ عليه، رفرف صوته فسمعه الليل ورأته النجوم، تداركتُ أمري، زفرتُ وتنهَّدتُ وأنا أُهدهِده ليسكت.. لكن هيهات! فقد أخذ منه الألم والخوف مَأخذًا، قلت له:

- سأرميها تحت قدميكَ يا ولدي، سآخُذُ حقك منها. اسكُت يا حبيبي.. أُقسم بعِزَّة الله لن أترك حقك!

غمرتُهُ بحناني، فأحاطني بذراعيه متشبِّثًا بي كأنه يريد أن يدخل في صدري، لم نتحرَّك، ظلَلْنا بحذاء الجدار، أنتظر ليهدأ، حملتُهُ ونزلتُ به إلى المطبخ لأبحثَ عن (ميكروكروم) أو أي مُعَقِّم آخر لتعقيم الحروق.

كانت تستعذبُ تعذيب الصغار لاستفزازي، لذا كان عليَّ

أن أوقفها عن تماديها ولن يلومني أحد في ذلك، كيف لا أدافع عن صغيري والقطط تدافع عن صغارها؟! لكن صبرًا بالله، فسوف يأتي اليوم الذي فيه أقتصُّ منها.

لم يكن أخي قد اعتاد الحضور مبكرًا إلى بيتنا، لكنه في ذلك المساء قد جاء مسرعًا ليس كباقي الأيام، وقف في حلق السلَّم وناداني، سمعتُهُ فنزلتُ إليه، ألقيتُ التحيَّة، لم يرد، تقدَّم نحوي، سحبني من يدي غاضبًا، أفلتُّها منه، الوالدةُ قابعة في صالة الجلوس تراقب ساكنةً، كأنها تستحمُّ تحت دُشٍّ دافئ، لم تُصدر أيَّ حركة أو رَدِّ فعل أو اعتراض، ولم تحاول أن تنبس ببنت شفة، قال:

– تعالي، ما التالي معكُمْ؟ وماذا بعدُ؟ ما الذي تريدين فعله أنتِ وأولادك؟ لقد ابتلانا الله بكم، إلى متى...

قاطعتُهُ:

– لن تفلت مني بِفَعلتها تلك، أُقسِم بالله. ولن أنتظر من أيِّ أحد أيَّ كلمة وسأنظر...

قاطعني:

– كفى كفى! عليك أن تبحثي عن مكان آخر.

– لن أبحث ولن أترك بيت أبي. أسمعتَ؟

كان الأولاد قد تجمَّعوا حولي متلاصقين بعضهم ببعض، استدرتُ نحوهم لأهدِّئ من رَوعهم وقد اجتاحتني القشعريرة

والارتجاف من رأسي إلى أخمص قدمي، مسحتُ وجوههم الحزينة كأنهم سبايا الحروب، وصخرة كبيرة لا تزال ترقد على قلبي، أحطتُهُم بين ذراعيَّ وصعدت بهم إلى الحجرة فارتَمَوْا على صدري يبكون بكاءً يقطع نياط القلب. ساد الظلام المكان، وأحاط بِي كأن عيون الأرض قد نامت عنَّا، فانزَوَيْنا بأجسادنا المرتعشة، اضطربَتْ دماؤنا، الألم ينزف بين أصابع أيامنا، الألم الذي يلاحقني مرارًا، يَلتَقيني مرارًا، ولم يرفع عينه عنَّا، لم أَنْجُ منه، كأنه يريد أن يقولَ «إنني سأعيش تحت خَيمتكم، لا أخرج عن سقفكم».

كانت زوجته قد تركت البيت في الحال حين أمسكتُ بها وهي تؤذي ابني، وكنت أظنُّ أنه سيُؤنِّبُها ولكن بعد أن تركَتْ زوجته المنزل تركَ الكلام معي، ذابت الأُخوَّة في صفيح ساخن ظلَّ يُطرَقُ كل حين، ولم يَسْعَ إلى صياغة أسلوب جديد للتعامل مع الموقف للوصول إلى توازن ما.

مرت أشهر، زوجته لم تعُدْ إلى المنزل، تاركةً أولادها أيضًا لكنه حملهم إليها بعد حين، كانت قد اشترطت عليه عند عودتها، خروجي من المنزل، كنت أحسب أن يأخذ حقَّنا منها، لقد خيَّب ظنِّي.

- ما بالُه لا يكلمني؟

(قلتُ لأمي).

- وكيف تطلبين أن يكلمكِ ويصفح عنكِ وقد تركَتْهُ

زوجته وأولاده بسببك وبسبب أولادكِ؟ هل ارتحتِ الآن؟ هذا ما سعيتِ له، فقد بَقِيَ البيت لكِ ولأولاد الغريب!

- أي غريب؟! أمي، كيف تُطلقين على أولادي تلك التسمية؟ أليسوا أولادي وأنا ابنتكم؟

هزَّت كتفها ورأسها ورفضت سماعي إلى الآخر، ولم يَطُلْ به صمت المقام حتى اشترى لزوجته بيتًا جديدًا وكَتَبه باسمها، ليتدارك موضوع الطلاق الذي طالبَتْهُ به. آهٍ! لو كان أبي حاضرًا لما استطاع أحدٌ أن يتطاول علينا، ولم يحضُرني أو يخطر على بالي أن أكون في هكذا موقف مع أخي، وتطاولَتْ أذرع الخصام لأكثر من خمسِ سنوات بيني وبينه، كأنه نسِيَ أن له أُختًا مظلومة، نسيَ أن دمه دمي وأُمَّه أمي، كان يدخل البيت فيتجاهل وجودي متعمدًا، يتجاهلني عندما ألقي عليه التحيَّة، نسيَ أن النساء عندما يتوجَّعن يُنادين إخوانَهُنَّ، وتشعر الواحدة بالضعف لعدم وجود أخ. من أين أتى بكل تلك القسوة؟

لم أكن أتصوَّر أنه يصْطَفُّ مع قسوة أمي وزوجته، لقد خذلني وخذل رابطة الدم بيننا، لن أنسى كلماته حينما ردَّد أكثر مِن مرة أنه ليس مسؤولًا عني، بل أصبح يُكرِهُني على البحث عن مكان آخر، كان يصطحبني بسيارته الفارهة كي أختار أحد المنازل للإيجار، وكنت أعترض بألفِ حجَّة وحجَّة، وأختلق الأعذار ليس خوفًا من الدفع بل من أنياب المجتمع

المُسَنَّنة ونظرته إلى المطلقة، كنت حينها لم أبلغ الخامسة والثلاثين، أتساءل بيني وبين نفسي: أمعقول أنه لا يدرك ذلك؟!

أرفع رأسي إلى السماء متجاهلةً إلحاحَهُ المفرط للخروج من المنزل بأيِّ شكل حتى لو كلَّفني ذلك عمري. أُشيح بجسمي عنه وألصق وجهي بزجاج السيارة كقطة تخشى السكِّين، بدموع تشبه الصراخ، وفي داخلي لون المغيب.

كما للظلام نحيبٌ
يسقط عليَّ
نحيبُكَ
ينعَى خيباتي
يا شقيقي
كِلَانا حبَّات رمل
في وادي السلام
تُكتَبُ مراثينا
قبل العبور.

ومن عجائب الأمر أنني كلما اجتاحتني مشكلة، سِرٌّ عجيب إني أرى أخي الشهيدَ يَمْثُلُ أمامي، أناجيه، فأقول له:

– دُلَّني على الدَّرب يا أخي، ماذا أصنع؟ فقد ضِقْتُ بحياتي عندما ابتلاني الضياع، حتى تُقْتُ إلى وقت ليس فيه ساعة تدقُّ. أجِبْني، ماذا كان اليوم من أمرك؟ بعد غياب خمسين عامًا بل يزيد، كانت طلعتكَ بهية، وبشرتكَ صافية، وعِلمكَ غزير، كنت أزورك ونتحدَّث عن أشياءَ شتَّى، وكانت زياراتي لكَ من أسعد الأوقات، اليوم وحدي.. أغوص في ذاكرتي من ناحية حجرتي المظلمة في أمواجك الصمَّاء الهادئة لتسمع أحاديثي عند شاطئك البعيد، فلم يبقَ لي إلَّا وجهُك، لقد دفَعَنَا المطر الأسود إلى مرافئ مجهولة، إلى مداخل ضيقة، وأفكار ضيقة، يا لها من فترة عصيبة.

أقول لكَ، وقد احتارت خواطري، كم مِن عيونٍ حبيبةٍ اختفَتْ أمام عيني، فمثلما تظهر النجوم ثم تختفي، كذلك العيون، مَن لي بأغنية أخرج بها من ظلمة الليالي الباردة؟ قل أيها المُغنِّي، أيها الشاب العابر برموشه الطويلة وشعره الأجعد وبِالتفاتاتِهِ النبيلة إلى الأصباح التي راوغَتْهُ، خوفي وعتابي وتنهيدة التعاويذ تطوف حواليكَ كأشعَّة فائقة لِتَقِيكَ أعاصير الحياة. ماذا أفعل بحياتي؟ أجبني أيها الحبيب، يا مَن أنت قريب مني، لا تبرح بصري ولا خيالي، تُريقُ عليَّ بريق نظراتك القوية، فما مِن أغنية سمعتُها مثل أغانيك أيها البطل الأسطوري، فما زلتَ كما أنت حين بلغت الخامسة

عشرة في مِرآتِك التي عكسَتْ زغب الذقن، لن أنسى دعاباتك الرقيقة حين تطَأُ عتبة الدار يا شقيق روحي، أيها الشفيع الذي يقطُنُ السماوات، حينما ترفع ناظريك تتوهج القناديل الناعمة مُزيَّنة بصوت فيروز، ناصيتي التي عقدتُها بين يديك لا تقوى على الفراق، بحثتُ عنك في الطرقات التي اِلتَهَمَتك، في أغراضك، في عينيك وهما تطوفان كشعلة وَلهَى لبَهونا المعتم، الشراشف المخملية المطرزة بالدانتيلا تناديني لتتلُوَ عليَّ قصائدك، اتَّشَحْتُ بثياب الحداد حين شاهدتُ الغبار المترسِّب على ثيابك جرَّاء التعذيب والحزن الطويل، لم يتبدَّل شيء ولم يتغير، فالرائحة تنبعث كما كانت، رسائلي التي لم يتسنَّ لك قراءتها عبر فوهة البركان، لم تزل منثورة في أرجائها، وا أَسَفَاه! كان اعتقالك عقب ترقيتك بأسبوع! لم أكن أتبيَّن صوتك حين أسمعك من بعيد، وأنت تصرخ كالأسير «أُمَّاه...» فوق الأرصفة الضائعة بك، كنت أُكذِّب مسامعي، وأُقلِّب في رحيلك الهائل فوق الكتفين، وما زلتُ.. أبحث عن وجهك في مرآة روحي أيها الوجهُ الجميل، شخصيَّتك الجذَّابة التي أسرتْ الجميع، حديثك الهادئ عن الحرية، نارياتك التي بدَتْ شاسعة وأنت محْضُ طيرٍ يسابق الأنسامَ في الغابات، كَبِرنا.. وبقيتَ صبيًّا يجلس عند نهاية طريق، قلبي المسكين الذي انتزعْتَهُ من مكانه ورُحْتَ به بعيدًا معك، سوف يتلو عليك آيات الصبر ويزيح الحجارة أو سواها عن طريقك المزهوِّ بحلاوة الروح رغم الضباب، آهٍ من

الفراق الذي أصبح ضريبةً أدفعها صاغرة لمن أحببتهم! ماذا أقول لكَ؟ نحن ما نزال أحياء، لكنَّ حياتنا أفظع من عربدة الحزن».

••••

أغلق آدم حقيبته، وبعد أن ألقى نظرة في ما حوله، قبَّلَ إخوته وقفز ناحية الباب، ولِلَحظةٍ قصيرة راقبتُهُ وهو يمرُّ أمامي، اِلتَفَتَ واتَّجه نحوي والدمعة تلمع في مآقيه، نظر إليَّ نظرة حائرة، استوقفتُهُ لأقرأ المُعَوِّذتين في أذنه، ثم اِنحَنَى ومدَّ يده ليصافحني ويُقبِّل يديَّ، ألقى نظرة على ساعته وقال:

– لكني سأعود، سأعود إليك يا أمي بعد أن أحقِّق لك ما تشائين...

قاطعته:

– لا لا.. إني أريدك إلى جانبي، لا أريد فراقك...

– أرجوكِ يا أمي.. اِنتهينا!

كان اليوم قائظًا جدًّا، توقف لحظاتٍ كأنه نسِيَ شيئًا ما، ثم خيَّمَ الصمت علينا، بعد لحظة قال:

– عليَّ أن أسرع، سوف أكتب لكِ عن كل شيء.

– لا بُدَّ من ذلك.. طبعًا. يسرني أن أعرف أنك على ما يرام،

اكتُب لي عن كل شيء بالتفصيل.

وفي الحقيقة كنت أتمالك نفسي بشكل عجيب، ومن يومها لم أعد أخوض في هذا الموضوع، فقد أدركت أنْ لا فائدة من كلام لا يُسمع.

أما أبوه، فقد كان خارجَ إرادته، ابتعدَ بضعَ خطوات، هزَّ رأسه، وصل إلى الباب، بعد دقائق معدودات، لم يلتفت إلى شيء، ولم يسمح لأي شيء بإعاقته، فقط حانت منه قُربَ البابِ نظرتان خاطفتان إلينا، واصل سيره إلى الشارع، وما إن تخطى الشارع حتى دلقتُ خلفَهُ الماءَ من جَرَّة كانت بيدي.

مرَّ أسبوع ولم يأتِنِي منه أيُّ خبر، فكتبت له أول رسالة:

«ولَدَنَا الغالي.. مساء الخير يا حبيبي..

بعد التحيَّة والسلام..

أشعر بكَ يا ابني الحبيب هذه الأيام أكثرَ من أي فترة ماضية، أشعر كأنك بداخلي، شعور غريب، لم أشعر به من قبلُ. لقد فتحتُ محفظة الصور الخاصة بك، كنتَ طفلًا جميلًا، جمعتها أمامي، ورتَّبتُها حسب سنوات عمرك، وجهك في الصور يبدو يانعًا، وأنت داخل سور الحديقة، وأنت في العربة التي اشتريتُها من مكان يبعد عن بيتنا عدة كيلومترات.. لكن الأمر كان يستحق، وأنت في الصالة تحيط بك لُعبك من كل ناحية، وقد تناثرت بألوانها الزَّهرية...

إنها صور تتجلَّى فيها روحك الحنونة، أجل، هي مِرآة لروحك

تعكس تناغمك الداخلي حينما كبرت، لذا لا تصنع شيئًا إلَّا إذا خفق له قلبك، فالحب هو الأصل في النجاح والإبداع والابتكار، بالحب خُلِقْنا، وبالحب أنجبت النساء العالم.

أثقلت عليك يا قلبي بعدما أعرضَ عني الزمن وأربكني الحزن، العِلَّة طالما راودَتْنِي، فلطالما حمَّلتُكَ ما لا تطيق، رغم كل ذلك، أشاهدك في مِرآتي بكل صفاء الفضاء، بكل انتظار السفن. من يصدِّق أنك خَفَقْتَ بكل ذلك الحب في صمت مطبق؟! وربما كان الحب علامة من علامات الصبر، ولم يبقَ منك إلا جَرَّةُ دموع تفجَّرَتْ عند صفحات العمر وتلاشت في الطرقات، كنت كلما أهم بالنوم يخطر عليَّ أن الموت سيزورني في الليل فلا يطلُع علَيَّ الصباح، وتبقى وحدك مع إخوتك، فسألتُ الرحمن السلامة رحمةً بمن ينتظرون معونتي، حتى يكتمل وعيهم ويشتد عودهم.

أَتَعرِفُ؟ كان أبوك لا يعرف الحب، كان يعتبره بريقًا لوردةِ نظرةٍ يضيع في زمن وجيز، وينتهي، وتبقى ذكرياته تذهل الزمن. وكنت قد شكوت إلى إحدى الأمهات الحكيمات هذا، فعقَّبَتْ «هل تنكرين دفء الدنيا ونشوتِها؟»، قلت لها «لا أتذكَّر مذاقها». وكنت أقول دائمًا، إنها الحروف الأولى من اللغة التي يجب أن نتعلَّمها، نجاهر بها بكل معاني التوقُّد والشوق، إنها اللغة الإنسانية الأولى، التي تَخلَّف كثيرٌ عن بلوغ تطورها، إنها الجهاز الإنساني الهائل الشامل للتغيير والتخطِّي والإبداع والرؤية. حين يقال إن الإنسان كائن متكلم

لغتُهُ الحب، يجب أن يُعنى ذلك، لأنه كائن مخطِّط مقتحم مُغيِّر متغيِّر، رافضٌ لِذَاتِه التي كانت بالأمس.

كان أبوك يعتقد أن الحب عاطفة اعتباطية ظهرت بين البشر، وصارت بين الرجل والمرأة شيئًا قسريًّا، لقد كانت الأنثى في الحضارات القديمة معبودةً ومقدَّسة، كانت هي إلهة الحب، ربَّة الجمال، أما في عصرنا فقد خُلِعَتْ على الرجل كلُّ القداسة، حتى قداسة الإنجاب، إذ جاء بالنصوص اليونانية أن الإله زيوس أنجب مرتين، مرة من فخذه عندما ولد بروميثيوس، والأخرى من دماغه محدِثةً صداعًا في رأسه، حين ولد أثينا، التي كانت ربَّة الحرب والحكمة لأنها وُلدت من رأس أبيها زيوس، وتلك قصة طويلة سأحكيها لك فيما بعدُ.

ما أريد قوله يا ابني، إننا في عصر قداسة الذكورة، حين جعلوا الرجل يحمل ويلد على وجه المجاز، بمعنى أن كل ما يفعله أو ما يقوله أو ما يقرِّره الرجل هو أصيل في القداسة. ثم تبرير وتسويغ تسمية الرجل بالوالد، أيُّ زُور وبهتان هذا؟ ثم الأكثر من ذلك، إقرار ولايته وقِوَامته على المرأة!

آهِ يا ابني. آسفة، لقد أطلتُ عليك، لأني أشتاق إلى الحديث معك كما تعودنا في الليالي الطويلة. سأكمل رسالتي لك في المساء، تحت ضوء القمر، عندما ينام إخوتك، لن أقول لك «كيف أحوالك؟ وكيف آلَت الأمور عندك؟»، لأنك وعدتني

أن تكتب لي عن كل شيء كما اتَّفقنا لأطمئن عليك.

هل تذكر يا ابني اليوم الذي قدَّمتُ فيه أوراقك إلى المدرسة حين قدَّمتكَ إلى مدير المدرسة وقد أنشدتَ نشيد «موطني» أم أنك نسيت؟ هل تتذكر؟

كنا قد ذهبنا قبل الموعد بساعة على الأقل وكنت تبدو كالأمير الصغير بأناقتك المختلفة عن باقي الأطفال، كنت ترتدي بنطلونًا قصيرًا ترفعه بشيَّالات (*) أستيك حمراء، وقميصًا سماويًّا بفيونكة حمراء حرير كي تنسجم مع الحزام الأحمر والشيالات، وذلك الحذاء الأسود اللامع الذي اِحتضنتَهُ عند سريرك، آهِ يا ضنى روحي! دائمًا ما أتذكَّر تلك الأيام الأولى لدخولك المدرسة، وكان الأطفال يحيطون بك معجبين بمظهرك ولباقتك التي سبقت عمرك.

كنتَ كلما تأتي من المدرسة تحكي لي عن الأشياء السيئة التي يتعلمها الأطفال، كانوا يتعلَّمون الأكاذيب المختلفة المضرة بهم أبلغ الضرر، لكنك اكتسبتَ تصرُّفاتك، هدوءك الجمَّ، إشراقة محياك، حنوَّك الفائض، تعلُّقَكَ بالموسيقا الذي أدهش الجميع حين عزفتَ نغم «أهواك» للمرحوم عبد الحليم حافظ ولمَّا تبلغ من العمر أربع سنوات. كل تلك الأشياء شربتَهَا مني لأنني سقيتُك إيَّاها شرابًا صافيًا طاهرًا.

* حمَّالات البنطلون

كنت تسأل عن كل شيء، وكنت أبذل أقصى الجهد لأضمن لك إيصال المعلومات والمبادئ الصحيحة والمحافظة عليها، كنت أستعين بشخصيتك القوية في إقناع أخويك تجاه أي تصرُّف سيِّئ أو خاطئ، رغم أنك لم تكن سوى صبي صغير حينها.

آه يا ابن روحي! أعرف أنك كتمتَ كثيرًا في قلبك الصغير، وكانت آثار الحرب الكارثية الخاسرة تدعو الأطفال إلى تقليد أساليب العدوِّ حينذاك، كانوا يلعبون بالبنادق البلاستيكية داحل الأزقَّة وكنت تقول: «ما ذلك الهراء؟» ولم تهتمَّ بهم أدنى اهتمام.

كنتَ تفكر أكبر من سِنِّك دائمًا، وتهزُّ رأسك وتبتسم وتستدير راغبًا في العودة إلى الغرفة التي قضيتَ فيها طفولتك القلقة، تحتضن البيانو الصغير وتتمايل على أنغامه القصيرة. يؤسفني يا بني أنني لم أستطيع تقديم شيء أفضل لكم حينها.

هل تذكر (السِّت سَلمَى) المُعلِّمة في المدرسة في تلك الفترة؟ رغم أنها كانت متطلِّبة.. كانت طيبة معك ومع إخوتك فيما بعد، كانت تقول عنك إنك طالب مُجِدٌّ وولد طيب، ذكي جدًّا. أجل ما أزال أذكر كلماتها اللذيذة بحقك، لكني لا أعرف أين هي الآن.

هل تذكر؟ كان هناك معلم آخر اسمه محمود كان معلمَ

رياضيات ممتازًا، إني أتذكَّره جيدًا، معلم ممتاز، أعتقد أنه قد التحق بالجيش وشارك في القتال ولم نسمع عنه منذ ذلك الحين، أجل لقد كان ممتازًا. وكثيرٌ من المعلمين والمعلمات لم أسمع عنهم شيئًا.. كانوا معجَبين بك جدًا.

هل ما زِلتَ ترغب في اقتناء عودٍ؟ لا زلت أنا أتحسَّر ندمًا وحَيرَة لأنني لم أتمكَّن من شرائه لك، أتذكَّر حينها استَأذنتَني لتطلبه من أبيك، إذ كنتَ مضطرًّا إلى شرائه لحاجتك إليه في الدراسة، لكن ردَّه الغريب عليك غيَّر أمورًا كثيرة، حينما فرض عليك المقايضة بالتنازل عن حقك في النفقة وسوف يوفِّر لك كل ما تريد.. غرفة مؤثَّثة بأثاث جميل في بيته، وستمتلك عودًا تضرب عليه بأناملك القوية. ولم أكن أتصوَّر أن شيئًا من هذا سيحدث، ولم تكن تتَّفقُ معي، كنتَ أنت واثقًا به، وهذا ما كنت أخشاه، لأنني أعلم أنه يحثُّ أبناءه من زوجته الأخرى على الدراسة والاجتهاد، ويحاول إقناع كبيرهم بقضاء بعض الوقت في تعلم الموسيقا وهو لا يملك الرغبة ولا الموهبة. كنت أخبرك بألَّا ترهق نفسك بالتفكير في مساعدة الأب خوفًا عليكَ من الصدمة، لكنك لم تستمع إليَّ.

كنت أذكِّرك أن الإنسان حينما يؤمن بشيء يفعله بدون إضاعة وقت، على أن تأخذ الأمور ببساطة وتتعلَّم بالمتوفر لديك، وتجاوزتَ الحالة وتعلَّمتَ الضرب على كل الآلات بفضل جهودك وإصرارك على المُضِيِّ، وكنتُ مؤمنةً بأن لك القدرة على ذلك، لكنني آسفة لأنني لم أستطع تقديم

الأفضل في تلك الأيام، كنت مؤمنةً بنجاحك وأنت تحصد مزيدًا من التقدُّم، وها هو العالم يصغي الآن إلى موسيقاكَ وغنائك العابر للقارات.

اعذرني يا ولدي، سوف أعاود الكتابة إليك.. ولسوف أنتظر ردَّك وزيارتك لنا».

أغلقتُ الظرف، ووضعتُهُ في صندوق البريد، وقفلت عائدة إلى المنزل وأنا أجرُّ أبنائي لصق جدار السوق القديمة، مُعذَّبةً، تتجاذبني الحَيرَة والأفكار المتضاربة.

التفتُّ إلى ناحية ما، فرأيت عجوزًا مجنونًا متسربلًا بجلباب مقلَّمٍ مقطَّع الأذيال، يشع حكمة من كلامه المريبِك، كان قد ترك جلوسه عند جسر الشهداء وهو يهتف «عِلم ودستور ومجلس أمة.. كلٌّ عن المعنى الصحيح مُحرَّف».

مَرَّ بجانبي حتى أصبح على بعد شِبرين مني، فهمس:

- إنها لا تساوي شيئًا.

فأيقنتُ أنه قرأ هواجسي، ارتجفَ قلبي، وارتعدَتْ فرائصي بشدة، كنت قد سمعتُهُ سابقًا عندما كان يمرُّ بين المحال والدكاكين يصيح: «إنها آتية لا ريب فيها»، ثم يمضي مهرولًا فلا يبقى منه إلَّا منظر ثيابه المهلهلة ونظراته الشاردة. حتى قالوا عنه إنه وليٌّ من الأولياء، والبعض قال «ما هو إلَّا عميل من رجال النظام».

عندما حلَّ الليل، رأيتُني في المنام في حجرة متوسطة،

يضيئها مصباح قريب الشبه بالفانوس وُضع على رفٍّ صغير قريب من سقفها، لم يكن في الحجرة أبواب أو نوافذ في الجدران، إلَّا دِكَّة صغيرة مرتفعة أمامي بسلَّم صغير، فشعرت برغبة في العودة إلى بيتي وأولادي، الوَحشة وَارَتْ أعماقي، حينها تراءى لي وجهٌ غير واضح المعالم، كان متوسط السِّنِّ، فواحَ العطر، محتشمَ النظرة، اقتربتُ منه، قال لي: إليك هذه الترنيمة، احفظيها جيدًا، وردِّديها عند الحاجة.

فجأةً استعدتُ نفسي، نظرت حولي، كنت في حجرة واسعة عالية السقف، خاليةٍ من الأثاث عدا سرير في الوسط إلى جانبه كرسيٌّ أبيض، وثمَّة باب يُفضي إلى مكان لا أدري شيئًا عمَّا وراءه، تبيَّنَ لي أني راقدة في المشفى، فناديتُ، إذ لفت انتباهي السرير الأبيض وجهاز التنفس الصناعي، وجهاز مضخة السوائل، وجهاز قياس السلامة الكهربائي وقناني الأوكسجين الكبيرة، ولافتة مكتوب عليها «غرفة الإنعاش» قرأتُها من خلف الزجاج؛ ارتعبتُ وهتفتُ، ثم دخل عليَّ مجموعة من النساء والرجال، رأيتُ وجوههم تتألَّق بالسرور، يلبسون لبس الأطباء اجتمعوا حولي، هتفوا جميعًا: «حمدًا لله على سلامتكِ».

وفي زاوية ليست بعيدة، وقف كبيرهم يصغي إليَّ ويتابعني... قلتُ بهدوء:

– هلَّا سمحتَ بأن تخبرني ما الأمر.

فأُنكر الواقع الماثل لعيني. قال:

– إنها وعكة بسيطة، الحمد لله أن اليأس لا يعرف الطريق إلى قلبكِ، كيف حالك الآن؟

فأجبتُ بحياء:

– الحمد لله أفضل.

تذكَّرتُ أنني عندما عُدتُ إلى البيت خُيِّلَ إليَّ أن آدم قد نسيَ وعده، فبخلَتْ يداه عن الكتابة لي، تركني من دون تفسير يُطمئِن قلبي، ولم أترك له طلبًا أو شيئًا حتى لو بالإشارة إلا نفَّذتُه، كنت ألبِّي طلباته بدون مبالاة بالثمن، وقد أنذروني بسوء العاقبة. ربما أراد أن يترك عهده الطويل بالأسى والبكاء، عندما كان كل شيء يُشعره بالمرارة، فكَّرت أن لا بُدَّ أن يشعر بالحنين في ساعة خَلاءٍ مع نفسه، حينها شعرتُ بثقل واختناق كأنَّ شيئًا جثم على صدري، ولم أدْرِ ماذا حصل بعد ذلك.

إنها جارتي، أجل، الجارة ونِعْمَ الأخلاق! عندما ذهب إليها أبنائي لنجدتي، وجدَتْنِي مغميًّا عليَّ عند أريكة أمام الباب، فسألَتْهُم: ما الذي كان؟

قالت: وبينما يتبادل الصغار النظر، اتصلتُ بأخيكِ الذي جاء إلى المشفى ليوقِّع على إجراء عملية القلب لك، وخرج ولم يعد. عِلمًا أن العملية كانت نسبة نجاحها ضئيلة، وقد أخبره الطبيب بذلك، ولكن بقضاءٍ لا رادَّ له، عدتِ إلى الحياة

ثانية.

كنت مُتَيقِّنة أن الواقعة لا ريب فيها، عندما شُغِلتُ بالهواجس والخواطر، وانتزعتني حواسي إلى العبور من المجهول الدامي، حيث تَلَقَّاني الأحبَّةُ ومن بينهم أبنائي يمرحون كالعصافير.

كان البيت صغيرًا، والرزق محدودًا، لكنهم عاشوا نعيمًا لم يتصوَّروه، عندما وجدتُهُ كان غير مكتمل البناء، وسرعان ما أتمَمْتُه، ابتسمتُ وسألتهم: «كيف تجدونه؟»، قالوا بحرارة: «ذا جناح كالحنين!». ولعبَت البسمات فوق الشفاه، فقلتُ لهم: استقرُّوا الآن في ظلِّهِ، فقد وصلنا بعد لهاث طويل، ولا تنظروا إلى الوراء.

تلاشت الوجوه العابسة، وعَبِقَ الجوُّ بعطرِ الطيب، ودفء الصفاء، تحرَّرنا من تأوُّهات الظلام، ورفعنا جدار الفراق بيننا، فجَلْجَلَ ضجيج القرنفل وحانَ موسم الحصاد ليملأ أطباقنا الفارغة. دعوتُ أمي أن ترى بيتي، لأنها كانت تَرِدُ على خاطري مرارًا فأتخيَّلُها فَرِحَةً تَلْهجُ بالدعاء، ولأني تناسيت لياليا العاصفة الماطرة عندما أوَيْنا إلى البيت الكبير، ولا لوم عليها حين آثرت السلامة في وقتها، جاءت، فنَسِينا الأرق والعواصف، انتهزَت الفرصة وقالت:

– ما أجمل راحة البال!

مضى الوقت، مثل نهر بلا توقُّف، فوق الزمان والمكان، فوق الأَمْسِيَةِ التي ورَّثْتْنا حزنًا لا يخلَف له ميعاد، وها هي قد دَقَّتْ عقارب الأمان، فوق ضجر الساعات في زماننا الماضي، ذهبوُا إلى الجامعة، وبقيتُ في البيت وحدي، خفَّفْت من ثياب الهَمِّ، ولكن حملتهم الرياح إلى سَحاب الغربة، ولم يك في نِيَّتي ما فعلوا، تأبطوا ذراع السفر، وسارت بهم أقدامهم ثابتةً، ولكن سرعان ما أَنِسْتُ لرأيهم ووثقتُ به.

قلت في نفسي: سعيدُ من يبقى بمنزله حتى آخر العمر، لولا أنْ صادفَتْنا ذات يوم بائعة الهوى، فودَّعْنا ظِلَّنَا ليسير معها، وقد يجمعنا الزمان أحيانًا به، مصادفةً، فيُلقي عليَّ التحيَّة، وأردُّ بفتور وأمضي في سبيلي، وأحيانًا يحلو لنا في بعض أوقات الفراغ أن نذكُرَه في سياق الدعابة والمزحة، ولكن هيهاتَ نَنَسى عقوقه! فحين يخطر على بالي، يتفجَّر قلبي بالشجن، وربما الشوق، لقد مضى عمرٌ آخَرُ على آخِرِ مرة جاءنا فيها، رحبتُ به وقلت: «لقد جئتَ في وقت ترامَى فيه الأولاد كلٌّ في طريق». جلسنا نتبادل النظر في قلق، نمدُّ البصر إلى الباب المفتوح، ساد صمتٌ، فقلت في نفسي «متى يتكلم ويَعرض حاجته إلى المقابلة، ليجيء دوري؟».

قال: متى تفتحين باب الرجاء لأذهب بصدر مُنشَرِح

بالأمل؟

لم أُتِحْ له الفوز باللقاء، ليعود إلى ظلماته، عبثًا حاول تبرئة ساحته، أحنى رأسه بين يديه، قصصتُ عليه قصَّتنا وما آلت إليه الأمور بعدَه، ولم يَبْدُ عليه ملامح الاعتذار، قلت:

- لقد دفعْتَنَا إلى دوَّامة الحياة وأعطافِها الضيقة من دون أن تعرف ما كان منَّا، تضرَّعنا إليك، لعلك تضمُّنا إلى دُنياك وتبتسم لنا، كي ترنُوَ إلينا بنظرة عطف واحدة، لكنك قلت بكل جرأة: «لا تأتوني، ولا تتقدموا خطوة نحوي». ألا تتذكر؟ أتساءل.. أين ذلك الوَلَهُ الجميل؟ لم يكن بيننا وبينك إلَّا خطوات، ولم تستقبل أحدًا منهم، كنت تطردهم وتغلق الأبواب والنوافذ دونهم، مستسلمًا لكَيْدِ المرأة!

سادت برهة من الصمت، فأردفتُ:

- أمرك لا يُصدَّق! حين أغرتك نشوة التمادي في اللَّهو حتى أصبحَتْ عاقبتك الجُبن فهربت منَّا بلا هدف وبلا هدف ذهبت، فخسرتَ الراحة والنعيم. حين فاجأك آدم تحت اشتداد الريح والمطر في الليل وهو يلوذ بك ويتوسَّل أن تُعيده إلى المنزل بعد أن ضَلَّ سبيله، وأنت تسخر منه وتتركه وحيدًا في الظلمة! لقد انعقَدَ لساني من الهلع، أيُّ قلب قاسٍ بين جوانحك؟ أَلَا تطاردك أصواتهم وبكاؤهم؟ لا أدري كيف تناسيت أبناءك! أين ذهب عقلك؟ ألم يحاسبك ضميرك؟ كيف؟ كيف؟ ماذا كنت تنوي أن تطلب عندما أردتَ اللقاء؟

كنتُ أُوقظك من النوم قبل شروق الشمس، أنا التي ناصرَتْكَ وشدَّتْ أزرك فانطلقَتْ للعمل، أنا التي أغرتك بجمال الوجود عندما حمل إليك رَحِمِي ثلاثة أقمار، لقد قلتُها لك مرةً.. «لا تُعرض عني فتندمَ مدى العمر على ضياع النعمة»، وما كان زواجي بك إلا مُصادفة في وقت أعمى.

سكت صوتُهُ كأنه غَارَ فيه، وقد طارده شعور بالنهاية، ساد صمتٌ متوتِّر، ولما قرأت ملامحه، قلت له: لا تتوهَّم أن سلوكي معك صادرٌ عن قسوة أو أنانية، بل صادر عن حبي الشديد لأبنائي الذين خذلتَهُم.

لم أنسَ ذلك الرجل الذي علَّمَني أول تجربة في عمري، لم أنسَ ذلك اليوم الذي جاء فيه آملًا اللقاء مرة أخرى، حتى عَرَفتُ أنَّ المِحَنَ قد لاحقَتْهُ، عاش حياة زوجية تعيسة، وتحمَّل بصبر كل الألم، ثم انغمسَ في الكآبة وتعايَشَ مع متاعب تصلُّب الشرايين، ضعفت ذاكرته، ونسِيَ في ما نسِيَ خسائره ومتاعبه الحياتية، فطردَتْهُ زوجته، ونسيَتْهُ فأنكرها، وأصبح يشعر بأن وجوده في بيت واحد معها لم يعد يُجدي، نسِيَ شخصَه ونفسه، ربما أصبح في قمة الراحة لأنه أفلَتَ من عذاب الضمير، وربما سَرَتْ تلك الأخبار برعشة ارتياح في أعصابي كتخليصِ بعضِ دَينٍ في عنقه.

رحتُ أحدِّثُ قلبي:

كم احتفيتَ بالظلام
كم قرَّعتُكَ
عند بِركة الغَيم الأَصَمِّ
وجدارِ الأسى
يرجعُ لك صدى الرجاء
متى تستقر فيك
اللا مبالاةُ
وتسدلُ ستائر السراب؟
كم سقيت جذور الشوق
ساهمًا
تُسَجِّرُ الرُّوح
بحطبِ الذاكرة
وبكفَّيْكَ مَوَانٍ وغِياب.

عندما تقدَّم إلى والدي ليخطبَني إليه، كان أول سؤال ألقاه عليه أبي هو:

– كم تتقاضى في الشهر من عملك؟

– سبعين دينارًا يا عمُّ.

– لكنه مبلغ طفيف لا يَفِي بالغرض ولا يكفي.

– لكنَّ ما بيننا من مودة واحترام قد بلغَ مبلغًا ننسى معه كل شيء، والتدبير يضمن لنا السَّعادة مهما كانت الحالة المادية.

– أَلَا تدري أن الخبز قبل الحُبِّ أحيانًا؟ ألم تسمع بأن حذاءً من أحذيتها يكلفك راتبك كله؟! أما لك موردُ رزق خِلاف وظيفتك؟

– «خذِ الفقير ونَم على الحصير والمُغني هو الله»، وأظن أننا سنُرزق ما يكفينا من حيث لا نحتسب، أنا على يقين...

– دعنا من يقينك! وهَلُمَّ نُحْصِ ما تحتاج إليه من أثاث وأغراض المنزل والأغراض وتكاليف العرس...

– أستطيع أن أحصل من الأعمال الخصوصية، مثل الدروس الخصوصية، أو التنقيح لبعض الوثائق...

– كم تربح، مثلًا؟ وهل هذا مضمون؟

– لا أعرف بالضبط، لكنني سأحاول. أدري أنه شيء غير مضمون ويحتاج إلى وقت...

– ماذا تقول؟ أتقول غير مضمون وتريد الزواج بابنتي؟ ما الذي تقوله يا هذا؟ الظاهر أنك تنتظر سلَّة ذهب من السماء، أنسيتَ أنك ستُرزق بالبنين، وهم يحتاجون إلى تكاليف لتربيتهم وتعليمهم؟ اِسمع مني أيها الشاب، هناك مَثَلٌ يقول «اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك»، وأنا أرى أنك على خُلق

فقد امتَدَحُوك كثيرًا، وما أمامي إلَّا الموافقة بشرط أن تبذل جهدك في زيادة دخلك بأي وسيلة. ولكني أقول لكَ مقدمًا إن سكن ابنتي هنا في البيت الكبير، فإن وافقْتَ فأهلًا وسهلًا، وإن لم.. فكان بها.

– بالعكس يا عمُّ، هذا من دواعي سروري ويزيدني غبطةً وسعادةً.

بلغ السرورُ مبلغه من أحمد وقتَهَا، وأَكبَّ على يد أبي فقبَّلَها، أتذكَّر أنه لم يكن هناك أشدُّ من فرحِهِ وخيلائه وزهوه، حتى خرجنا للنزهة لأول مرة، ولم تكن أمي موافقة على هذا الرجل «المنحوت من الفقر» كما وصفَتْهُ، واقترب موعد الزفاف ففكَّرنا في الجهاز اللازم لفرش المكان، فاقتنَينا المراتب والمخدات المكسوة بالساتان، ومرَّت الاستعدادات على أتم ما يكون من الابتهاج، لم أفكر حينها في زيادة المشتريات وإثقال كاهله، وأصبحنا نطوف البلدة نبحث عن المناسب من الأثاث والأمتعة، ثم استحثَّني على مشاركته في المصاريف مناصفةً بدلًا من الأسى على حاله، وكان ذلك، إذ شاركته عن طيب خاطر، فرشتُ غرفة النوم فكانت كأنَّها مركبة تحلق على سكة الحياة؛ نشرتُ الملاءات الذهبية المفضَّضة والوسائد في أغلفتها المذهبة منقوش عليها بعض الزخارف الأنيقة، ومرآة بإطار من الإضاءة الملونة، ومصابيح بمظلات صغيرة على الكومُدينو عند جانبَيْ السرير، والستائر المخملية، حتى أصبح المكان كمحراب قديسٍ، ونحن بداخله نحتفي بالحياة

الزوجية.

وعند الإفطار قمتُ على قدم وساق لتقديم ألذِّ الأكلات الشهية، فتواردت على خاطره الأكلات الشاحبة إبَّان حياة العُزوبَة حين كان يلتهم طبقًا من الفلافل المقلية أو سندوج الباذنجان والطماطم الناشف، حتى قال:

- تعسًا للأغبياء الأعزاب الذين حَرَموا أنفسهم نفائس الحياة.

فقلتُ:

- إنهم مُكرَهون على العزوبة لضيق ذات اليد، فلو كانوا في سعة لتزوَّجوا.

تذكَّر أحمد فقره، فاغتمَّ واهتمَّ وقال في نفسه «لم أكن إلا واحدًا من هؤلاء الأعزاب عسرًا وأشد ضيقًا، لكني باذل جهدي في إيجاد أسباب رزقي والأهم أنني ربحت جوهرةً، فعسى الله يجعل لي من هذه الأزمة مخرجًا، وسأنظر في التماس الأعمال عما قريب».

ولم يجد أحمد أي فرصة لمزاولة أي عمل إضافي يُرجى منه زيادة دخله.

كان الشهر الأول سلسلة من الولائم والنزهات والسهرات عند الأهل والأصدقاء وكان له ولع خاص بها، حين يتناول العشاء في وفرة من الهناء والسمر، بعده تدور الأحاديث في موضوعات شتَّى، كان كل حديث أحمد حول الاقتصاد في

المصاريف حتى جعل الوفرة نصبَ عينيه فقط، ولم أتوانَ عن وضع جدول للأصناف الرخيصة على سبيل الاقتصاد يومًا أو يومين في الأسبوع، لكنه كان يقطِّب حاجبيه حين يتناول قطعة بيدٍ متململة متردِّدة ثم يبتلعها رغم أنفه وقد كظم غيظه، وعندما يضيق ذرعًا يرسل في طلب الطعام من المطاعم المجاورة ويَنْظمُ أشعارًا في هجاء الأطعمة السمجة الرخيصة، وعندما ألومه على هذا الإسراف وأُذكِّره بأطروحاته عن الوفرة، يقول إنها مسألة بسيطة.. «اليوم الجيب عامر»! ولم أكن أعرف كيف ومتى ومِن أين يعمَّر جيبه.

في خلال هذه المدة حملت بآدم، ولم يبذل أحمد أدنى مجهود في سبيل زيادة إيراده بالتماس بعض الأعمال التي ذكرها لوالدي، ولما دنَتْ ساعة المخاض حاول أحمد طلب سُلفة لكنها رُفضت، ومع ذلك كان يأتي محمَّلًا بسِلال الفاكهة، وهو يقول «انظري.. إن كل هذا لم يكلفني نصف دينار»، أستغربُ، وأقول له:

– يا عزيزي نحن لا نستطيع أن نستمرَّ على هذا الإسراف!

– الأرزاق على الله، خليها على الله، لا تحملي همًّا، لأنني موعود بعمل بعد أيام.

– ولكن ماذا نصنع عندما تتراكم الديون؟

– لا بأس، سيأتي الرزق، لماذا الكلام في هذه الشؤون المالية المؤلمة؟ لنُرَوِّح عن نفسنا وكربنا. الله ما أطيب الفاكهة!

عاودت عليه الكلام عدَّة مرَّات، في مسألة الاقتصاد والكفِّ عن الإسراف، وسألني مرة:

- ألَا تحتاجين إلى بعض المال لقضاء أغراض المنزل؟

- كلا. أشكركَ!

- لنُرَوِّح عن النفس، ونجلي الهمَّ عن صدورنا، ما أقبح الكدرَ والهمَّ!

كنت أستغرب عندما استمر في الذهاب في نُزَهٍ مع أصدقائه إلى نادي الصيد حيث يتناولون الطعام في منتهى التفكُّه واللهو، ومن ثَمَّ يجيء مستغرقًا في الضحك والطرب، لكن الكآبة تعتريني والانقباض يسيطر على صدري، ماذا لو كان ينال تلك اللذة والمتاع في المنزل؟ ألَا يكون أقل نفقة؟ ومرت الأيام وجاء يوم المخاض وآنَ أن أهيِّئ لوازم المولود ومعداته فهو بحاجة إلى مهدٍ وخزانة ملابس، وإلى ثياب وأشياء أخرى. وكان يوم الولادة، وما كان أشدَّ من كربة والدي وأحرَجَ موقفًا، حين اضطُرَّ أن يُخرج حفنة من الدنانير بدون أن أُلاحظ ذلك، وأعطاها خفيةً لأحمد كما في كل مرة، ليُسكت ثورة الغضب لديه، حين رأى أن المسؤوليات الجديدة أثقلت كاهله.

واستمرَّت مصائبي مع إسراف أحمد، وكشَّرَتْ أنانيته عن أنيابها، وأعلن أنه يريد بيع الأثاث، ولكن أي أثاث؟ فنحن

لا نملك منه سوى غرفة النوم، وعندها جاء والدي ليتحمَّل مسؤوليتنا كاملة، حينما تيقَّن أنه أراد أن يعيش على كاهله مجانًا.

مرَّت سنة، وكان في وقتها قد أُعلنت «المواليد» فذهب لأداء الواجب الوطني في جبهات القتال، وأخذ يزورنا في الشهر أسبوعًا بحسب الإجازات الممنوحة للجنود، حتى حدث ما حدث.

الآن وقد لاحت الشيخوخة تطرق أبواب حياتي وتمتدُّ بملايين الأوردة لتكتب عن بقايا المعبد الذي لم تفارقه القصائد، تهالكتُ على الكرسيِّ منهكةً مكدودةً، ضممتُ وجهي بين يديَّ وأجهشتُ، فتحتُ النوافذ لنسيم الحكمة، فما أوجع الحياة وما أضناها! أما هو فقد نسِيَنَا عهدًا طويلًا مشحونًا بالحقد والكراهية والغَيرة، غادر البلاد، ومضى في شأنه، ولبث مدة طويلة يضرب في الآفاق، حتى ألقى عصا التَّرحال في بيتٍ فقيرٍ كأنه صومعة راهب لِيَنأى عن الناس، ينظر في مقلتيه الكليلتين، وعلى شفتيه ابتسامة استهزاء، أكان يتذكَّر عهد الصِّبا الغابر؟ أم يتفكَّر في غروره وأنانيته؟ حتى أصبح يتنهد في حسرة:

«ما حاجتي إلى الحياة؟ وما ثمرتي منها؟ فقد تركتُ من أحبوني وخذلتهم، وسعيت خلف من خذلوني. وفِيمَ احتمالي لهذه الأرزاء، وصبري على طول المِحَن والبلايا؟ وما الفائدة

من السفر والتَّرحال والطواف والتَّجوال؟» ثم يردف: «أليس هذا هو الطريق الذي هدفت إليه؟».

لقد أومأَتْ إليه غادةُ الموت بأناملها، استَدْنَتْهُ، وجذبته بعينيها المسحورتين، ولم يعلم أن الموت شاهرٌ سيفه في خباياها.

ولم يبقَ من شارعنا القديم سوى صور متلاطمة لذكرى تكتظُّ بالغبار وأفواج الناس المتلاطمة، وبعض صور جميلة تلُوح من نافذة تركت عبق الرازقي والياسمين على السائرين، وقصائد سُكِبت فيها روح كانت قريبة من دروب الطفولة الظليلة وما سَكَبَ عليها الصيف من قسوة.

بالأمس عندما كنت يافعةً كان مذاق الحياة حلوًا، مثل حبَّات مطر على لساني، أما اليوم فكما لو أنها لعبة حمقاء، فالمساء يغيظه لهب الشموع، وقد تاهت آلاف الأحلام التي حلمت بها، الأشياء الرائعة التي فقدتُها، كلها ضاعت على رمال قلقة، والآن فقط، أرى كيف هربتْ السنون في ضوء النهار العاري، الأغاني التي انتظرتُ كثيرًا لأغنيها، الملذَّات الضالة التي خُزنت لأجلي، وكثير من الألم. عيناي اللتان فاتهما كثير، رَأَتَا الامتحان الرهيب، وقد ركض سريعًا، الوقت والشباب الذي نفد، ولم أتوقف قطُّ للتفكير في ما إذا كانت الحياة تعني السَّعادة أم أن الموت هو الانتصار!

هل تُرانا نكتب مراثينا
على صَدَى الصراخ
أم على انتظاراتٍ لا تُجدي
في ما تبقَّى
من عتب الذاكرة؟
في الوقت المتأخِّر
تُحرقنا زفرة الصمت
في عَتَمَةِ البارحةِ
ونستكينُ لحَمْحَمَاتِ هواء
لا حربَ فيه
حيث لا وجهةَ لي
إلا سقاية
أشجار نافذتي.

المؤلفة في سطور

- هدى محمد حمزة الطائي
- شاعرة وروائية وإعلامية عراقية، من مواليد مدينة بغداد / الكاظمية
- بكالوريوس لغة عربية، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية
- درجة الماجستير في الأدب العربي، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية
- عضو الاتحاد العام للأُدباء والكُتَّاب في العراق
- عضو اتحاد النساء الديمقراطي العالمي
- عضو منظمة حقوق الإنسان
- عضو المركز التنسيقي لمنظمات المجتمع المدني
- مسؤولة المركز الثقافي الفكري للنساء (سميراميس) في بابل
- مسؤولة رابطة المرأة العراقية سابقًا
- مسؤولة القسم المالي في مجلس سيدات الأعمال
- عضو الهيئة الإدارية في منتدى نازك الملائكة
- ناشطة في مجال المرأة والمجتمع
- أسَّست مجلة ثقافية باسم «شمس الحُرية»
- شاركت في العديد من المؤتمرات الدولية في موسكو ولندن وبغداد حول المرأة والمجتمع مع المنظمات الديمقراطية العالمية
- نشرت في العديد من الصحف والمجلات العراقية والعربية والعالمية، منها عمود أسبوعي في جريدة الصباح بعنوان (حبر مؤنث)، جريدة الدستور، صحيفة الغد، الفيحاء، طريق الشعب،

ميسان الثقافية، الحقيقة، وكالة الحدث بريس الإخبارية، مجلة الشرارة، مجلة الطليعة الأدبية، صحيفة نه فرو الثقافية في دهوك، نشرة المنبر التقدمي التي تصدر في البحرين، وكالة دار العرب الإخبارية، مؤسسة أبجد الثقافية، مجلة شعر المصرية، الغارديا، وتريات جواهرية ، جريدة المدى، الصباح الجديد، مجلة معارج الفكر، جريدة كواليس الجزائرية... وغيرها.

• الإصدارات:

١. حوارات الصمت : ديوان شعر. دار تموز للنشر، دمشق، ٢٠١١

٢. كوميديا الإله باخوس : ديوان شعر. دار تموز للنشر، دمشق، ٢٠١٢

٣. نارسيس : ديوان شعر. دار ميزوموتابيا للنشر، بغداد، ٢٠١٤

٤. تفاحة حواء : ديوان شعر. دار ميزوموتابيا للنشر، بغداد، ٢٠١٤

٥. سأقول غير ما يقوله العُشَّاق : ديوان شعر. منشورات اتحاد الأدباء والكُتَّاب في العراق، بغداد، ٢٠١٧

٦. دم على قيص شهرزاد : ديوان شعر. دار ومطبعة السيماء، بغداد، ٢٠٢٠

٧. الرمزية في الشعر العربي المعاصر : دراسة نقدية.

٨. قناديل باب الدروازة : رواية. منشورات اتحاد الأدباء والكُتَّاب في العراق، بغداد، ٢٠٢٢

٩. رابسوديات : ديوان مشترك. منشورات اتحاد الأدباء والكُتَّاب في العراق

١٠. عيون أنانا : ديوان مشترك. معهد غوته الألماني.

١١. التحول الجمالي من الرواية إلى السينما : كتاب في الأدب المقارن. منشورات اتحاد الأدباء والكُتَّاب في العراق، بغداد، ٢٠٢٣

١٢. قِـوامَـة : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٣.

• ورد اسمها وإبداعاتها في عدد من الإصدارات منها:

– كتاب «هو الذي كتب على الطين» : تقديم ناظم ناصر القريشي، ٢٠١٨

– معجم الأديبات والكواتب العراقيات في العصر الحديث : تقديم جواد عبد الكاظم

–انطولوجيا الأدب النسوي : عامر الساعدي، ٢٠١٧

• البريد الإلكتروني: Umfadihuda@gmail.com

شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net